الحملة الأمريكية

مستعربون وسفراء ورحالة

تأليف: روبرت كابلان . ترجمة محمد الخولي



KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش — نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٤٦ – محرم – يونيو ١٩٩٦ No-546 Ju -1996

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

عادل عبدالصمد — سكرتير التحرير

أسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش

سوريا ١٧٠ ليرة – لبنان ١٠٠٠٠ ليرة – الأردن ٣٧٠٠ فلس – الكويت ٢٠٠٠ فلس – السعودية ٢٠ ريالا

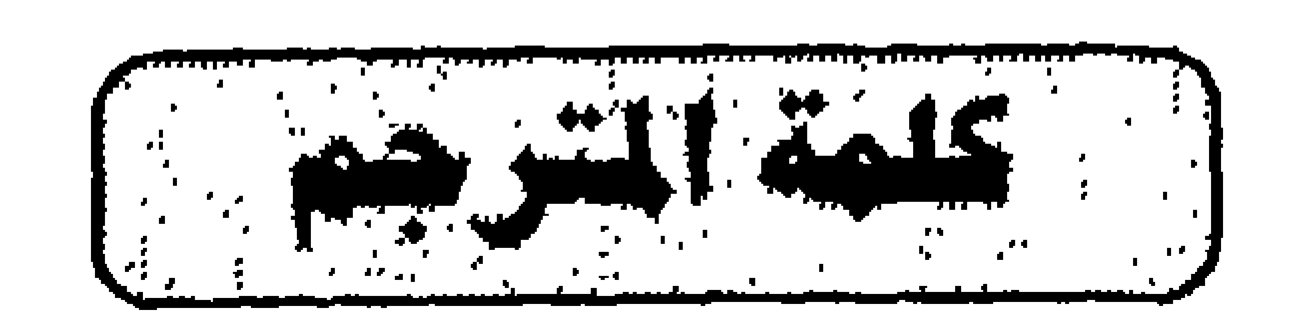


تأليف : روبرت كابلان

ترجمة : محمد الخولي

دار الهلال

الغلاف للفنان
حلمى التونى



كلمة المترجم

هذا الكتاب يستعرض، بأدوات الاستقصاء والتحليل بانوراما ممتدة عبر الزمان إلى لأكثر من ٢٠٠ سنة، ومنبسطة عبر المكان كي تسع، أو تكاد تسع، إقليم الوطن العربى الأكبر: من شواطىء الخليج ثم الجزيرة العربية والشام ومصر إلى المغرب العربى على مشارف الأطلسى.

ومن القسمات المميزة للكتاب، ما توسل به مؤلفه من استخدام أساليب وأدوات شتى فى تناول الموضوع :

★★ منها أسلوب العرض التاريخى فى متابعة ذلك الشغف الذى توهج فى نفس النخبة الأمريكية بشئون المنطقة وشجونها، منذ أن نزل أول أمريكى إلى أرض الاسكندرية فى يوليه من عام ١٧٨٨ أى فى مخاض ولادة هذا الكيان السياسى المسمى حاليا بالولايات المتحدة الأمريكية: كان هذا المواطن - واسمه جون ليديارد مغامرا بقدر ما كان رائدا وإلا ما أقدم وحده على قرار باستكشاف منابع النيل! وكان جريئاً بقدر ما كان مأفونا وإلا لما تجاسر على أن يصف نهر النيل ببساطة بأنه «لا يزيد فى سعته عن نهر «كونيكتيكت».

وهو نهر متواضع يشق واحدة من أصغر الولايات الأمريكية !

وإذا كان هذا الأمريكى المغامر، الرائد، الجرىء والمأفون قد مات بالقاهرة ولما ينقض على وصوله إلى مصر عام واحد، فقد قيد للتجربة الأمريكية مع الشرق الأوسط أن تعيش وأن يعايش أصحابها - مغامرين كانوا أو مبشرين أو معلمين أو ساسة، أو سفراء - تاريخ المنطقة وشعوبها وآمالها واحباطاتها وسلوكيات زعمائها ومفكريها.. وأوغادها أيضا.

★★ استخدم المؤلف كذلك أسلوب المقابلة مع جميع من لايزالون على قيد الحياة من قيادات العمل السياسى والدبلوماسى الذين لعبوا أدوارا أو كلفوا بمهام فى العواصم العربية المختلفة. وعلى اختلاف شخصيات هؤلاء الرجال وتباين خلفياتهم الأكاديمية وأصولهم الاجتماعية ومشاربهم الفكرية، إلا أنهم حملوا - طوعا أو كرها - لقب «مستعرب» وهو فى تعريفه العام - هل نقول الفضفاض - يصدق على الأمريكى من النخبة المثقفة الذى يكون قد اكتسب خبرة مباشرة بالمنطقة العربية وقضاياها، وفى قلبها كما سيتضح من سطور الكتاب، قضية الصراع العربى - الصهيونى. وقد يعمق تعريف «مستعرب» ليصدق على أفراد أمعنوا ونبغوا فى إتقان العربية لغة وثقافة وحضارة «مثل السفير هيوم هوران مثلا» أو أفراد اتصفوا بقدر من نزاهة الفكر واستقامة القصد حتى ليكادوا يتوحدون مع عدالة الجانب العربى

ومن ثم الفلسطينى على محور الصراع المذكور «السفير باركر أو السفير سيل أو غيرهما كثير». وقد يتسطح مفهوم «مستعرب» فيصدق على دبلوماسى التمس ترقية فلم يحصل عليها إلا فى عاصمة عربية أو سفير عاش فى بلاد العرب ردحا من زمن يقصر أو يطول، ولم يعرف من العربية حرفا بل وتأخذه العزة بالإثم فلا يلبث أن يفخر بهذا الجهل وأولئك هم «مستعربو الصدفة» كما قد نقول.

★★ أفاد المؤلف كذلك من السجل الشفوى في مركز التاريخ الدبلوماسى بالخارجية الأمريكية وهو مؤسسة نرى أن من واجبنا أن نحث على إنشائها أو تطويرها فى دوائر الخارجية بمصر أو غيرها من أقطار العروبة: كل من شغل موقعا أو تولى منصبا ينطوى على أداء مهام سياسية أو دبلوماسية أو قنصلية فى إطار سلك الخدمة الخارجية الأمريكية يتعين عليه أن يعود إلى وطنه فيدلى بإفادات شفوية كاملة، وفق دليل إرشادى معتمد ومقنن، بحيث يسجل الزمن محصلة التجربة والدروس المستفادة من المأموريات المختلفة، وبما يشكل مع التراكم عبر أجيال الدبلوماسيين رصيدا هائلا وثمينا من الخبرة التى لا يلبث القوم أن يخضعوها للتدوين والتحرير والتبويب والفهرسة لتسهيل الإحالة إليها مرجعا لا غنى عنه لكل من يعمل من بعد فى هذا المجال.

★★ ولقد حرص مؤلف الكتاب على أن يوازن بين إحالته إلى هذا الرصيد وبين محصلات المقابلات الشخصية التى أجراها، فضلا عن المتابعة التحليلية التى عكف عليها من واقع مراحل تاريخ المنطقة فى عصور شتى واستطاع من هذا كله أن يصوغ مادة كتابه فتجمع بين موضوعية السرد التاريخي وبين «شخصنة» المادة الحية المستقاة من الأفراد وبما أتاح له أن يرفع الستار - كلما احتاج السياق، عن دراما الصراعات بين الشخصيات والأمزجة بل والأطماع والأهواء سواء فى الميدان «الشرق الأوسط» أو فى أروقة الكابيتول هول «البيت الأبيض أو إدارة شئون الشرق الأدنى بوزارة الخارجية الأمريكية» في واشنطن.

ولأن الكتاب يسع بانوراما يتقاطع فيها محور الزمان ومحور المكان، ولأن هذه البانوراما تسع بدورها أكثر من دراما صراع بين مصائر وارادات، فقد كان حريا بالمؤلف أن يصوغ مادة الكتاب بأسلوب يتسم بأناقة الترسل الأدبى بل ويرقى فى بعض مواضعه إلى مستوى التأمل الإبداعى وهو ما جعل جهد التعريب - علم الله - أشد مراسا وأكثر تحديا * . ولأن العمل الفكرى

★ أدخل المؤلف زيادات وتنقيحات على المتن تمهيدا لإصدار طبعة ثانية مرتقبة من الكتاب. وقد حرصنا - بعد الاتصال بالمؤلف - على استيفاء كل هذه التعديلات فى ترجمتنا لنقدم للقارىء العربى نصا مزيدا ومنقحا.

اجتهاد فى كل حال، فقد كان طبيعيا أن تحفل السطور بأخطاء هنا وتجاوزات هناك وهو ما عمدنا إلى تصحيحه أو التعليق عليه - مع الحفاظ على أمانة النقل - فى أكثر من حاشية تحمل توقيع «المترجم» على متن الكتاب.

و .. لا يعرف الشوق إلا من يكابده!

ولكم كابدنا - فى سياق جهد التعريب - من أجل أن نحقق اسم بلدة وردت فى المتن من أعمال الهند - أو نخوض غمرات ديوان البارودى، لكى نرد إلى الأصل بيتين من ابداع الشاعر العربى الكبير بعد أن تغنى بهما فى مناسبة دبلوماسية فى واشنطن مستعرب فصيح من سفراء الولايات المتحدة الأمريكية.

هذه الأمانة العلمية التى التزمنا بها - ونحن بإزاء نص شديد التسييس حافل بالأحكام جعلت الحواشى التى أوردناها أمرا مندوبا إليه كما يقول الفقهاء، وإن كان المطلوب فى رأينا، هو أن يتذرع القارىء بحبال التفهم والصبر فالكتاب فى التحليل الأخير كاتبه أمريكى بكل قناعاته وتحيزاته وموجه بالدرجة الأولى إلى القارىء الغربى، ولكنه محصلة صورتنا عند «الآخر» سواء كان هذا «الآخر» مستشرقا بريطانيا يطل علينا من منظوره الامبريالى، وكأننا أيقونات حضارة بائدة أو تمائم أو تذكارات. يزين بها مجموعاته الأثيرة - أو كان مستعربا أمريكيا - ناهيك

عن «المستعربين العرب» إن صح التعبير - يطل على حياتنا وقضايانا من منظور التبشير أو شعار التمدين ومنهم من يتربص بأخطائنا، والخطأ كسب إنسانى، ومنهم من يتشفى فى جروحنا، والجروح دوما إلى التئام، ومنهم من «يبشرنا» بأن قوميتنا وهْم وخيال وبأن انتماء العروبة الذى يربطنا شعار لا سند له من واقع أو تاريخ!

وإذا كان لمؤلف الكتاب - الأمريكى - أن يثير هذه القضايا وغيرها فلا جناح عليه ولا تثريب. فإن من واجبنا ، بل ومن حق القارئ العربى علينا، أن نتيح له أن يطلع على هذه المقولات وأن يتفهم أبعادها ويتقصى خلفياتها مما يوسع إطار الوعى لديه باعتبار أن الوعى هو أول أسلحة العروبيين فى مواجهة ما ألمحنا إليه من تحديات.

لهذا أقدمنا على ترجمة الكتاب .. نبتغى به أداء بعض واجب نحمله فى أعناقنا تجاه قومنا وثقافتنا والأمة التى نشرف بالانتماء إليها.

والله غالب على أمره.

محمد الخولي

ووتر سايد، نيويورك

أول مايو ١٩٩٥

تمهيد

ثلاثى الأجيال ... والحروب ... والزيجات

فى عام ١٩٦٠، ذروة الحرب الباردة، كان اليمن لايزال متعثرا فى القرن الثالث عشر. وبينما كان «الطيار الأمريكى» * فرنسيس جارى باورز يستقل طائرة التجسس «يو ٢» فوق الاتحاد السوفييتى، كان بيل ستولفوز يحارب الشيوعية بأفلام العرض المنزلى. كان الروس والصين «فى اليمن» يقدمون فيلمين متواليين كل ليلة فى سفارتيهما. هكذا تتذكر جانيت زوجة ستولفوز «السفير الأمريكى» وتقول : إن بيل عبر بالتالى البحر الأحمر إلى اثيوبيا حيث كان لأمريكا قاعدة جوية وعاد وفى جعبته شريط فيلم «سبع عرائس لسبعة إخوة» ونصب بيل جهاز عرض ١٦ مم على سطح مبنى متداع ونظَّم مقاعد منفصلة للرجال وللنساء احتراما للتقاليد الإسلامية. وما كان من الفيلم إلا أن ظل يعرض كل ليلة على مدار أسبوع، ثم حدث أن شاهده الإمام «أحمد حميد الدين» مرتين... وهكذا تحقق النصر لنا... كما تقول زوجة السفير الأمريكى.

★ لإثراء معرفة القارىء ولشرح ما قد يغمض عليه فى سياق النص، عمدنا إلى إيراد شروحات يطالعها القارىء بين أقواس زيادة على متن الكتاب «المترجم».

لم يكن فى اليمن وقتها مدارس ولا إذاعة ولا هواتف ولا سيارات، بل كانت أبواب المدينة تغلق عند الغروب وكانت العملة الوحيدة هي ريال ماريا تريزا : عملة فضية ثقيلة الوزن موروثة من تجار القرن التاسع عشر. وكان المخالفون للأوامر يسلسلون فى الأغلال .. ثم كان قطع الرقاب ممارسة شائعة على رءوس الأشهاد.

«كان لدينا خدم حفاة وسيارة جيب نتبادل - أنا والزوج السفير بيل - قيادتها إلى عدن للتزود بالمؤن.. وكنا نتعيش على علب الفاصوليا المحفوظة من القاعدة العسكرية الأمريكية فى اثيوبيا ، وكان بيل يأخذ أجازة قبل أى حفل عشاء نقيمه فى سفارتنا لكى يذهب إلى الصحراء يصطاد الحبارى. مع أنه كان لدينا كثير من المشروبات وكنا فى حالة ثمل مستمر». هكذا أضافت جين بقدر من المبالغة ملحوظ.

السفير «السابق» بيل رجل طويل القامة.. رياضى الجسم فى الستينات من العمر يجلل رأسه تاج كامل من الشعر الأبيض.. قطع حديث الذكريات «مع زوجته» ليضيف قائلا : عندما كنت أود الذهاب إلى السخنة حيث يقيم الإمام، كان يتعين علىَّ أن أمضى أياما لا يتصل بى أحد بانتظار الإذن بالمثول. ولا أزال أتذكر القلعة ذات الجدران الطينية حيث كان الإمام يحتفظ برهائنه. إذ كان احتجاز الرهائن تقليدا متبعا فى اليمن : الإمام يحتجز أبناء

المنافسين على الحكم ضمانا لولاء الآباء.. أجل ... أتذكر كيف كنت أتربع مع الإمام على البساط.. وكان يأمر بإحضار وحشه البرى الأثير.. يفتح الإمام القفص ويدفس يده كى يلعقها الوحش القابع فيه.. وبعد أن يخرج يده يناوله الخادم فوطة يأخذها الإمام وعلى وجهه علامات رضا ثم يمسح الدم من ظاهر يده.

يصمت السفير الأمريكى السابق ثم يقول : كنت أرقب هذا المنظر معجبا بطريقة الإمام فى أن يترك يده لسنور متوحش كى يخمشها : أقصد طريقته فى استشعار غضبة الوحش.

وقد يكون فى هذا ما أفضى بالسفير إلى أن يتحدث عن «غضبة المسلمين».. يقول : المسلمون لا يقبلون التكنولوجيا التى نعتمدها ولماذا يقبلون ؟ إنهم لا يتصوروننا أفضل منهم لمجرد أننا أكثر حداثة.. ثم ما معنى الحداثة أصلا؟ إننا معشر الأمريكيين مستغرقون فى ذاتنا لدرجة أن لا نتمهل كى نتفهم ثقافات الآخرين.

السفير الأمريكى السابق مؤمن بأن حياة المسلمين وثقافتهم أو حضارتهم ستكون قوة ذات شأن فى القرن المقبل. بل إنه يرى أن الأحوال التى سادت اليمن وقتها «منذ ٣٥ عاما» وإن كانت ترجع للقرون الوسطى، إلا أنها لم تكن «بدائية» قط .. ثم يضيف محترسا، نحن فى هذا المنزل لا نستخدم مصطلح «بدائية» إنه ينطوى على إصدار حكم شخصى على الآخرين.. وإنما نفضل

لفظة «أساسية». وتقاطعه زوجته جانيت كى تستكمل ذكرياتهما عن اليمن :

لا تنسى أماريو جوبيه يا عزيزى. وجوبيه هذا ارستقراطى إيطالى.. فاز فى مضمار الفروسية فى الأولمبياد وكان ضابطا فى سلاح فرسان حملة موسولينى على الحبشة . وقد أعلن امبراطورها هيلاسلاسى مكافأة لمن يأتى برأس جوبيه هذا، فما كان منه إلا أن هرب على متن قارب إلى اليمن متنكرا فى شخصية شخص عربى معتوه.. واستعمله الإمام معلم فروسية لأولاده، ثم أصبح من أقرب أصدقاء السفير الأمريكى بيل وزوجته جانيت التى تصفه قائلة : إن أماريو كان يرتدى دائما ملابس أهل اليمن.

أهلا بكم فى برنستون، ولاية نيوجيرسى حيث منزل السفير ويليام «بيل» ستولفوز وعقيلته جانيت، أول زوجين تبعث بهما الولايات المتحدة إلى ما لا يقل عن ستة بلدان عربية : اليمن، البحرين، الإمارات العربية المتحدة، قطر، عمان، الكويت.

وقد لا يستلفت نظرنا اليوم السجاجيد الشرقية التى نراها معروضة فى كثير من مجمعات الأسواق فى الضواحى.. لكن الطنافس الشرقية فى هذا البيت لها إيقاع خاص.. كبيرة هى ومفروضة وسط تمائم من اثيوبيا ومشغولات نحاس من إيران وخواتم أميرية منقوشة من البحرين وخزانة ومعها دلة نحاسية كبيرة من السعودية ثم واجهة باب ضخم من الخشب المحفور

بدويا من الكويت يستخدم طاولة فى غرفة المعيشة.. رمزا لتجربة حياتية تختلف كثيرا عن تجاربنا التى اعتدنا ، وها هى تضع الزائر تحت تأثيرها : حياة لم يكن اليمن يمثل فيها سوى فصل صغير لا يستحق سوى لوحة زيتية تصور شارعا يمنيا.. وقد وضعت قرب ردهة المكان.

تقول الدبلوماسية والرحالة البريطانية فريا ستارك : فى بلاد العرب.. لايفارق المرء لحظة، ذلك الشعور الغريب بأنه لايعيش حياة الواقع بل هو أقرب إلى أن يكون عنصرا فى صورة أو طيفا فى رواية .. فى تلك الحياة سمة ما قرأناه أو ما سمعنا عنه فى حكايات طفولتنا.

وفى حالة السفير بيل وزوجته جانيت – فإن «أرابيا» هذه .. بلاد العرب المطروحة فى كتب الحكايات.. كانت بمثابة الأمر الواقع.. وقد شكلت فصولها الأساسية الأحداث الكبرى فى حياة كل منهما.

ولد بيل ستولفوز فى بيروت عام ١٩٢٤. وهو سليل أسرة من مبشرى البروتستانت من وسط الغرب الأمريكى. ولأن شهادة ميلاده تقول إن مسقط رأسه هو بيروت، سوريا فهو يفسر ذلك بقوله إنها لم تكن بيروت، لبنان لأن الواقع كان كذلك فقد درجنا دائما على أن نعتبر بيروت جزءا من سوريا «الكبرى» ★ أما لبنان الحديث فهو اختراع فرنسى.

★ أو «بلاد الشام» المترجم.

التقى والدا بيل فى ملجأ للأيتام فى صيدا حيث كان كلاهما يقدم معونات غوثية إنسانية بعد الحرب العالمية الأولى. ثم التقى بيل نفسه مع جانيت فى بيروت، بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان خريجا من جامعة برنستون وفى دورة متقدمة فى اللغة العربية فيما كانت هى خريجة أيضا تقوم ببعض المهام الإنسانية بين صفوف الحرب. ومن أبنائهما فيليب خريج برنستون كذلك على غرار أبيه وجده من قبل . وقد التقى بعروسه الخريجة فى غمار مهمة إنسانية بدورها بعد فترة ١٩٧٥ - ١٩٧٦ من اشتعال الحرب الأهلية فى لبنان .. هكذا يلاحظ السفير بيل بشعور من الإجلال : ثلاثة أجيال وثلاث حروب .. وثلاث زيجات.

بعد أن تزوج بيل وجانيت فى عام ١٩٥٤ أوفد إلى الكويت نائبا للقنصل الأمريكى، فى تلك الأيام كانت الكويت عبارة عن مدينة مسورة تكاد تنتمى للقرون الوسطى حيث أعطت ظهرها للصحراء. لم يكن ثمة تكييف للهواء. وقصارى الزوجين أن يناما فوق السطح دون غطاء فى ليالى الصيف تحت درجة حرارة تقارب الخمسين. وكان طفلهما الأول ويليام هو أول طفل غير عربى يولد فى المستشفى الوطنى الذى كان قد أنشأه المبشرون الأمريكيون منذ نحو نصف قرن.

فى تلك الأيام انقضت أيام بيل منهمكا فى معالجة طلبات تأشيرات اللاجئين الفلسطينيين للسفر إلى الولايات المتحدة ولأن

الفلسطينيين جاءوا من منطقة كثيفة السكان قرب البحر المتوسط كانت قد خضعت بواسطة البريطانيين لعملية التحديث السريع، فقد كانوا أفضل من سواهم تعليما وأشد جلدا على أداء العمل. وبعد أربعين عاما من ذلك التاريخ، لاتزال هذه القابلية وذلك التصميم الذى تبدى فى صفوف اللاجئين معيارا تحترمه جانيت التى تعمل مدرسة فى ثانوية برنستون فتقول: فى أيامنا هذه ترى اسم الكورى أو اليابانى أو الصينى ضمن قائمة الصف الدراسى فتعرف أن هذا الطفل سوف يتميز عن أقرانه، تماما مثل الأطفال الفلسطينيين الذين عرفتهم فى الكويت.

على أنه من العسير على بيل وجانيت فى ضوء ظروف الحياة التى عاشاها ألا يتعاطفا مع الفلسطينيين ففى ذلك مما يجافى الروح الإنسانية. مع ذلك تحرص جانيت على أن تضع كل أمر ضمن سياقه الطبيعى وهى بوصفها اختصاصية فى أمور التربية.. تنطلق فى تناول المواضيع ذات الحساسية الخاصة بغير تبرم أو حساسيات.

تقول جانيت لزائرها : أنت مازلت حديث السن.. لن تدرك كيف كانت قوة الشعور بكراهية اليهود «معاداة السامية» فى أمريكا عند منتصف القرن عندما كنا لانزال فى المدرسة لم نكد نصادف يهودا هنا أو هناك .. لا فى جامعة برنستون ولا فى

المدارس الإعدادية التى كنا نختلف إليها .. كم كانت أمريكا مختلفة فى تلك الأيام!

لذلك فقضية الهولوكوست هى الآن أقرب إلينا عما كان عليه فى تلك الأيام التى أعقبت وقوعها مباشرة. والسبب هو ذلك السيل الذى شهدته السنوات الأخيرة من كتب وأفلام ومقالات.

ومن الكويت نقل الدبلوماسى بيل عام ١٩٥٦ إلى سفارة أمريكا فى دمشق ليعمل مسئولا سياسيا وكانت سوريا للأمريكيين الآخرين بمثابة الوجه الآخر من القمر فى عقد الخمسينات.. إذ كانت مثوى الانقلابات المخيفة والاضطراب السياسى بغير جدوى فى الإصلاح لكنها بالنسبة إلى بيل وجانيت كانت أقرب إلى العودة إلى الوطن.

كان بيل قد شب عن الطوق فى حلب.. مدرسة البازار التاريخية فى شمال سوريا بعد أن أصبح أبوه المبشر رئيسا لكلية حلب.. وكانت المدينة هى المكان الذى اختاراه للاحتفال بخطبتهما قبيل الزواج. ثم كانت هناك بيروت أيضا على مسافة ساعات من دمشق بالسيارة حيث عادا والدا بيل .. أما دمشق ذاتها فى تلك الحقبة فمازالت جانيت تتغزل فى جمالها إذ كانت مدينة صغيرة ذات أسواق حافلة تمتع العين وكأنها انحدرت من سطور التوراة – ثم يضيف زوجها قائلا: كان السوريون دائما يتسامحون مع الأمريكان.. وقد تبادلنا وإياهم الثقة سواء بسواء.

من هنا لم تكن العلاقات الأمريكية - السورية تتسم قط بذلك الطابع المشهود من الخصام بالنسبة لبيل ستولفوز ابن بيروت وربيب حلب على نحو ما اتسمت به في العقود الأخيرة، بل استندت إلى شبكة من الصداقات الشخصية بين شريحة مثقفة من مجتمع العرب وبين المبشرين والمعلمين الأمريكيين الذين كانوا قد توافدوا على سوريا فى بدايات القرن التاسع عشر.

فى ذلك الوقت، وإذ كان الأتراك العثمانيون يحكمون الشرق الأوسط لم تكن ثمة حدود بين أقطار المنطقة. بل كانت هناك منطقة الهضبة الجيرية إلى الشمال المعروفة باسم سوريا.. وبعدها تنداح رمال الصحراء إلى مشارف اليمن فى الجنوب وتظهر كلمة سوريا ذات الأصل اليونانى لأول مرة فى معرض الإشارة إلى جبل عرمون الذى يحدق بالحدود الحالية فى المنطقة، ولم يكن لبنان وقتها - وحده - جزءا من سوريا «الكبرى» بل كان معه أيضا فلسطين والأردن وشرقي العراق وجنوب تركيا.

والحق أن المبشرين الأمريكان ومنهم مثلا والد السفير بيل هم الذين تصدروا الحركة نحو تكريس اسم سوريا لا عند قومهم فى الغرب - بفضل رسائلهم إلى ذويهم أو الجمعيات التى شكلوها والمطابع التى استخدموها - بل عند العرب أنفسهم الذين كانوا حتى مقدم هؤلاء المبشرين يطلقون على تلك المنطقة اسم «الشام».

من هنا كانت سوريا «بلاد الشام» بالنسبة للدبلوماسى بيل وزوجته أكثر من وطن وبيت كانت بمثابة نسخة منقولة من منطقة نيوانجلند الأمريكية التى ينتميان إليها : الربى العالية التى يسكنها رفيعو الثقافة أشبه بالنساك وقد وضعت موطىء قدم لها على جبال لبنان.. أو مملكة سحرية لعائلات البروتستانت المفعمة بروح من المغامرة والاستقامة والمثالية .. حيث تلبّث القرن العشرين فلم يصل إلا في عام ١٩٤٨ .. ولقد كان وصوله مشبعا بروح الانتقام.

ليس بالضرورة أن يصبح كل موظف فى السلك الدبلوماسى سفيرا.. مهما كان موهوبا.. فالأمر يقتضى قيراطا من الحظ.. وبيل ستولفوز لم يكن استثناء من هذه القاعدة.. ولقد وافته ساعة الحظ الموعودة فى عام ١٩٧١ عندما كان الرجل الثانى فى سفارة أمريكا فى جدة بالمملكة العربية السعودية.. وأوكلوا إليه يومها أن يتولى تنظيم زيارة سبيرو اجنيو نائب رئيس الجمهورية.

لم تكن مهمة سارة على كل حال.. هكذا يقول السفير الأمريكى السابق «فى لقائه مع مؤلف الكتاب» ثم يضيف مفسرا : كان أفراد الأمن – الخدمة السرية – لا يراعون الثقافة والتقاليد المحلية.. مثلا كانوا يزيحون الستائر ويرفعونها فى حرملك النساء فى القصر قبل أن يصل إليه نائب الرئيس.. حتى لعب التنس مع

أجنيو لم يكن أمرا سارا بدوره .. كانوا قد حذروا السفير من أن نائب الرئيس رجل يمقت الهزيمة .. وهكذا ظل السفير يعمد إلى ضرب الكرة فى حذر وخفة.. ثم ما لبث أن حدث نفسه قائلا : ما هذا العبث؟ ومضى يسدد الضربات.. وبدلا من أن يغضب الرجل الثانى فى أمريكا.. إذا بنائب الرئيس تنفرج أساريره بالإعجاب.. وسرعان ما نمت صداقة بين الطرفين وبعدها أسر بيل إلى أجنيو ببعض ما يعرفه من معلومات عن الشرق الأوسط . وهنا يعلق السفير قائلا: كان أجنيو رجلا ممتازا.. من طراز غاية فى التهذيب .. لكن طبعا كانت له مشاكله .. قالها السفير وهو يرفع حاجبيه اللذين علاهما المشيب.

ولم يطل الأمر بعد عودة سبيرو اجنيو إلى واشنطن .. فقد تمت ترقية بيل إلى رتبة السفير .

وعندما ثارت فضيحة .. أجبرت أجنيو على الاستقالة كنائب للرئيس نيكسون فى عام ١٩٧٤، ظل الرجل يختلف إلى منطقة الشرق الأوسط بوصفه رجل أعمال معلنا تبنيه للقضية العربية فى مواجهة إسرائيل.. لكن الذى لم يكد يعرفه أحد هو أن جانبا مما تعلمه سبيرو أجنيو حول سياسات الشرق الأوسط، إنما كان مصدره السفير الأمريكى بيل ستولفوز، وهو يفسر الأمر بقوله : أرأيت إلى مصالحنا الداخلية وكيف تدمّر سياستنا الخارجية .. ولا شبهة عندى فى أن المصالح القوية والمعلنة لهذه الفئة أو تلك

من الذين يتمركزون فى المدن الكبرى والولايات الكبيرة.. هى التى تقرر سياستنا في الشرق الأوسط.. وإن كنت تفتش عن مؤامرة من نوعا ما .. فانظر إلى تلك المصالح .

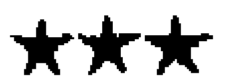
★★★

السفير السابق بيل يدلى بهذه الأقوال فيما زائره يدون عنها ملاحظاته .. ولقد دعا زائره إلى بيته كى يضع كل الأمور فى نصابها ومن ثم أصبح من واجب الزائر «المؤلف» أن يصنع الشيء نفسه.

إن ما يقصده السفير هو أن الصراع بين جماعات اللوبى الأمريكى اليهودى وبين الدبلوماسيين الأمريكيين من أمثاله، صراع امتد عبر عقود طويلة من الزمن وبات لايمكن إنكاره .. بل هو نفسه يطرحه بصراحة ويعلن عن رواسبه التى مازالت متبقية لديه.. إلا أنه صراع يدعو للأسف بكل مقياس .

إن آخر ما يريده رجل مثل بيل هو أن يتناقض كدبلوماسى أمريكى مع محموعة أخرى من الأمريكيين.

بيل وزوجته جانيت قوم لايزالون يتحلون بحس مرهف من مثالية الأمريكيين .. يكفى مثلا أن صغرى بناتهما لاتزال تعمل فى خدمات هيئة السلام الأمريكية فى أفريقيا.. وهذا أمر ينبغى أن يظل واضحا.



السفير السابق بيل ستولفوز يوصف بأنه مستعرب «أرابيست» وتلك كلمة من أكثر التعابير المشحونة فى القاموس الأمريكى.. فى القرون الوسطى، لم يكن المستعرب سوى طبيب درس الطب العربى الذى كان وقتها أشد تقدما بكثير من أساليب الطب الممارسة فى أوروبا.

فى أواخر القرن التاسع عشر ثم فى القرن العشرين كان المستعرب هو دارس اللغة العربية تماما مثل المستغرق أى دارس لغة الإغريق - اليونانية - أو دارس اللاتينية. لكن مع قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ .. ما لبث مصطلح مستعرب أن حمل بسرعة معانى أخرى.

يقول ريتشارد ميرفى مساعد وزير الخارجية الأمريكية السابق لشئون الشرق الأوسط، وقد عمل سفيرا لدى سوريا والمملكة العربية السعودية: أن الكلمة حملت معنى من الاستهانة وكأنها تشير إلى ذلك الذى وقع ثقافيا وفكريا فى غرام العرب.. بمعنى، ذلك الذى يفترض فيه السذاجة السياسية والانتقائية والإيغال فى توقير الثقافات الغريبة الأطوار .. بل إن مقاطع الكلمة «أرابيست» فى الإنجليزية تشير إلى شدة التعاطف لدرجة التوحد مع العرب، على خلاف ما تشير إليه كلمة من قبيل صينولوجست التى تصدق على المتخصص فى شئون الصين .. وهنا تهز السيدة آن زوجة

السفير ميرفي رأسها قائلة : إن سميت نفسك «مستعرب» .. فقد يظن القوم إنك معاد لليهود .

من ناحية يعترف السفير بيل قائلا : إن الجالية الأمريكية في سوريا ولبنان ظلت معارضة لدولة إسرائيل.

صحيح أن هذه الجالية تعيَّن عليها أن تقبل بإسرائيل في نهاية المطاف لكنه لم يكن قبولا من القلب.. تماما كما تعيَّن على المحافظين أن يقبلوا في نهاية المطاف بوجود الصين الشيوعية.

★★★

لو كان لنا أن نربط بين السفير بيل وبين نوعية معينة من البشر.. فتلك فئة يتدرج ضمنها عادة بريطانيون هاموا حبا برمال الصحراء منهم مثلا سير ريتشارد فرانسيس بيرتون وشارلس دوتي، و ت . لورانس العرب، وهاري عبدالله فيلبي وكذلك ويلفرد ثايجر ثم جيرترود بل.. لقد استوطنوا بيئة الصحراء العربية.. وأحدثت بهم دوامات من الفانتازيا وعشقا غريب الأطوار ونزعة العدمية.. هتف قائلهم ويلفرد ثايجر : أريد اللون والتوحش .. أريد تطهرا يندر وجوده في عالم البشر.. ولقد استبد بي حنين الماضي ورفض الحاضر وخوف المستقبل.

والحق أن قلة من الرسميين الأمريكيين لاقت ما صادفته فئة المستعربين هذه من عنت واستهانة فيما ظل أفرادها على ما كانوا عليه من غموض وركون إلى ظلال المجهول.. والمستعربون ليسوا

تلك الحقنة من كبار موظفى الخارجية الأمريكية الذين تلهبهم أعمدة الصحف بسياط الانتقاد.. ولا هم عادة ذلك الطراز الذى يتحدث عن سياسات الشرق الأوسط على شاشات التليفزيون.. المستعربون رجال ونساء من طراز السفير بيل يقرأون ويتكلمون العربية وقد أمضوا ردحا طويلا من عمرهم المهنى، ومعهم عائلاتهم فى العالم العربى.. سواء كدبلوماسيين أو ملحقين عسكريين أو عناصر استخبارات أو حتى باحثين عن مغامرات فى مجال العلم والمعرفة.

المستعربون يمثلون أغرب مظاهر مؤسسة الساحل الشرقى بالولايات المتحدة وأشدها مثارا للخلاف وهو عادة ساحل الفكر والثقافة إن فرانسيس فوكوياما، وقد كان عضوا سابقا فى فريق تخطيط السياسات بالخارجية الأمريكية وهو الآن مفكر سياسى ذائع الصيت يقول إن المستعربين يشكلون ظاهرة سوسيولوجية.. إنهم نخبة داخل النخبة ممن ظلوا مخطئين على طول الخط بأكثر من الاختصاصيين فى أى مجال آخر من مجالات السلك الدبلوماسى الأمريكى ذلك لأن المستعربين لم يتبنوا قضية العرب فحسب، بل تبنوا كذلك نزوع العرب إلى خداع الذات(!).

مع هذا الرأى يختلف تماما نيكولاس فليوتس وقد كان بدوره مساعدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط، كما عمل سفيرا فى الأردن ومصر ويقول:

كلما صادفت من ينتقد المستعربين بادرت بالرد عليه
المستعربون هم رجال ونساء اتقنوا لغة صعبة وأمضوا سنوات من
عمرهم وسط بيئة أجنبية صعبة فى خدمة الولايات المتحدة ولكم
وددت لو كنت واحدا من زمرتهم ولست كذلك للأسف الشديد.. فلم
تكن عربيتى سليمة فى يوم من الأيام.

ولقد يظن القارىء أنه فهم السفير بيل ستولفوز والأمر على
خلاف الظن.. ثمة مستويات لشخصية الرجل لايستطيع المر
اختراقها إلا إذا تسنى له الاقتراب من تجربة تاريخية معينة.

بادىء ذى بدء، على المرء ألا يخلط بين رجل من طراز بيل وبين
المجانين من البريطانيين فأيا كانت السمات الشخصية لأولئك
المستعربين البريطانيين إلا أنهم كانوا يعملون وقد صدروا عن
خلفية من الأمبريالية.. لقد اتيحت الفرصة لهؤلاء البريطانيين من
رجال ونساء، بفضل مزايا السلطة وقوة الاستعمار فحققوا ذواتهم
وترجموا أحلامهم فوق مثل هذا المسرح الفريد والمثير.. وبرغم
غرابة أطوار بعضهم.. فإن رجالا مثل «لورانس» ونساء مثل
«جرترود بل» عملوا فى بلاد العرب كعملاء للحكومة البريطانية
ومن ثم كان ما يعنيهم أساسا هو آليات القوة الاستعمارية.

وفيما كان المستعربون البريطانيون استعماريين، كان
المستعربون الأمريكون أصلا مبشرين ، كان لهذا انعكاساته
ودلالاته.. ومن ثم فالتبشير هو الذى حدد هوية مستعربى

الأمريكان فى حين أن الاستعمار حدد هوية نظرائهم البريطانيين.

ولا ريب أن هذا الفصيل الاجتماعى قليل الوجود كنوع أمريكى أصيل .. أعنى المبشر ومن ثم المبشر.. المستعرب :

إنه شخص لايكاد يعنيه السلطة السياسية قدر ما يعنيه أفعال خير يقوم بها من أجل عالم أفضل وابتغاء محبة المحرومين أو المحتاجين. البريطانيون كانوا يسعون للسيطرة.. لاكتساب أو اقتناء ثقافة، تماما كما يشغف المرء باقتناء نادر وجميل وتلك استعارة يمكن ترجمتها حرفيا حين نعرف أن د . هوجارث الذى كان يدير المكتب العربى البريطانى - قلم الاستخبارات فى المنطقة من القاهرة خلال الحرب العالمية الأولى - جمع ٣٠٠ كتاب عن مواضيع عربية فى غضون الحرب .

لكن الأمريكيين، ومنهم والد السفير بيل شخصيا كانوا يلتمسون هدفا أبعد منالا، كان مبتغاهم هو تغيير تلك المنطقة.. وتحسين أحوالها باستخدام نموذجهم الذى يعتمدون، وتبدت فيهم نزعة نفسية نبعت من واقع الثورة الأمريكية.. وهو ما أدى فى نهاية المطاف إلى مأساة واحدة من سفراء أمريكا الأمريكيين فى العراق لاحقا بعد ٢٠٠ سنة من عمر الزمن.

فكما نعرف كانت المقابلة الشهيرة فى يولية ١٩٩٠ بين السفيرة الأمريكية ابريل جلاسبى والرئيس العراقى صدام

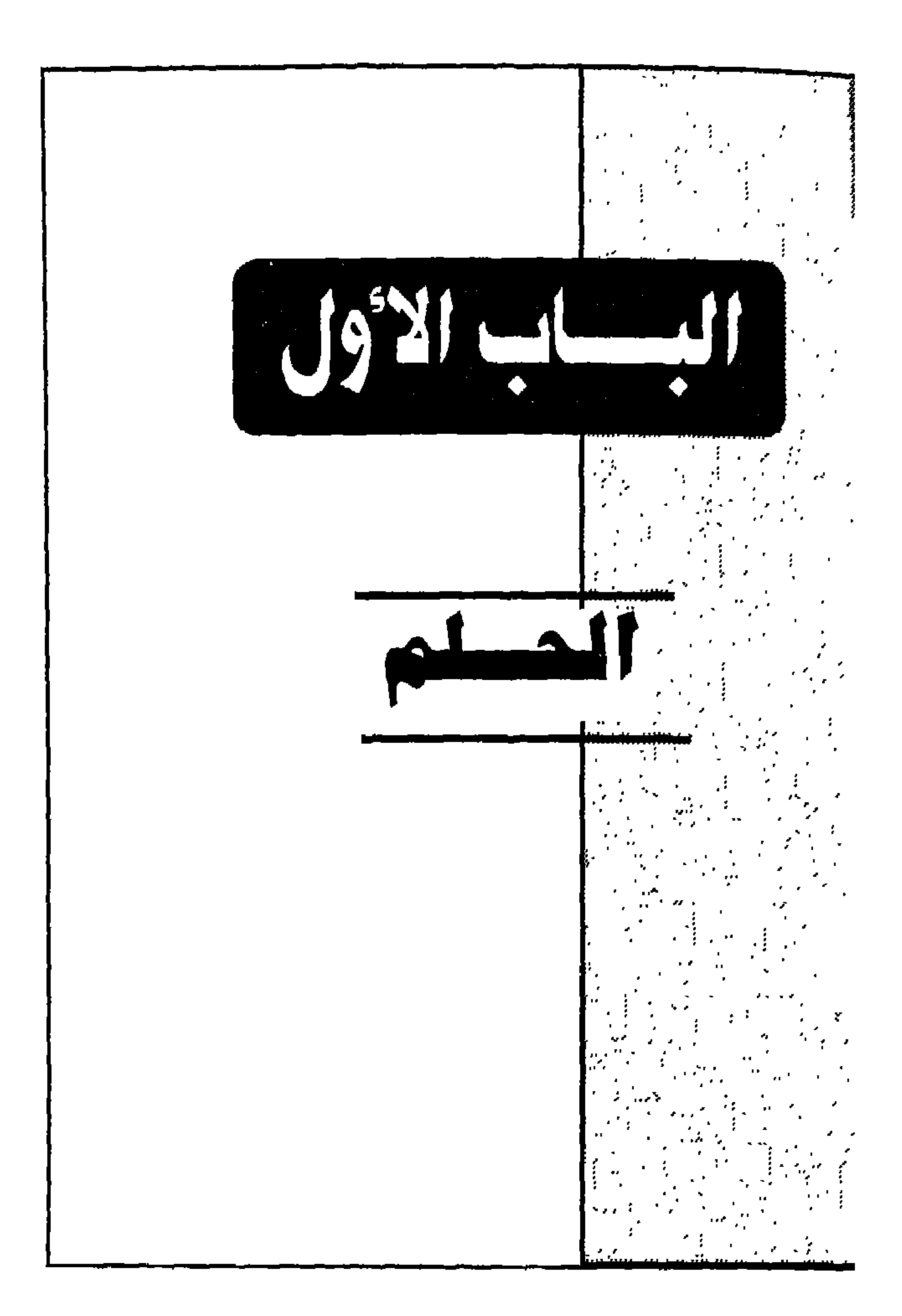
حسين.. أمرا استغرق تحقيقه فى واقع الأمر قرنين من الزمن. لقد دخلت السيدة جلاسبى إلى مقر صدام حسين وبين جوانحها رهبة من بضاعة تراث المستعربين القديم.. ولم تكن مأساة «عراق - جيت» فضيحة في بنك ، بل كانت قصة إنسانية ملحمية تتوازى فصولها مع تاريخ الجمهورية الأمريكية ذاتها.

★★★

ومن عجب أن الأمريكيين يعرفون عن الامبريالية البريطانية بأكثر مما يعرفون عن الدوافع التى كان يصدر عنها أبناء جلدتهم فى الشرق الأوسط من رجال ونساء ، كان نفوذهم فى المنطقة فعالا ومشهودا. ولم يسبق للمنطقة أن شهدت قط ثقافة وافدة مثل تلك التى جاءت بها مستعمرات المبشرين الأمريكان فى العالم الإسلامى لا على صعيد التجربة البريطانية ولا على مستوى التجربة الأمريكية ذاتها.

إنها قصة ينبغى أن يبدأ بها البحث من أجل اكتشاف هوية، ومن ثم سلوكيات وأعمال رجال من أمثال السفير بيل ستولفوز وأضرابه ممن كانوا ممسكين سرا بعجلة القيادة لقاطرة السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.





الباب الأول

الحلم

الفصل الأول

لبنان موطنا

. «انتفضت الآلات بالوجيب وارتعشت السفينة وأخيرا كنا على طريق نهر الهدسون فاجتزنا تمثال الحرية ثم جزيرة اساتن ومنها انطلقنا إلى الأطلسى الكبير فى طريقنا إلى الوطن ، كان الوطن بالنسبة إلى «آن بيرلى» البالغة من العمر ثماني سنوات هو مدينة صيدا على الساحل اللبنانى ★ . فى عام ١٩٣٩ كانت صيدا بلدة غارقة فى السبات ، ترفل فى مناظر الطبيعة الجميلة ويعرفها الناس بشجرة عتيقة ارتاح تحت ظلالها النبى أيوب ثم «تحسس قروحه»، كما عرفوها بأن ساحلها استقبل يونس النبى خارجا من بطن الحوت.

«آن» الصغيرة ذات الشعر الأحمر، كانت عائدة إلى صيدا بعد عام أمضته بالمدرسة فى أمريكا وكانت تنحدر من أرومة أنجلو -

---

★ الانتداب الفرنسى كان قد أعطى لبنان فى عام ١٩٢٠ شخصية قانونية مستقلة لحين إنشاء الدولة السورية بعد الحرب العالمية الثانية، إلا أن المبشرين ظلوا ينظرون إلى لبنان وكأنه إقليم سورى.

أمريكية كريمة، كان جدها الأعلى هو أندرو بيرلى الذى حارب فى الحرب الفرنسية والهندية «وهناك لوحة مكتوبة باسمه فى الحديقة الحكومية غرب مدينة بيتسبرج فى أمريكا». أما جدها المباشر أندرو روبرتسون بيرلى فكان برتبة رائد فى جيش الاتحاد أثناء الحرب الأهلية الأمريكية. ثم كان أبوها القس روبت كرين بيرلى قد ولد فى المنطقة الهولندية من ولاية بنسلفانيا ثم اتجه إلى لبنان «حين كان وقتها جزءا من سوريا الكبرى» بوصفه مبشرا للكنيسة المشيخية ★ وقت اندلاع الحرب العالمية الأولى حيث التقى بوالدة آن التى انحدرت بدورها من أصلاب مبشرين من لندن. وكتب على الاثنين، على نحو ما حدث لوالدى السفير ستولفوز، أن يمضيا ردحا طويلا من العمر فى الخدمة الإنسانية للعرب.

وبالنسبة لطفلة أمريكية فى لبنان تعيش فى مرحلة ما بين الحربين، كان الأصل البروتستانتى الذى تنحدر منه آن لائقا بها بصورة كاملة وكذلك كان شعورها الفريد بالهوية الوطنية. لقد شبت عن الطوق «وهى تتحدث مزيجا من الإنجليزية والعربية والفرنسية» كانت مائدة الإفطار للعائلة أمريكية الطابع فيما كان

★ المنبثقة عن مذهب كالفن البروتستانتى ويقوم على أمرها نظام من شيوخ الكهنة المتساويين فى الحقوق. «المترجم» .

الشاى إنجليزيا، أما العشاء فكان «يضم الأطباق العربية اللذيذة التى كنا نشغف بها جميعا» وكانت آن «تستوعب فى اللاشعور الثقافات» التى تميز البشر من حولها، ومع ذلك كم كان شعورها بالوطنية فائقا عندما كانت تشارك بنى قومها الأمريكيين فى غناء أناشيدهم الوطنية يوم الرابع من يوليه - عيد الاستقلال الأمريكى.

أما ما كانت تهواه آن، شأنها شأن سائر الأمريكيين ممن أطلق عليهم وصف «أبناء لبنان» فكان بالذات النزهات على البحر المتوسط : «عندما يكتمل القمر بدرا كنا نبقى حتى بعد أن يسدل الظلام ستوره نلعب فى الماء ونتأمل بإعجاب ومضات الفوسفور التى كانت تميز ثياب استحمامنا» وكان الخدم العرب يقدمون لنا السمبوسك، تلك العجائن المثلثة المحشوة باللحم أو الخضر المطبوخة، على الأبسطة لكى يتناولها الأطفال وعائلاتهم. وبعد ذلك كان الكل يلقون بالفتات إلى سرطان البحر. وحدث أن لويز برومر، وهى من صديقات آن، أمضت إحدى تلك الليالى ثم أرسلت بعدها إلى آن قصيدة بعنوان «الروبيان السورى» تقول أبياتها :

رأيت قافلة بعير وقت الغروب

إذ كنت أسبح قرب شاطىء البحر فى صيدا

فى سيرها الوئيد حادت عند حافة الماء

ثم اختفت بين طيات الأفق الأزرق
طلع البدر مثل كرة من ذهب
ومن خلفه جبال لبنان إلى قريب
أما نحن فكنا أشبه بالملك إينياس
الذى تغنى بذكره شعراء الزمن القديم
تناولنا العشاء والتهمنا ما على الأطباق
عشاؤنا كان خبزا وفاكهة من البحر
فما أحلى ذكريات أيام الحبور
التى أمضيناها فى صيدا

★★★

وتتذكر جريس دودج، ابنة رئيس الجامعة الأمريكية فى بيروت، التى كانت من معارف طفولة آن، كيف كانت تمشى بين البيت والمدرسة على محاذاة البحر المتوسط فى عمق لونى الأزرق والأخضر «وقد علته سمرة من طين نهر كان الأقدمون يسمونه «دم أدونيس» وكان جبل صنين فى خلفية الصورة يرتدى إهابا من الثلوج تلمع فى ضوء وردى عند الغروب» وبمحاذاة الطريق كان ثمة سلسلة من الكهوف التى كثيرا ما عمدت جريس وصديقاتها إلى استكشافها. ويتذكر أخوها، ديفيد ستيوارت دودج الرحلات ورياضة التزلج فى جبل الأرز حيث مازالت أشجار الأرز تقف

شامخة منذ الأزل. وفى أيام الصيف كانت جريس وشقيقها ديفيد يغرسان الخيام مع العائلة فى غابة الأرز التى تحميها الكنيسة المارونية. ويقول ديفيد «لبنان الذى عرفته صبيا كان موقعا يظلله السلام»، وديفيد مثل أبيه وجده شب عن الطوق ليصبح بدوره رئيسا للجامعة الأمريكية فى بيروت ، وكثيرا ما يستخدم لوصف لبنان فى تلك الحقبة ألفاظا وعبارات من قبيل «المسالم» و«الوسنان».

تالكوت سيل، الذى سيصبح سفيرا لأمريكا لدى تونس وسوريا فى المستقبل سيظل يذكر دوما كيف كان القوم، حتى المسلمون أنفسهم يطربون إلى الإيقاعات الجميلة للترانيم المسيحية التى كانت تتصاعد كل صباح من الكنيسة الصغيرة، وسيذكر كذلك نوعية الحياة فى بيروت «غارقة فى الوسن وناعمة بالسلم». ديفيد زيمرمان الذى سيصبح بدوره دبلوماسيا أمريكيا يتذكر لعبة البيسبول كل سبت واجتماعات الكشافة فى مرفأ بيروت واحتفالات الألعاب النارية فى عيد الرابع من يوليه. وفى هذا المجال يقول السفير جيل ستولفوز «كنا نعيش مثل نبلاء الإقطاع الإنجليز مع الخدم وكأن كلا منا يملك جبلا وكان مأوانا بيوتا شبيهة بتلك التى ضمتها بحيرات نيو إنجلند».

آرثر وراى كلوز اللذان سيصبحان فيما بعد من رواد الاستخبارات الأمريكية فى الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية

الثانية، كانا جزءا من العصابة كذلك. هذان الشقيقان شبا عن الطوق في بيروت المسلمة وسط عائلة مبشرين عاشت في لبنان منذ منتصف القرن التاسع عشر. وفي هذا السياق يقول آرثر: على خلاف العائلات الأمريكية الأخرى لم يكن لدينا سوى خادم واحد. وفي كل أسبوع كنا نتناول أربع وجبات عربية وثلاثا أمريكية. وكانت أمي تتحدث العربية بطلاقة وكانت تحب العرب. وكان اللبنانيون في تلك الأيام شعبا لين الجانب لدرجة المحبة، وقد نشأنا على حب ذلك البلد وما كان لديه ليقدمه لنا. ولن أنسى ما حييت رحلاتنا وجولاتنا خلال القرى المسلمة والدرزية. كنا نعيش حياة ريفية تكاد تكون مصطنعة.

وتعبير مصطنعة هنا يتوقف على ما يراه المرء لكنها كانت ريفية بالفعل. ومن خلال حجب الزمن، أي بعد أكثر من عنف ساد المدن اللبنانية بصورة أقرب إلى أفلام السينما في السبعينات والثمانينات ثم سبقه نزاع سياسي دام ثلاثة عقود ونجم عن ارتفاع دعوة القومية العربية وشمل كذلك أربع حروب عربية مع إسرائيل، كل هذا جعل هذه الذكريات الفريدة عن لبنان وكأنها لم توجد قط أو تبدو بعيدة ومستحيلة ومجافية للواقع. مع ذلك فالذكريات مهمة باعتبار أن هناك من الذين حملوها بين جوانحهم من أصبح له شأن ونفوذ في مستقبل الأيام.

ومن الصعب أن نتصور شلة أسعد حظا من الشباب بأكثر مما كانت مجموعة أن بيرلى وجريس وديفيد دودج وتالكوت سيل وبيل ستولفوز وديفيد زمرمان وآرثر وراى كلوز وأصدقائهم. فمن الناحية الواقعية لم يكن هناك أماكن تكاد تقارب جمال لبنان على وجه الأرض: إنه واحدة من تلك البقاع المباركة التى يستوى فيها جمال الشتاء والصيف والبحر والصحراء والغرب والشرق، كلها تتضافر معا فى مزيج مثير وسط خلفية من أشجار الأرز والكافور حيث يمكن للمرء أن يسبح وأن يطير وسط ثلوج الجبال. والذى قيض له أن يعرف لبنان لا قبل الحرب الأهلية فقط ولكن قبل التوترات الخارجية والداخلية التى انتابته فى الخمسينات والستينات يمكن أن يفهم كيف كان نعيما سابغا.

فما بالك بطفل أمريكى عرف لبنان فى العشرينات والثلاثينات حيث نعم بجنة ريفية لم تترك فى نفسه آثارا اجتماعية أو اقتصادية فقط بل خلفت أثرا أخلاقيا . كذلك الجالية الأمريكية الوافدة في لبنان قبل الحرب العالمية الثانية جاءت نتيجة استثناء مذهل بالنسبة إلى فكرة لويل توماس عن «النظام التقليدى» للغزو (الاستعمارى) : «المستكشف ثم المبشر فالجندى وبعد ذلك التاجر». فى لبنان كان المستكشف والمبشر شخصا واحدا وفى لبنان أيضا لم يأت الجندى قط، وبدلا من التاجر جاء رجل التربية والتعليم وإن لم يخل الأمر من حفنة من التجار.

وفي تناقض سافر إزاء المستعمرين الأوروبيين في العالم المتخلف أو حتى المغتربين الأمريكيين في منطقة قناة بنما وممتلكات أمريكا في المحيط الهادىء فإن الاتجاه الامبريالي والاستغلال التجاري لم يكن لهما مكان داخل المتاع الذي حمله معهم المبشرون إلى لبنان. بل إن الأمريكيين لم يشكلوا يوما تهديدا إزاء الثقافات الدينية المحلية على نحو ما فعل مثلا المبشرون في مستعمرات الهند والصين وبورما وسيام. لكن إذا كان للحقيقة أن تروى، فبالمقارنة إلى المبشرين في الشرق الأقصى الذين استطاعوا كسب أعداد كبيرة من الصينيين لصالح المسيحية البروتستانتية، فإن المبشرين الأمريكيين في الشرق الأوسط باءوا بالفشل الذريع والكامل. إن خصوصية الإسلام سرعان ما اضطرتهم أن يتخلوا عن أي أمل في تحويل القوم هناك إلى ديانة المسيح. وفي ملاحظة دقيقة عن النظرة إلى الأمريكيين بوصفهم قوما لا ضرر منهم، ذكرت مسز إيلي سميث وهي زوجة مبشر كان في بيروت في عام ١٨٣٩ أن الأمريكيين كانوا في عيون المسلمين «قوما لا يكذبون ولا يسرقون ولا يتشاجرون ولا يفعلون أيا من ذلك لكنهم، المساكين، ليس لهم ملة أو دين!».

إن الأمريكيين فى لبنان نجحوا فقط فى أن يكونوا مبشرين بالتعليم الغربى ، ومن هنا استطاعوا أن ينالوا محبة أهل البلاد من العرب.

كان أول مواطن أمريكى على وجه الإطلاق يتحرك ضمن صفوف العرب هو جون لديارد أوف جرتون من ولاية كونيكتيكت. كان لديارد الذى لم يكمل دراسته فى كلية دارت موث قد تجول فى أنحاء برية نيو هامشاير فى بلده وقام برحلات سيرا على الأقدام فى سيبيريا عام ١٧٨٦ قبل أن يقبل عرضا من الجمعية الأفريقية فى لندن بالإبحار فى مياه النيل لاكتشاف وسط أفريقيا. وصل لديارد إلى ميناء الاسكندرية المصرى على ساحل البحر المتوسط فى يوليه ١٧٨٨ قبل أن يتم تنصيب جورج واشنطن رئيسا بسنة واحدة. على أن لديارد لم يقدر له أن يتجاوز مدينة القاهرة إذ مات هناك بعد أشهر قليلة من جراء مرض غامض زاد من تعقيده جرعة كبيرة من العقاقير الشعبية. كانت سنة ٣٧ وباستثناء وصف غريب لنهر النيل قال فيه «إنه لايزيد فى حجمه عن نهر كونيكتيكت» فإن دوافع الرجل كانت تعصبه لبلاده ومن ثم فسرعان ما انزوى إلى حجب النسيان تماما.

مع ذلك فبعد عشرين سنة من ذلك التاريخ، شهدت منطقة غرب ماسوشوسيتس علاقة درامية بين أمريكا والعالم الإسلامى

بل مع العرب على وجه الخصوص. فى عام ١٨٠٨، وفى حرم كلية ويليامز، إلتقى خمسة طلاب يتزعمهم صمويل ميلز الابن وأدوا الصلاة إلى جوار كومة من العشب الجاف خلال عاصفة رعدية معبرين فيها عن إيمانهم بالمسيح. هذه الحادثة المعروفة باسم حادثة «هاى استاك» أصبحت بمثابة أسطورة تروى لدرجة أن تفاصيلها أصبحت يشوبها الإبهام والغموض على أن المعروف أن الطلاب الخمسة نذروا أنفسهم بأن ينشروا التعاليم الطيبة بين ملايين البشر فى أسيا وأفريقيا الذين تصوروا أنهم بلا عقائد وأنهم سيجنون الخير كله من سماع الرسالة.

هذا التدليل الغريب على الإيمان لم يكن ليحدث فى فراغ ولكنه جاء تتويجا لعملية واحدة ثم جاء بداية لعملية أخرى. كان المذهب البروتستانتى قد نشأ فى ذلك الوقت وتطور بوصفه المؤسسة الاجتماعية والثقافية الأولى لشباب الولايات المتحدة. كانت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ومن مفتتح القرن التاسع عشر «مرحلة شهدت معسكرات واجتماعات وحركات إحياء وتحولات عقائدية» على نحو ما يلاحظ المبشر المؤرخ «ديفيد فينى» وكانت العمليات تتعلق جميعا بإحياء وتعزيز البروتستانتية على نحو لم يشهده العالم من قبل، وكان ذلك كله يتم وسط إطار من

تفاؤل الرواد بصورة غير اعتيادية. كان الوعاظ من البروتستانت من كل لون وفكر يتصورون أن كلا منهم يحمل الكلمة الحقيقية ومن ثم احتدمت بينهم المنافسة الشرسة فى منطقة نيو إنجلند من أجل هداية البشر. ولأول مرة فى التاريخ الإنسانى، أصبحت العقيدة مسألة اختيار محضة. وبهذه الطريقة نشأت مختلف النحل والتفريعات البروتستانتية: المشيخية والميثودية والمعمدانية والوحدانية والكنيسة والمجمعية. وكما يوضح المؤرخ الدينى «مارتن مارتى» فإن الثورة الأمريكية كانت فى حقيقتها ثلاث ثورات وإن اندلعت الحرب من جراء واحدة منها . أما الثورة الثانية فكانت تتمثل فى الفصل بين الكنيسة والدولة وتلك فكرة لم تكن نبيلة بقدر ما جاءت بوصفها نموا عمليا للتفريعات الجديدة المنبثقة عن البروتستانتية مما جعل من المستحيل تعريف الأمة الجديدة وتحديد الصفوة المؤسسة لها على أساس انتمائها إلى كنيسة واحدة بعينها. الثورة الثالثة جعلت الدين أمرا من أمور العقل قبل أن يكون شأنا من شئون الوجدان. وفى هذا يقول المؤرخ مارتى «أصبح الدين متاحا للجميع سواء آمنوا بالكتاب المقدس - الإنجيل أو لم يؤمنوا» هذه الثورة الثالثة هى التى ارتبطت بحركة اليقظة الكبرى التى كانت بدورها هى القوة المحركة لجهود التبشير.

اليقظة الكبرى، كما يراها أحد الناطقين باسمها، وهو القس «صمويل هوبكنز» في رود أيلاند كانت تسعى إلى نشر المجد لله كي لايقتصر على إنسان بعينه وإنما يفيض على أكبر عدد من البشر. وفي هذا يقول القس هوبكنز : «بنشر الحب المسيحي وليس بغيره يمكن أن نجعل البشرية تقترب من يوم الخلاص حيث يزول الفقر وينجلي الظلم وينجاب الاضطهاد». وهنا كان يتجسد الصوت الديني لأمريكا الشابة بكل حيويتها وبكل نقائها وبحثها عن المساواة وثقتها في نفسها، وجاء بوصفه نتاجا فرعيا للتجربة التي خاضتها الأمة الأمريكية الجديدة مع الحرية بوصفها الحل لأدواء الإنسان. تلك المعتقدات هي التي صنعت «البيوريتاني الحق» على نحو ما رآه راندولف بورن الذي كتب عام ١٩١٧ واصفا إياه بأنه «أكثر البشر إيثارا وأشدهم استقامة على جادة الطريق» وهذا أيضا هو الذي دفع صمويل ميلز وحوارييه إلى الاجتماع وقرب كومة العشب الجاف بينما كان سنا البرق يلمع في أنحاء المكان.

ويمكن القول إن ما يكاد يكون جميع الطوائف البروتستانتية بدأت حركات تبشيرية جاء قادتها من منطقة نيو إنجلند (شمال شرق الولايات المتحدة) في منافسة محتدمة لتحويل الأهالي إلى مذهبهم. من ثم كان من المنطقي أن تأتي الخطوة التالية على شكل التماس حواريين جدد في أصقاع بعيدة. وعندما جاء القرن

التاسع عشر كان المعمدانيون * قد بدأوا بالفعل فتح الجنوب الأمريكى فيما اختارت العناصر الميثودية ** فتوحاتها فى الدول المتاخمة لأمريكا. مع ذلك فما أن بدأت هذه الانتصارات فى سبيل العقيدة فى العالم الجديد – ولم يكن قد تسنى بعد تحويل معظم السكان الهنود الحمر إلى العقيدة الدينية – حتى انتاب القوم فجأة ذلك الشعور الذى دفعهم إلى السعى نحو أعمال التبشير فى الخارج يستوى فى ذلك المجمعيون (الأبرشيون) *** الذين تزعمهم ميلز والذين انضم إليهم بعد ذلك المشيخيون ثم الكنيسة الإصلاحية الهولندية**** .

---

* المعمدانية دعوة إلى عدم تعميد الفرد إلا فى سن النضج لإدراك فحوى التعاليم (المترجم)

** اتباع الكنيسة المنهجية الإنجليزية التى تزعمها «جون ويسلى» فى اكسفورد بانجلترا فى دعوة لاصلاح وتجديد الكنيسة التقليدية . (المترجم)

*** أتباع الدعوة إلى استقلالية الابراشيات (الكنائس) على الصعيد المحلى. (المترجم) .

**** قيض للأبرشيين أن يسيطروا على أنشطة التبشير فى الشرق الأوسط حتى عام ١٨٧٠ عندما نشأ تقسيم ودى للعمل : الأبرشيون أصبحوا مسئولين عن تركيا والمشيخيون مسئولين عن مصر بسوريا وإيران بينما أصبحت الكنيسة الإصلاحية الهولندية مسئولة عن الخليج العربى.

وبالمقارنة مع الجهود الخطرة والتى لم تكد تحرز نجاحا بين السكان من الهنود الحمر فى أمريكا، افترض المجمعيون أن المشاكل فى خارج الحدود ستكون هينة إذ تكون المنافسة أقل على هداية البشر. فيما تلوح إمكانيات تحقيق المكانة وإحراز المجد. إن القوة الدافعة التى جعلت هؤلاء الرجال والنساء يجتازون البحار والقفار لم تكن بمختلفة عما نشهده الآن. كان الذهاب إلى الخارج سبيلا لتحسين مكانة الفرد الاجتماعية التى كانت قد بدأت تتضاءل فى حالة الكاهن رجل الدين بسبب الموجات الكثيفة الأولى من المهاجرين الأوربيين الذين بدأوا يصلون إلى نيو إنجلند ليغيروا وجه الحياة فى ريفها. يومها تحولت القرى لتصبح مدنا صاخبة بالحياة وليتحول القساوسة المحليون ليصبحوا مجرد صوت ضمن الأصوات الكثيرة التى كانت تتنافس على اجتذاب اهتمام أمريكا الجديدة بتنوعها الثقافى المتزايد ونظامها الاقتصادى المتسع.

كانت جزر ساندويتش (هاواى) ثم الصين والساحل الغربى لأفريقيا هى أولى السواحل الأجنبية التى شهدت غزو بروتستانت نيو إنجلند. لكن نداء الأراضى المقدسة كان يرتفع فوق كل النداءات ولم يكن ذلك فقط بسبب أهميتها بوصفها مسقط رأس السيد المسيح. لقد رأى المبشرون فى حركتهم أنها لاتقل شأنا عن حملة صليبية جديدة، حملة من شأنها فى نهاية المطاف أن تخلص أرض الإنجيل من التخلف الإسلامى (!) لذلك نجد واحدا منهم يسأل : ما هى أوامركم للزحف؟ تماما كما يفعل جندى ذاهب إلى

ساحة القتال. شعر المجمعيون بحق أن الأمريكيين - وليس الأوربيين هم الذين مقدر لهم أن ينشروا دعوة الإنجيل الغربى إلى الأرض المقدسة. والمؤكد أن الأمريكيين ندبوا أنفسهم لهذه المهمة وهم يرتدون مسوح النقاء فقد عاشوا في أرض عذراء لم تكن قد تلطخت بالبغضاء وبكل عوامل الظلم التى انتابت العالم القديم وهو ما كان يمثله فى رأيهم أحسن تمثيل حقيقة أن الولايات المتحدة الجديدة كانت «الدولة المسيحية الوحيدة التى لم تضطهد قط أحفاد إسرائيل» لا غرو أن تصبح معاداة السامية (بغض اليهود) يوما ما قضية محورية بالنسبة للأمريكيين فى العالم العربى. بيد أن الأمر بدأ بصورة مختلفة إلى حد كبير.

هؤلاء المجمعيون الأوائل كانوا بأدق معنى، ينحدرون من أصلاب أمريكية بيضاء خالصة: «كانوا الأخلاف الروحيين المباشرين للبيوريتان الأصليين» طبقا لما رآه المؤرخ فينى. وقد خلعوا على أبنائهم أسماء عبرية من التوراة: دانييل، اسحق، ناثان، ليفى. كان دينهم، شأنهم شأن العرب، يشكل نظاما اجتماعيا كاملا يبرز فيه النهى عن تناول الكحوليات ويؤكد على الخير والبر والإحسان والزهد فى أمور اللباس. بيد أن وعيهم بالتسامح إزاء اليهود، وهو أمر شائع حتى اليوم بين الانجيليين، سيساعد على إقامة المحطات التبشيرية الأمريكية الأولى فى العالم الإسلامى.

رؤساء الملة المجمعية رفضوا فى بداية الأمر خطة ميلز من أجل إنشاء إرساليات تبشيرية فى الخارج لكن مناشداته ظلت بغير هوادة.

وينبغى للمرء أن يتصور أن تلك كانت حقبة من فتوة المثالية. كانت هناك كليات منشأة حديثا مثل كلية ويليامز وميدل بورى (وبعدها هاملتون وأمهرست) بالإضافة إلى معاهد علمية لاهوتية مثل أندروفر ويونيون وكانت كلها تعمل على تخريج ذلك النوع من الشباب الفائق الثقة فى النفس والمجبول على التضحية والإيثار حيث كانت الحياة فى العالم الخارجى بالنسبة له ضمانا لمكانة فورية يحققها. وفى عام ١٨١٠، أى بعد عامين لا أكثر من حادثة هاى ستاك، كان الخريجون وأفراد الشعب الكنسى قد جمعوا ما يكفى من الأموال لتنظيم مجلس أمريكى للمبشرين للبعثات التبشيرية الخارجية يسيطر عليه المجمعيون ويتخذ مقره فى بوسطن. مع ذلك فلم يتح حتى عام ١٨١٩، خلال رئاسة جيمس مونرو، وبعد تسعة أعوام من إنشاء المجلس المذكور وست سنوات من إقامة الإرساليات الأمريكية الأولى إلى الشرق الأقصى ، أن أبحرت الأرساليات الامريكية الأولى الموفدة إلى الأراضى المقدسة (فى الشرق الأوسط) وسرعان ما اتضح أن الأراضى المقدسة فى حقيقتها كانت مكانا مختلفا عن الصورة التى طالما راودت أفئدة البروتستانت.

بليني فيسك تخرج في كلية ميد بلبورى في فيرمونت ومعهد أندوفر اللاهوتي في شمال بوسطن ، وهناك تصادق مع ليفي بارسونز وكان شابا تقيا عاكفا على قراءة الكتب المقدسة. ولم يكن فيسك يحب اللغات الأجنبية فيما كان بارسونز متقلب الأهواء شديد التأمل ضعيف المعدة. وفي عام ١٨٢٠ وصل هذا الثنائي الغريب إلى أزمير وكانت مدينة يونانية على ساحل تركيا الشرقي تعرف يومها باسم «لؤلؤة الشرق» وكان سكانها من المسيحيين الأرثوذكس وطائفة التجار الغربيين فيها يشكلون شريحة غريبة الطابع وسط الشرق الإسلامي (على نحو ما أصبحت اليه بيروت بعد ذلك) مما كان يسهل الحياة على الوافدين الجدد كما فعل الأمريكيان اللذان حاولا شق طريقهما إلى الشرق.

أمضى بارسونز معظم أيامه مريضا في فراشه في أزمير وأمضى فيسك وقته في العناية ببارسونز والصلاة. وفي عام ١٨٢٢ أبحر الاثنان إلى الإسكندرية على أمل أن تتحسن صحة بارسونز لكنه مات بعد شهر من وصولهما إلى مصر. وبرغم أن فيسك قام ببعض زيارات إلى القدس في سنوات ١٨٢٣ و ١٨٢٤ فإنه مات في بيروت في عام ١٨٢٥ بعد مرض ولم يكن قد تجاوز الثالثة والثلاثين وكم عاني كثيرا على فراش الاحتضار بالضبط كما سبقه إلى ذلك صديقه بارسونز.

بعد ذلك جاء ويليام ماكلور طومسون وكان في الثامنة والعشرين وعروسه إيليزا في الرابعة والثلاثين وكلاهما صادف

حظا أفضل من فيسك وبارسونز. كان الزوجان قد التقيا فى برنستون التى أنشأت تراثا من المبشرين إلى الشرق الأوسط ومن الإخصائيين فى الأمور العربية ظل مستمرا حتى يومنا هذا. وبعد الوصول إلى الأرض المقدسة عام ١٨٣٤، انتفض سكان القدس العرب ضد الوالى المصرى محمد على باشا الذى كان يحكم فلسطين فى ذلك الوقت نيابة عن الأتراك وبسبب اندلاع القتال، تقطعت السبل بين طومسون الذى كان فى ذلك الوقت على ساحل يافا وبين زوجته التى كانت في القدس ودام الأمر شهرين. أما إيليزا طومسون التى عاشت وحدها وسط قصف المدافع وتصدع الجدران وصرخات الجيران ورعب الخدم وتوقع المذابح باستمرار فقد وضعت طفلا اسمه ويليام الابن، وبعد أقل من أسبوعين من عودة زوجها ماتت من جراء الحمى. بقى ويليام طومسون فى الشرق الأوسط لكنه لم يعمل كمبشر بل ككاتب رحلات حيث نشر مغامرة لاقت رواجا منقطع النظير بعنوان «الأرض والكتاب». وفى هذا الكتاب يعترف طومسون بأن حفنة من العرب فقط هم الذين أعربوا عن اهتمام بإنجيل الغرب وهذه الحفنة فعلت ذلك لأنهم تصوروا أن بوسعهم كسب أموال من الأجانب الملتاثين السذج الذين يأتون إلى بلدهم. حقيقة كان وقع المبشرين الأوائل على العرب مثل وقع الهيبى الذين كانوا يسافرون فى الستينات والسبعينات على الآسيويين أو كما يحدث لأكثر عمال الإغاثة الغربية سذاجة حينما يبدون فى عيون أهل العالم الثالث معلنين

عزمهم على العون والمساعدة لكنهم بكل أسف لا يفهمون من حولهم شيئا.

مع ذلك فلأن هذا الفشل الذريع كان يحدث فى أصقاع العالم البعيد، فإن تفاصيله جللها النسيان وإن بقى منها المجد والفخار لدرجة أن يكتب أحد الكهنة فى ذلك العصر قائلا : «من حق المرء أن يعيد كتابة الفصل الحادى عشر من سفر العبرانيين مرصعا بأسماء معروفة من واقع الحوليات المعاصرة للعاملين المسيحيين فى أرض التوراة ... وفى طليعتهم تأتى أسماء رجال من أمثال بيلينى فيسك وليفى بارسونز». على أن مجلس الإرساليات فى بوسطن لم يفت فى عضده شىء بل أوفد المزيد من البعثات إلى المشرق. والحقيقة أن التجارب المفجعة التى شهدتها الكنائس البروتستانتية مع الهنود الحمر فى أمريكا دفعتها إلى وقف كل جهودها لصالح هؤلاء السكان الأصليين لأمريكا إلا أن ذلك لم يؤثر على جمعها للأموال لصالح الإرساليات فيما وراء البحار حتى بعد أن أصبح واضحا أن الشرق الأوسط على الأقل فيه غالبية من المسلمين الذين لا تلوح بينهم أى فرصة من قريب أو بعيد لكى يتحولوا عن ديانتهم.

لكن بحلول عام ١٨٣٠ كان مجلس الإرساليات فى بوسطن قد بلغ من اليأس لدرجة أنه استهدف ملة شبه مجهولة من مسيحيى المشرق وهم النساطرة فى إيران البعيدة بوصفهم يشكلون إمكانية للتحول عن مذهبهم. كانت التجارب الأولى فى أزمير والاسكندرية

والقدس وبيروت قد علمت المجمعيين أن المسيحيين المشارقة ليسوا بأقل من المسلمين حاجة إلى فهم المسيحية إن لم يكونوا بحاجة أكثر إلى ذلك.

ومجرد استحالة تحويل المسلمين أو يهود المشرق عن ديانتهم، أجبرت المبشرين على القبول بحقيقة أن أصحاب هاتين الديانتين مختلفون تماما لأنهم يشكلون جزءا من الوسط المشرقى الفريد الذى يستوجب دراسة جادة * . لكن الوصول إلى القدس ولو على أعتاب الموت كما حدث لكل من فيسك وطومسون لمجرد رؤية كنيسة المهد المقدس وغيرها من المواقع المقدسة . وقد قام على حراستها طغمة زرية تعيش بالخرافة من اليونانيين والعرب الذين اكتسبوا الطابع اليونانى وقد انكبوا على تقبيل الأيقونات وحرق البخور وسط أجواء مموهة بالذهب، كل هذا زاد من حنق البيوريتان المهذبين القادمين من نيو إنجلند فى أمريكا. وفى أعين هؤلاء المبشرين كان المسيحيون المشرقيون سواء الروم الأرثوذكس أو أقباط مصر أو موارنة لبنان وغيرهم هم الذين شوهوا حقيقة الأرض المقدسة عندما أكدوا على أهمية الشعائر والطقوس التى تكاد تسلم الناس إلى نوع من التنويم المغناطيسى فتعلو على كلمة الرب! بل عداء المبشرين البروتستانت إزاء هذه الكنائس المشرقية وشعائرها الغريبة بوصفها نتاجا للحكم البيزنطى فى الشرق

---

* كان القانون العثمانى فى حقيقة الأمر يجرم أعمال التبشير المسيحية بين السكان المسلمين .

الأوسط منذ القرن الرابع إلى القرن السادس للميلاد عداء لم يزل على الإطلاق بل زاد فى واقع الأمر، حتى أنه فى عام ١٩٢٠ تكتب مبشرة فى بيروت اسمها مرجريت مجليفارى فتقول: «الكنيسة المشرقية جرح غائر فى قلب المسيحية وبقدر ما أنها تمثل أكبر همزات الوصل مع الإسلام فإن الأمر يدفع العالم المسيحى إلى تجديد النظام الذى يقصر عن الترويج لقضيته فى الشرق الأدنى».

ومن أجل دراسة أحوال النساطرة اختار مجلس الإرساليات هاريسون جراى دوايت وإيلى سميث للقيام برحلة شاقة عبر الأناضول إلى المنطقة الجبلية الوعرة والمجللة بالثلوج التى تتقاطع فيها حدود تركيا وأرمينيا وإيران وجورجيا. كان الرجلان فى التاسعة والعشرين وقد تخرج دوايت فى كلية هاملتون فى أعالى ولاية نيويورك ومن معهد أندوفر اللاهوتى، أما سميث فتخرج فى بيل وأندوفر. كان دوايت رجلا طيب المعشر متين البنيان لا يهاب الأخطار وأصبح بذلك رحالة كامل الأوصاف أشبه بسلفه ويليام طومسون حيث نجح كمكتشف وكاتب رحلات وليس كمبشر دينى. أما إيلى سميث فكان رجلا أشد رقة وأكثر تعرضا للأمراض لكنه حقق المزيد حيث أصبح إيلى سميث أول مستعرب أمريكى فى التاريخ.

وبوسع المرء أن يؤرخ لبداية تراث الاستعراب الأمريكى فى عام ١٨٢٧ عندما خرج إيلى سميث اليانكى الأمريكى القادم من

جامعة بيل فى ولاية كونكتيكت من الأمن النسبى إلى دوائر التبشير الوليدة فى بيروت منطلقا إلى الجبال المحيطة كى يعيش عدة أشهر مع المسلمين فى القرى الدرزية يدرس لغتهم (فى ذلك الوقت كان ريتشارد فرانسيس بيرتون أول المستعربين البريطانيين العظماء صبيا فى السادسة من عمره) وعلى خلاف بليني فيسك الذى سرعان ما تخلى عن تعلم العربية، واصل سميث تعليمه يوميا لمدة ثلاث سنوات فمهد بذلك الأرضية لحياته البحثية حتى تلقى كلمة من مجلس التبشير ليلتقى مع دوايت من أجل الرحلة التى قاما بها إلى إيران.

بدأ سميث ودوايت رحلتهما من أزمير فسافرا شمالا على متن الجياد إلى القسطنطينية وقد ارتديا الملابس وأغطية الرأس الوطنية وحملا مسدسات وكانا ينامان على أبسطة شرقية أحضراها معهما. وكانت اللحى التى أطلقاها مناسبة تماما لثيابهما الوطنية ، ومن هنا فقد أصبح هذان الأمريكيان وهما نتاج ثقافة الشرق القديمة والعميقة الجذور فوجداها أمرا لا سبيل إلى مقاومته. استغرق الأمر أكثر من ثلاثة أسابيع حتى استطاع الرجلان أن يعبرا المناطق العاصفة بالرياح والغبار فى شمال الأناضول من الآستانة إلى أرضروم فى المنطقة التى يسكنها الأرمن فى شرقى تركيا. كانا ينامان فى الاسطبلات بين الجياد وروثها. وفى الصيف وصل سميث ودوايت إلى تفليس فى جورجيا حيث أصيب سميث بالكوليرا وأصبح من الضعف لدرجة العجز

عن امتطاء الحصان فركب من خلف دوايت فى عربة تجرها الثيران وقد يمم الاثنان وجههما شطر الجنوب الشرقى عبر الجبال نحو إيران. كان سميث قد أشرف على الموت من المرض وكان عاجزا عن النوم بسبب جحافل البعوض التى لم تنقطع وهو يتذكر هذه المرحلة بقوله : «كنت أرقد وأبكى مثل طفل».

ولثلاثة أشهر بقى الرجلان فى مخفر أمامى لبعثة تبشير سويسرية فى أرمينيا حيث استرد عافيته وجاء شهر نوفمبر وبدأ الجليد يسقط على غابات الاستبس عندما انطلق الرجلان من جديد قاصدين تبريز فى الشمال الغربى لإيران. أمضيا ليلة فى زاوية متربة دون مدفئة فسقط سميث مريضا من جديد. وفى مناسبة أخرى كانا ينامان وسط كل أنواع القاذورات والبراغيث والقمامة واضطرا إلى أن يعيشا على الخبز الذى كان حافلا بكل أنواع المخلوقات الزاحفة، وقد تم انضاجه على روث البقر المجفف. أخيرا فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٣٠ كان سميث قد بلغ من الضعف لدرجة العجز عن السير أو الوقوف إلا أن هذا التاريخ جعل مدينة تبريز الإيرانية تشهد أول الأمريكيين من زوارها.

فى مارس التالى، تحسنت صحة سميث بما يكفى لدفعه مع رفيقه إلى رحلتهما نحو الشاطىء الغربى من بحيرة أورميا القريبة حيث يسكن النساطرة. وربما كانت مشقة الرحلة إلى تلك النحلة

المسيحية المعزولة فضلا عن معجزة بقائهما على قيد الحياة بحد ذاتها هى التى دفعت سميث إلى التحمس الشديد لجعل أورميا موقعا للعمل التبشيرى الذى اضطلعا به.

هكذا جاء عام ١٨٣٣ فأوفد مجلس التبشير فى بوسطن جوستين بيركنز (٢٨ سنة) وعروسه الجديدة شارلوت لإنشاء بيت فى جبال غربى تبريز. وكان بركنز خريج أمهرست ومعهد أندوفر اللاهوتى بمثابة براهما مجمعى نمطى حيث اكتسب سمعته بفضل أخلاقه الحميدة وحسن تربيته العالية فضلا عن إرادة حديدية وقوة على التحمل بالغة. انطلق الزوجان فى رحلة كانت أيسر سبيلا إذ ركبا البحر عبر شمال الأناضول على ساحل البحر الأسود إلى شرق تركيا قبل أن يشرعا فى الرحلة فى البر. وكانا قد أحضرا خيمتهما الخاصة وأدوات المطبخ ، وكما قدر للسيدة أليزا طومسون أن يأتيها المخاض وسط ظروف مفجعة فى القدس حدث الأمر نفسه للسيدة شارلوت بركنز فى تبرين، لكن شارلوت عاشت وإن لم تكتب الحياة لطفلتها الوليدة.

هنالك أدرك مجلس بوسطن أن البعثات فى تلك المواقع البدائية مكتوب عليها الفشل دون وجود طبيب مدرب. ومن هنا ففى الأسابيع الأولى من عام ١٨٥٥ نزل إلى القارب فى قناة إيرى طبيب يبلغ من العمر ٢٨ سنة هو أساهل جرانت من نيويورك وزوجته جوديش. كان جرانت، على خلاف غيره من المبشرين، لا

ينتمى إلى شريحة عليا فى نيو إنجلند. كان رجلا ضئيل الجسم سهل الاستثارة أسمر البشرة ولم يقدر له أن يتخرج فى جامعة ولا حتى فى كلية طب أصولية. كل ما حمله من شهادات كان تعلمه الميدانى على يد طبيب فى أعالى نيويورك فضلا عن استغراقه فى قراءة الكتب المقدسة لكن حماسه كان مدفوعا بفكرة أن النساطرة يعدون بين القبائل التائهة أو الضائعة من بنى إسرائيل.

فى أول شتاء فى إيران نامت عائلتا جرانت وبركنز فى مساكن الطوب اللبن مرتدين ملابس النوم التى جللها الجليد والصقيع. وفى يناير ١٨٣٦ افتتح الأمريكيون مدرسة تبشير فى بحيرة أورميا تعلم التلاميذ قراءة صلوات الرب. لكن جرانت هو الذى قدر له، رغم تواضع مولده وافتقاره إلى التعليم المنظم بل وإصابته بالكوليرا، أن يكتسب عمله الطبى قلوب سكان أورميا من مسلمين ونساطرة ويهود فشرعوا يطلقون عليه لقب «حكيم صاحب» (أى السيد الطبيب) .

نمت العيادة الطبية وازدهرت ، شأنها شأن المدرسة وأصبح جرانت يعالج الآلاف تلو الآلاف من المرضى وبعد ذلك أرسل مجلس بوسطن مطبعة للجالية أنتجت صلوات الرب وكتاب المزامير بالسوريانية (اللسان النسطورى المماثل للآرامية التى كان يتكلمها السيد المسيح).

بيد أن الجهد الجهيد والظروف الوخيمة اقتضت ضريبتها فماتت جوديث جرانت واثنان من أطفالها بعد المرض، وكذلك كان مصير أربعة من أبناء بركنز. بالإضافة إلى ذلك، أصيبت شارلوت زوجة جوستين بالصرع واستجاب المجلس في بوسطن بمجرد إرسال المزيد من المبشرين إلى أورميا. ولم يطل الوقت قبل أن تقوم البعثات الأمريكية الجديدة بافتتاح مقارها في الموصل المجاورة (شمال العراق حاليا) وفي آشيثا (قرب الحدود العراقية التركية الحالية).

كانت تلك ريادة أمريكية في أقصى شجاعتها وأفضلها وهي التي تستحق ذكرها عن جدارة في كتبنا المدرسية الأمريكية حتى بعد أن أدى تصحيح السياسات حاليا إلى الحيلولة دون إضافة المزيد من الأسماء.

في أمريكا في عام ١٨٣٥ لم يكن أبراهام لينكولن الشاب من ولاية إلينوي قد مضى عليه سوى ثلاث سنوات منذ أن استطاع إخضاع قبائل الهنود الحمر المحلية في حقل الصقر الأسود، ولم يستطع بناء خط سكك حديدية على مدى عشرين سنة بعد ذلك. ولم تكن ولايتا نبراسكا ووسكنسن تشملان سوى حفنة من البلدات الصغيرة والحصينة وسط البرية ، وكان أوائل المستوطنين البيض يعملون جاهدين على التسلل إلى وادي ويلياميت في

أوريجون فيما كانت أوكلاهوما ما زالت أرضا مجهولة ومأهولة بالهنود الحمر. مع ذلك كانت هناك عائلتان أمريكيتان هما عائلة جوزستين بركينز وآشيل جرانتس، استطاعتا إنشاء مستوطنة عند بحيرة فى جبال إيران قرب أرمينيا وكردستان وأذربيجان، وتلك منطقة ستظل حتى تسعينات القرن الحالى - بعبارات جوديث جرانت فى رسالة بعثت بها إلى الوطن فى عام ١٨٣٥ - من بين «أسوأ وأخطر مناطق العالم».

كان المشروع برمته غريب الأطوار، ومع ذلك فقد ظل يقف شاهداً مبكرا على أن العزلة الأمريكية التى طالما تحدثوا عنها كانت تخالطها روح من التفاؤل والدينامية لاتعرف حدودا إقليمية.

ومن بين النساطرة فى أورميا كان العدد لايزيد على ٦٠٠ فقط بالمقارنة مع ألفين من اليهود وأكثر من ٢٧ ألفا من المسلمين. وبرغم أن طائفة النساطرة فضلا عن عناصر يهودية ومسلمة أيضا أصبحوا من أخلص أصدقاء بل وحماة المبشرين بفضل ما تلقوه منهم من مساعدة إنسانية، فلم يتمكن المبشرون سوى من تحويل حفنة فقط إلى المذهب البروتستانتى.

على أن الأهم من ذلك أنهم بفضل المدارس والعيادات الطبية فى مناطق قاسية لم تعرف يوما خدمات حكومية، فإن المجمعيين كانوا فى واقع الأمر يقومون بإدارة أول برنامج معونة خارجية لأمريكا، وعندما تواصلوا فى المنطقة مع أحوالها ولغاتها، بدأ المجمعيون يصبحون بمثابة رواد رومانسيين بل وعاملين فى هيئات

السلام الأمريكية أكثر من كونهم مبشرين حقيقيين. على سبيل المثال، كان أشيل جرانت قد أنشأ عيادته فى أورميا وبعدها انطلق ليجرى دراسة اثنوجرافية للجبال الكردية بدعوى أنه قد يجد بعض النساطرة لتحويلهم إلى مذهبه.

لكن بيروت، الميناء الصغير السريع النمو فى سوريا الكبرى الذى كانت تحيطه أشجار الأرز فى سلسلة جبال لبنان، هى المكان الذى استطاعت فيه جالية التبشير الأمريكية بالشرق الأوسط أن تجد لشخصيتها مستقرا ومنطلقا.

★★★

فى نوفمبر ١٨٢٣ عندما وصل الأمريكيون الأوائل لميناء بيروت واستطاع بيتر آبوت وكان قنصلا بريطانيا يجمع بين الحنكة والحكمة والدراية الواقعية أن ينقذ هؤلاء القادمين الجدد من ولاية ماساشوسيتس الأمريكية - الزوجان ويليام جوديل، والزوجان اسحق بيرد وقد خالطهم الاضطراب، من براثن الحاكم التركى مدخن الأرجيلة ودعاهم للإقامة فى بيته ريثما يجدون مساكن مناسبة، كان القنصل بذلك يرسى نمطا ثابتا. وبرغم أن الثورة الأمريكية كانت قد وقعت منذ أربعة عقود فقط، كما انتهت حرب ١٨١٢ منذ ثمانى سنوات فحسب، إلا أن مشاعر الكراهية كانت سنة ١٨١٥ مازالت حية فى النفوس وسط البيئة الأجنبية المعادية فى الشرق الأوسط، فلم يجد هؤلاء المجمعيون أبناء نيو إنجلند

سوى حلفاء طبيعيين وفوريين هم البريطانيون * . ولم يقتصر الأمر على أن البريطانيين كانوا كالأمريكيين يتكلمون الإنجليزية، بل كانوا أيضا بروتستانت قاموا منذ فترة قريبة بإيفاد مبشرين على نفقتهم إلى الشرق الأوسط، وكانوا قد استقروا بالفعل فى منطقة المشرق، فاستطاعوا أن يتولوا زمام القيادة بالنسبة للقادمين من الأمريكيين البسطاء. وستمر سنوات كثيرة يظل فيها القنصل البريطانى هو الحماية الرسمية والممثل الرسمى عن المبشرين الأمريكيين فى سوريا .

القيم بدورها دفعت بالأمريكيين إلى معسكر البريطانيين كما أن الأمريكيين وجدوا أنفسهم متعاطفين بدورهم مع السكان العرب المحليين فى نضالهم اليومى ضد السلطة العثمانية ، وكان الأمريكيون من ناحية مدفوعين فى ذلك بدعوتهم التبشيرية وكذلك بتجربتهم التى لم تكن بعيدة فى الزمن فى التحرر من الطغيان الأجنبى وكذلك فعل البريطانيون الذين كانوا بدورهم خصوما مستنيرين للأتراك.

من ناحية أخرى كان ثمة رابطة من الولاء تتشكل نحو المكان ذاته فى نفوس البريطانيين والأمريكان البروتستانت وهذا المكان

★ جوديل وبيرد كانا أول أمريكيين فى بيروت وقد حصلا التعليم الاعتيادى للمبشرين البروتستانت حيث كان جوديل قد تخرج فى كلية دارت موث ومعهد أندوفر اللاهوتى فيما تخرج بيرد من جامعة ييل ومعهد أندوفر أيضا .

هو بيروت بل ولبنان بوصفه جزءا متميزا من بلاد الشام وليس بوصفه بلدا قائما بذاته وعندما عاد سميث إلى بيروت عقب مغامرته التى أوصلته إلى حافة الموت فى إيران مع دوتيس دوايت. وبعد رحلة عند المجامع الدينية فى بوسطن وفى اندوفر القريبة منها ربما كانت القدس هى أفضل محطة لايفاد المبعوثين لكن فى واقع الأمر كانت القدس وقتها موقعا إقليميا يحفه الجمود والبرود والتعاسة ويقع تحت سيطرة الأتراك، فى حين كانت بيروت مرفأ يأخذ بأسباب التحديث وينعم بمناخ رائع وفريد وتحيط به جبال خلابة مثل نظيراتها فى أوروبا. وعندما انضم إيلى سميث وغيره إلى عائلتى جوديل وبيرد فى أواخر العشرينات من القرن الثامن عشر، بدأت بيروت تشكل مجتمع الوافدين الحقيقى رغم ضيق مساحته، قبل أن تكون محطة أمامية لايفاد المبشرين مثل القدس أو أورميا . رجع فيها إلى الساحل الشرقى لأمريكا للزواج) يومها شعر بكل معنى إنه بعودته إلى بيروت، فإنما يعود إلى «الوطن».

عروس سميث واسمها سارة هانتنجتن كانت مثل زوجها من عائلة كبيرة فى كونكتيكت. كان جدها قد ساعد على إنشاء مجلس التبشير فى بوسطن. وما أن وجدت هذه الارستقراطية ابنة نيو إنجلند نفسها فى بيروت حتى أصبحت شغوفة ومولعة بكل ما هو إنجليزى. كان موقع «نبلاء الإنجليز» فى الكنيسة هو الذى جعلها تدرك أن «أفضل» الأمريكيين تربية هم فقط الجديرون بأن يستعرضوا أنفسهم فى سوريا وقد كتبت يوما تقول «إن مايتصف

به بعض مواطنينا الجمهوريين الطيبين من أخلاق ساذجة ومتفردة يتعارض إلى حد الأذى مع الذوق الأجنبى». هكذا كانت الصفوة المتدينة من نيو إنجلند تبدى ميلا ملحوظا تتطلع فيه إلى البريطانيين وخصوصا النوع المرموق والغريب منهم. مثلا، أصبح من آيات الشرف لأى أمريكى فى ثلاثينات القرن الماضى فى بيروت أن تتاح له فرصة الاجتماع إلى ليدى هيستر ستانهوب التى عرفوها باسم راهبة لبنان المجنونة وهى ابنة إيرل انجليزى عاشت طويلا فى صفوف البدو وباتت تشغل قلعة متداعية تطل على صيدا وكانت تدرس السحر وفن التنجيم.

وبعد أن هيأت سارة لزوجها إيلى سميث بيتا فى بيروت، عاود على الفور دراساته العربية التى تفرغ لها على مدار السنوات الثلاث والعشرين التالية حتى وفاته عام ١٨٥٧. وكان يتخلل هذا النشاط رحلات منظمة فى كل إنحاء سوريا الكبرى وفلسطين. وكانت اجادته للعربية من الاتقان لدرجة انه حين وفاته كان قد قطع شطرا كبيرا من أجل إنجاز أول ترجمة على الإطلاق لإنجيل البروتستانت من الانجليزية الى العربية ★. وكان سميث قد جمع قائمة موسوعية بالمدن والقرى السورية التى شكلت أساس المعرفة

★ أكمل الترجمة زميل مبشر فى بيروت هو الدكتور كورنليوس فان دايك .

الجغرافية لمن أتى من الاختصاصيين فى الشرق الأوسط. ومن خلاله بدأ معنى المبشر يتغير من مجرد الواعظ أو الرحالة أو المكتشف الجهم السيىء الاستعداد إلى المستشرق المتفرد والعالم - المربى الذى يتواصل مع ثقافة فريدة ومع الخط العربى الشديد الثراء.

كان المبشرون يتكيفون ببطء ولكن بثبات مع البيئة التى عاشوا فيها. كان هناك جوناس كينج خريج كلية ويليامز، يدعو من صميم قلبه إلى الخلاص من الحكم الاستبدادى المسلم للأتراك، ولكنه كان يرتدى القاووق على رأسه ويربى لحيته حتى يسهل عليه أكثر التواصل مع العرب. مع ذلك. فبينما كان المبشرون قادرين على التوصل إلى أسلوب تعامل مع العرب المسلمين المحليين إلا أن علاقاتهم مع المسيحيين المشرقيين كانت تتطور من سيىء إلى أسوأ .

فبسبب محاولة تحويل بعض المسيحيين إلى البروتستانتية، أعلن أن ويليام جوديل واسحق بيرد شخصيات غير مرغوب فيها بين صفوف الروم الأرثوذكس والموارنة، وكان الموارنة بالذات هم الذين ضايقوا المبشرين الأمريكيين كثيرا، ففى عيون البروتستانت، يعد الروم الأرثوذكس مذهبا يجسد كل وثنية الشرق وفساده ببساطة وبغير استثناء. ولكن لأن المسألة مع

الموارنة كانت أكثر تعقيدا، فإن البغضاء ضربت بجذورها إلى أغوار بعيدة.

الموارنة يتخذون اسمهم من اسم راهب قديس من القرن الخامس هو مار مارون، وقد نشأ المذهب في شمال وسط سوريا قرب مدينة حماة بوصفه انشقاقا من المسيحية التقليدية وهى مذهب الروم الأرثوذكس، الذى كانت تدين به امبراطورية بيزنطة. وعندما فتح العرب المسلمون فى القرن السابع المنطقة، فإن الموارنة رحبوا بهم وانتهى بهم الأمر الى اتخاذ العربية لغة شعائرهم وظلوا يستخدمونها حتى اليوم. ويبقى من غير الواضح بالضبط متى هاجر الموارنة من شمال سوريا إلى الجبال فى شمال وشمال شرقى بيروت. ولأنهم ظلوا مذهبا صغيرا محاطا بالأعداء فقد تعايشوا على عقد الصفقات مع أى قوة تمتلك مقاليد الأمور فى لحظة ما. وبرغم ادعائهم بالتفوق الدينى على كنيسة روما. فإن الموارنة أرسلوا التهانى إلى البابا، وانضموا الى صفوف الصليبيين فى اللحظة التى قامت فيها أول حملة صليبية بغزو بيت المقدس. وعندما دارت الدائرة على الصليبيين تحول الموارنة بولائهم إلى المماليك فى مصر الذين استطاعوا بعد ذلك طرد الصليبيين. ومع ضعف شوكة المماليك فى الشرق الأوسط استأنف الموارنة علاقاتهم مع الكنيسة الكاثوليكية عشية الغزو

التركى العثمانى بما ضمن لهم تحالفا يحميهم مع فرنسا بوصفها قوة كاثوليكية كبيرة فى ذلك الوقت. والموارنة عناصر جبلية صعبة المراس وهم قادرون بكل طريقة على التعايش والاستمرار. فضلا عن ذلك كان الوقت قد حان لكى يشرعوا فى تطوير عقيدتهم الوطنية. وعلى خلاف سائر أبناء سوريا الكبرى، فإن الموارنة، بمعنى سياسى على الأقل، كانوا بالفعل فى طريقهم ليصبحوا شعبا يأخذ بأسباب الحداثة. ولأن المبشرين البروتستانت كانوا لايشكلون بوضوح قوة سياسية تؤخذ على محمل الجد، فلم يعاملهم الموارنة قط، بنفس الاحترام والتوقير الذى عاملهم به العرب المسلمون.

أما المبشرون الكاثوليك الفرنسيون فكانوا فى سوريا يعملون مع الموارنة على مدار ١٥٠ سنة قبل وصول البروتستانت (الأمريكيين) من نيو انجلند. لهذا فلم يكن من عجب أن يكون رد الفعل غاضبا من جانب الحكومة الفرنسية والقيادات المارونية إزاء كل من البريطانيين والأمريكيين وهم يذهبون لإلقاء عظات فى القرى المارونية، زادت التوترات فى عام ١٨٤٠ عندما بدأت قوات محمد على من مصر فى الانسحاب من سوريا. ولأن الموارنة كانوا، على طريقتهم المثلى، قد دخلوا فى علاقات طيبة مع العسكرية المصرية خلال احتلالها القصير الأمد، فقد باتوا فى

ذلك الحين فى موقف مكشوف. لقد عاد الأتراك فأعطوا تأييدهم العسكرى إلى الدروز أكبر خصوم الموارنة، وهم طائفة كانت تنتمى بسبب ما للإسلام وعاشت أيضا فى جبال لبنان. واستجاب الفرنسيون إلى استفزاز الأتراك بزيادة مساندتهم للموارنة مما دفع بالبريطانيين، وإلى حد ما بالمبشرين الأمريكيين، إلى دعم الدروز، وهكذا فبالنسبة إلى المبشرين البروتستانت كان «العدو» قد أصبح هو الموارنة ومن يحمونهم من الفرنسيين.

وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، كان البروتستانت القادمون من نيو إنجلند إلى بيروت يقاومون المرض والموت، ولو على نطاق أضيق من إخوتهم فى إيران – وفى ضوء تشكيلة من المواقف والتحيزات – كان هذا كله من أجل تحويل ما لايزيد على ثلاثين من أبناء سوريا المحليين إلى البروتستانتية، لكن الشخصية هى قدر الانسان، وشخصية رجل واحد من ولاية فيرمونت، سرعان ما سيصل إلى بيروت، سيقدر لها أن تلم كل أطراف الأعمال الخيرة التى اجترحها المبشرون، وقد كانت مشتتة وأحيانا لايقدرها أحد فى سوريا ومن ثم يعطيها اتجاها ديناميا بحيث تؤثر على السياسة الأمريكية فى المنطقة حتى نهاية القرن العشرين، هذا الرجل كان اسمه دانييل بليس.

الفصل الثاني

أجمل موقع في بيروت

لو كان ثمة نموذج قح للبروتستانتى الأمريكى من الجيل الأول لكان هذا النموذج اسمه «دانييل بليس» الذى ينحدر من عائلة مجمعية جاءت من انجلترا بعد سنوات قليلة من مجىء الحجاج المهاجرين الأوائل الى أمريكا ثم شب عن الطوق فى مزرعة نائية فى وادى فيرمونت وكأنه يكرر بذلك حياة أبراهام لنكولن الذى كان قد نشأ قبل ذلك بسنوات فى انديانا ثم هاجر بليس وهو فى الثالثة عشرة من عمره إلى أوهايو فى عربة مغطاة تجرها الخيول وبعدها فى قارب فى ترعة إيرى ثم عاد شرقا ليدرس اللاتينية واليونانية والعلوم اليهودية فى كلية أمهرست.

«بليس» شأنه شأن كثير من الأمريكيين الذين استقروا فى بيروت، نشأ فى بيئة ريفية شهدت طفولته ولم تكن بالبيئة الميسورة بحال ولكنها حظيت بذكريات جميلة يتداعى معها تلك الصرامة وأحيانا شظف العيش الذى تتولد منه شخصية فى صلابة الفولاذ وآداب مجبولة على الخير والطيبة، يقول بليس فى كتابه بعنوان «ذكريات»: «أكثر مشاهد حياتى التى بقيت فى الذاكرة هو الينبوع البارد قرب شجرة البلسم الباسقة وهو أيضا جمع اللوزات

والفستق في الخريف وجمع التوت بأنواعه في مواسمها». وكان دانييل الصغير يستعد لقدوم الشتاء بخزن البطاطس وعصر التفاح وكان يمتطي جواده لحراسة الأرض ويحمل المياه من النبع ويأتي بالحطب إلى الموقد. وكشأن لنكولن أيضا ذاق بليس الصبي تجربة وفاة أمه، ومن أمه كان قد تعلم حب الكتب المقدسة التي كان مايفتأ يستشهد بفقرات منها وكانت الدروس المستفادة من سطورها هي التي تطبق على الموقف الذي عاشه في لبنان.

بليس كان يعشق التعليم بكل جوارحه شأنه أيضا شأن أبراهام لنكولن، وعندما كان في سنوات الصبا الأول كان يبكي، كما اعترف بعد ذلك، مثل طفل عندما كان أبوه وأخوه الأكبر يرفضان السماح له بالانتظام في مدرسة البنين في استنبرغ، أوهايو، وسرعان ما استطاع أن يلتحق بمدرسة من اختياره ووجد عملا في مزرعة قريبة أتاح له دفع المصاريف وبعدها كان القوم يشهدون بليس الشاب يجول في أنحاء منطقة بحيرة أيري يدق على بوابات المزارع بحثا عن أي فرصة متاحة تمكنه من سبل العودة إلى سلك الدراسة. عمل في دباغة الجلود وفي قطع الأشجار كي يمول دراسته في كلية في كينجز فيل في مكان ليس بالبعيد في شمال شرق ولاية أوهايو (كان عمره في ذلك الوقت - ١٨٤٦ - ثلاثة وعشرين عاما).

وفى تلك الكلية تجلى نبوغه على الفور فطلب منه عميدها أن يعمل معيدا بها وكان قد قارب السادسة والعشرين وبعدها عاد إلى منطقة نيو انجلند ليدخل كلية اللاهوت الشهيرة فى أمهرست.

كانت كشأن المعاهد الرفيعة فى القرن التاسع عشر فى منطقة نيو انجلند تؤدى دورها بوصفها مؤسسة صغيرة وحميمة إذ كانت تضم أقل من عشرة أساتذة مهمتهم الأساسية أن يعدوا طلابهم من أجل «عالم متحضر ومتحول إلى الانجيلية». وفى ضوء الطموح الذى رواد الفتى، فضلا عن تجارب التجوال التى خبرها فى شبابه فى أوهايو بدا الأمر وكأنه كتب على بليس أن يفضى به المطاف لمهمة تبشيرية خارج الحدود.

كان للفتى مواقف للتحدى فى أمهرست شبيهة بمواقفه فى سابقتها فى كينجز فيل. ففى خطاب استهلالى ألقاه فى الكلية دعا إلى ما وصفه بأنه «تحريك» دائم فى ميدان الديانة ومضمار السياسة باعتبار أن ليس هناك «حد نهائى تقف عنده حدود الالهام والتجليات» إلا عندما تضاء أرجاء العالم كله بالاستنارة وتشرق على آفاقه كلها شمس الحرية.

كانت لفظة بروتستانتى بالنسبة إلى بليس تفهم فى معناها اللغوى الأصلى: التمرد على نظام دينى وأخلاقى متجمد وكانت المثالية البروتستانتية التى انتفضت بالحياة بفعل الحركية

السياسية وزاد من شحنتها التأملات الفكرية هى التى تسيطر على الجو السائد فى أمهرست وكذلك على معهد اندوفر الدينى الذى كان المحطة التالية التى انتقل إليها بليس. يومها كان بليس يعلم زوج المؤلفة «هاريت بيتشر ستو» صاحبة رواية «كوخ العم توم» الشهيرة. أما السيدة التى تزوجها بليس وهى آبى وود فكانت صديقة مقربة من الكاتبة والشاعرة الشهيرة أيضا إميلى ديكنسن. وعندما كان صاحبنا فى الخامسة والثلاثين أبحر من ميناء بوسطن فى ديسمبر ١٨٥٥ وبصحبته عروسه ولما يمض على زواجهما ثلاثة أسابيع قاصدا بلاد الشام وكان سلوكه بهذا هو سلوك المبشر البروتستانتى فى الجوهر وفى الأساس.

من هنا لم يكن دانييل بليس يمتلك الخلفية الصحيحة لمهمته فحسب بل كان، وهذا هو الأهم، قادرا على تحديد نقطة البداية من خارج الصورة كما قد نقول، ومن ثم ارتقى الى قمة الفئة التى ينتمى إليها بين صفوة خريجى معاهد نيو انجلند. ولأن مسار حياته اجتاز أكثر من محطة من المشاق إلى أن تحقق له النجاح، فلم يكن ثمة شكوك تراود الرجل وإنما كرس نفسه إلى تحقيق المثل المزدوج للثورى الأمريكى: احراز التقدم وارتقاء مدارج الكمال الانسانى. كانت تحدوه قناعة مطلقة بأن التعرض لقيم الحق وتحصيل التعليم السليم هو كل مايتطلبه توجيه

الشعوب والثقافات مهما كان جنوحها الى حيث يتحقق المجد لله. وهذا ما أودعه عبارات خطابه الاستهلالى فى كلية أمهرست. حتى سحنة بليس كانت تعكس هذا كله، كانت قسماته خطوطا مستقيمة كأنما نحتت من رسم من إبداع جرانت وود: ملامح قاسية بزوايا حادة تطل منها عينان صافيتان على شاكلة أهل نيو انجلند تشعان ثقة عمياء وقناعة لاتهتز يخالطهما حس من تفوق الخيرين.

كانت محطته التبشيرية الأولى فى سوريا «الكبرى» فى منطقة «عبية» المرتفعة فى الجبال المحيطة ببيروت. وكانت محطته الثانية على بعد أميال قليلة شمال بيروت فى سوق الغرب. المحطة الأولى كانت تتسم بمناخ نادر وجمال أوربى الطابع وفيها تعلم بليس كيف يحب لبنان. أما فى «سوق الغرب» فلم يرق له أمر المسيحيين من روم أرثوذكس وموارنة الذين سرعان ما رأى فيهم «المحرك» بليس تجسيدا بليغا لما كان يرفضه من نظام دينى واجتماعى عف عليه الزمن وران عليه الجمود. إن رهبان الروم الارثوذكس لم يقصروا عن اثناء الصبية المحليين عن الاختلاف إلى مدرسة التبشير التى افتتحها بليس فحسب، بل عملوا أيضا على أن يغلقوا أبوابها. وفى كتابه «ذكريات» يورد صاحبنا مثالا عن تلميذ تحدى أوامر الرهبان فجاء الى المدرسة وأصبح هذا الصبى بالذات طبيبا وقاضيا فى المحكمة. ولو كان بليس بحاجة إلى أى

إثبات ليؤكد فعالية التعليم الغربى فى بيئة الشام الفاسدة لكان هذا الدليل هو تصميم ذلك الصبى. فبالنسبة إلى بليس كانت معاناة الصبا وحرمان الفتى من التعليم أمرا قريب العهد فى وجدانه ومن ثم كان يفهم تماما التوق الذى كان يتأجج بين جوانح الفتيان العرب شوقا إلى التعليم.

وخلال نشوب القتال فى عام ١٨٦٠ بين الموارنة والدروز، تعلم بليس شيئا آخر: عدم الثقة بصنعة السياسة حتى ولو كانت سياسة بريطانية أو أمريكية. وبينما كان يجهد فى إنقاذ جماعة من المدنيين المسيحيين الذين أحيط بهم وسط اشتباكات الحرب، إذا بالقنصل البريطانى يرفض مد يد المساعدة باعتبار أن ذلك من شأنه تعقيد علاقات بريطانيا مع الدروز والمسلمين. من هنا رأى بليس أن المبشرين ينبغى أن يشكلوا قوة قائمة على حدة بدلا من أن يكونوا خاضعين لمتطلبات السياسة الدولية بكل مشاكلها .

وكان السؤال: لماذا هذا الاستقلال؟ هل ليتاح الفرصة لمجرد الوعظ والارشاد؟ أو لتقديم تبرعات البر والإحسان هنا أو هناك بعد اندلاع مذبحة أو تفشى وباء؟ لا. إن نتيجة مثل هذه الأنشطة فى سوريا الكبرى ثبت أنها أضعف من أن ينجم عنها أثر دائم. المبشرون بحاجة إلى أداء دور أكبر من ذلك، وهكذا أصبح واضحا أمام بليس كما سبق واتضح فى عيون ويليام طومسون

واسحق بيرد وغيرهما أن التعليم الغربى هو أكثر الأسلحة مضاء وفعالية.

وبحلول عام ١٨٦٠ كان المبشرون الأمريكيون يعملون على تشغيل ثلاث وثلاثين مدرسة فى بلاد الشام ، ولأن هدفهم النهائى كان «تمدين المجتمع السورى» فبعد كثير من المناقشات وبعد أخذ ورد فى الأفكار ادركوا أن مايحتاجونه هو كلية غير مذهبية تفتح أبوابها لكل الأجناس والأعراق وتقوم بعملها على أعلى مستويات موجودة فى منطقة نيو انجلند الأمريكية ، ومن ثم ينجم عنها أثر دينامى بالنسبة لتوجيه الثقافة والحضارة فى بلاد الشام. مثل هذا الهدف لم يكن ليتسنى تحقيقه إلا بدمج هذه الكلية أو الجامعة مع البيئة المحلية وهذا ما لم يفعله البريطانيون أو الفرنسيون على السواء.

ولتحقيقه أيضا فمن الطبيعى أن تكون العربية وليست الانجليزية هى لغة التعليم. وكثيرا ما كان مجلس التبشير فى بوسطن يؤكد أهمية اللغة العربية فى معركته لكسب متحولين الى المسيحية فى الشرق الأوسط. على أن القرار بتعليم العرب بلغتهم ذاتها كان يتسم بشجاعة خاصة بحد ذاته لا لمجرد مايكمن فى تعليم العربية من صعوبة بالغة. وفيما استطاع الجزويت أن يجتذبوا أعدادا كبيرة من الطلاب الى المدارس الكاثوليكية

الفرنسية بسبب رغبة اللبنانيين فى تعلم لغة أوربية. فإن مجلس بوسطن الأمريكى، وقد سانده فى ذلك بليس لم يرضخ إزاء الاغراء بمنافسة الجزويت فيطرح الانجليزية كلغة تعليم فى المدارس الامريكية. كان مبشرو نيو انجلند على استعداد للتضحية بقدر من النفوذ الذى تمتعوا به فى الشام من أجل تمكينهم من التأثير على قيم مجتمع تلك البلاد، كانوا يعرفون إنهم بتعليم الانجليزية فلن يتسنى لهم سوى خلق شريحة من الصفوة العربية فحسب معزولة عن شعبها ولسوف ينتهى المطاف بكثير من عناصرها بالهجرة إلى أمريكا أو انجلترا.

يكتب ستيفن بنروز وهو من كبار رجال التربية الأمريكيين فى بيروت فيقول: إن أسلافه من المبشرين لم تكن لديهم رغبة كما كان لدى غيرهم فى «فرنجة» أبناء البلاد الأصليين لأغراض امبريالية بل أدركوا الثروة التى لاتوصف للثقافة العربية المهددة بالانقراض فكان إن قرروا «الاستفادة منها».

إن اختيار البروتستانت للعربية لغة لكليتهم الجديدة، وبرغم مانجم عنه من مآل سيىء، كان مرتبطا أوثق الارتباط بنضالهم الذى لم يهدأ لتحويل مجتمع الشام من داخله على أساس من الشراكة بدلا من العمل من الخارج على نحو ما كان يفعله الفرنسيون أو البريطانيون. وفيما اختار الفرنسيون والبريطانيون

فى سوريا أن يتنافسوا وأن يتطارحوا القوة على مسرح السياسة فإن الأمريكيين ركزوا على صعيدى المجتمع والتربية والتعليم. وكان من شأن هذا ان يكسب للأمريكيين محبة العرب واحترامهم. ومن هنا يكتب جورج انطونيوس،، المؤلف المسيحى العربى فى كتابه الموسوعى حول القومية العربية الذى نشره عام ١٩٣٨ بعنوان «اليقظة العربية» فيقول:

«نجمت مزية فائقة عن الأنشطة التعليمية التى مارسها المبشرون الأمريكيون فى تلك الفترة المبكرة بين مزايا أخرى كثيرة: فقد أضفوا على العربية مكانة الاعتزاز وألزموا أنفسهم بالتعليم بتلك اللغة فكان أن تحملوا بهمة ونشاط واجب تقديم أدبيات لها قيمتها. وفى ذلك كانوا روادا لتلك الثورة الثقافية التى ميزت الارهاصات الأولى لحركة الاحياء العربية التى تدين لكثير من أياديهم البيضاء».

على أن هذا الإيثار من جانب المبشرين كان له أيضا عواقبه الأخرى فقد زاد من مشاعر العداوة من جانبهم التى ضاعف منها افتراض بتفوقهم الأخلاقى إزاء الفرنسيين وإزاء الموارنة الذين يتبعون نهجا فرانكفونيا عميقا. وبعد ذلك بسنوات سنجد مارجريت ماك جلفارى سكرتيرة فرع بيروت للصليب الأحمر الأمريكى تعرب عن سخط وغضب شديدين لأنه فيما يعمل

الأمريكيون فى سوريا «بدوافع انسانية بحتة» فإن القساوسة الفرنسيين كانوا «عملاء للبروباجندا السياسية». من هنا تعمقت عزلة الوافدين الأمريكيين فى بيروت إزاء السياسات الواقعية للدبلوماسية البريطانية ، بل وكذلك إزاء دبلوماسية بلدهم ذاته الذى كان فى تلك الفترة مشغولا بحربه الأهلية بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها ومن ثم لم تستطع سياسته أن تلمح أبعاد القضايا الأخلاقية التى يحدق بها الخطر وقت ذاك فى الشرق الأوسط.

هذا الإحساس بالعزلة والتفرد، بأن القوم يحفرون قدر أمريكا فى صخر الأرض المقدسة الاصيلة دون مساعدة أو إعاقة من جانب الحكومة الأمريكية، كل هذا أضاف وقودا سيكولوجيا تعززت به الأسباب العملية العديدة التى دفعتهم إلى إجادة العربية أو الى أن يكونوا مستعربين تماما بعبارات أخرى. وكما يلاحظ ستيفن بنروز فإن المبشرين «بدأوا بأنفسهم فى تعلم العربية ثم علموا ووعظوا وكتبوا أو ترجموا المقالات والكتب باللغة العربية. ثم جاء يوم ٣ ديسمبر ١٨٦٦ ليشكل نهاية حقبة للأمريكيين فى الشرق الأوسط وبداية حقبة جديدة. فى ذلك اليوم افتتحت الكلية السورية البروتستانتية فى بيروت ★ أبوابها

★ المدرسة الكلية السورية الإنجيلية - قاموس الإعلام للزركلي جزء٢ (المترجم)

رسميا لينتظم فى سلكها ستة عشر طالبا ويكون دانييل بليس أول رئيس لها ★ .

أما رئيس مجلس أمناء الكلية فكان القس الابرشي ديفيد ستيوارت دودج (وشمل المجلس أيضا شقيق القس المذكور ويليام ايرل دودج). هكذا لم تعد الجالية الأمريكية فى بيروت تركز نفسها حول مجموعة متنوعة من المبشرين بل تركزت حول كلية جامعية.

فى بادىء الأمر تألفت الكلية البروتستانتية السورية من بضع غرف فى حفنة مبان ، وفى الوقت نفسه جاهد بليسُ والاخوان دودج فى البحث فى كل منطقة بيروت عن حرم جامعى دائم، وبعد عام كامل من البحث توصلوا الى «أجمل موقع فى بيروت، إن لم يكن فى بلاد الشام بأسرها». واستطاعوا تأمينه بدفع مقدم خمسة آلاف دولار. وتشاء الأقدار أن يكون الموقع فى الجزء المسلم من مدينة بيروت فوق ربوة تطل بمنظر ساحر على البحر

★ بعد ثلاث سنوات في عام ١٨٦٣ قام عضو سابق في مجلس التبشير بفتح كلية روبرت في اسطنبول ، وفي عام ١٨٦٥ قامت الكنيسة المشيخية المتحدة لأمريكا بافتتاح كلية أسيوط فى صعيد مصر الأوسط ولكن نفوذ وتأثير هاتين الكليتين كان هامشيا على العلاقات العربية الأمريكية .

الأبيض المتوسط وخليج سان جورج، فى البقعة التى يقال أن القديس المسيحى قتل فيها التنين الشرير.

وفى ٧ ديسمبر ١٨٧١ وضع بليس والاخوان دودج حجر الأساس لحرم الكلية، والكلمات القليلة التى تفوه بها أمام الجمع الصغير ستصبح بعد ذلك مجسدة فى حوليات الاستعراب بل تكتسب قوة مع مرور السنين، ولاعجب ففى ذلك اليوم حدد بليس معالم رؤية الكلية السورية التى لم تكن تمثل خلاصة لروح الإنصاف والمساواة التى تطلعت اليها اليقظة العربية فحسب، بل كانت إرهاصا للروح الدولية التي دعا إليها الرئيس ويلسن: «إن هذه الكلية تفتح أبوابها لكل البشر من مختلف الأوضاع والطبقات دون نظر إلى لونهم أو جنسيتهم أو أرومتهم أو ديانتهم، من حق إى إنسان أبيض كان أو أسود أو أصفر أو حتى بغير ديانة أن يدخل إلى هنا وينعم بكل مزايا هذا المعهد لثلاث أو أربع أو حتى ثمانى سنوات ثم يخرج وقد آمن برب واحد أو بغير ذلك. لكن سيكون من المستحيل علي أى أمرىء أن يواصل مسيرته معنا دون أن يعرف أننا نؤمن بالحق ويتعرف على أسباب هذا الإيمان».

بعبارات أخرى فبرغم أن المبشرين كانوا مستعدين فى نهاية المطاف للاعتراف بفشلهم إزاء تحويل اليهود والمسلمين والمسيحيين المشارقة إلى المذهب البروتستانتي إلا أنهم كانوا

مصممين أيضا على تحقيق فوزهم على الساحة العلمانية من خلال ما عملوا عليه من زرع القيم البروتستانتية فى مجتمع سوريا الكبرى وهى القائمة على الديمقراطية والعمل الشاق وحرية البحث الفكرى.

وتكشف الأمر بعد سبعة عشر عاما من المحاولة عن أن اقتصار التعليم على اللغة العربية كان أمرا غير عملى، ويرجع هذا أساسا إلى استحالة الحصول على كتب علمية مستحدثة بتلك اللغة، وبرغم أن الانجليزية أصبحت منذ ذلك الحين لغة التعليم الاساسية، فإن دروس العربية ظلت جزءا من منهج التعليم بما أزكى من روح الديمقراطية والقومية داخل الكلية السورية البروتستانتية وقد تبددت نتائج هذا كله فى القرن العشرين الذى تلاه.

أدرك بليس أن الشرق فيه «الذاكرة مكتملة وشديدة النضوج» لدرجة متقدمة للغاية ولكن هذا الأمر لايصدق فى نفس الوقت على العقل والمنطق. إن حشو أدمغة الطلاب بالحقائق لم يكن هو مايحتاج اليه العرب. كان نجاح الكلية أو فشلها يتوقف على قدرتها على تعليم طلابها كيفية تنظيم الحقائق وتفسيرها. لم يكن ثمة طريقة حقيقية لانجاز هذا الأمر على نحو ما عرفه بليس إلا بإجبار الطلاب على التفكير بصوت عال فى الفصل مع العمل فى

الوقت ذاته على تبيان أوجه التناقض فى تفكيرهم ثم تشجيعهم على حرية المناقشة حول كل قضية. فى هذا الصدد يقول ستيفن بنروز إن بليس «كان يتمتع بقدرة نادرة على الوصول إلى أدمغة طلابه، تلك العقول الشرقية الصميمة التى تفكر بالصور والحكايات. كان أستاذا فى أحكام التصوير وكان نموذجا لا يبارى يحكى القصة ثم يستخلص منها الموعظة، وتلك كانت طريقة المسيح عليه السلام فى التعليم.

بطبيعة الحال كان من الصعب قياس التقدم المحرز فى هذا المضمار. لقد سأل بليس نفسه فى عام ١٩١٢: من الذى صنع الكلية؟ وكانت الاجابة جديرة بأن تجرى على نسق إجابة توبسى فى كوخ العم توم عندما سألوها من الذى صنعك ياتوبسى؟ فأجابت: «لا أدرى، لقد ألفيت نفسى موجودة هكذا».

الكلية البروتستانتية السورية، وهى من إبداع دانييل بليس، ربما تكون أبلغ الأفكار وأكثرها تأثيرا فى تاريخ المعونة الأجنبية. فلم يكن الأمر يقتصر على أنها كانت مشروعا حميما فى الأساس لتمرير خلاصة القيم الغربية إلى العالم العربى عبر الزمن، ولكنها ظلت تمثل رمزا جماليا دائما لأمريكا فى المنطقة ، وكأنها نصب تذكارى لاينطوى على أى تهديد لسيادة أحد هنا أو هناك. بل فى واقع الأمر أصبحت الكلية عنصرا من عناصر تعزيز السيادة

العربية. وفى هذا المجال، يقول ديفيد ستيورات دودج. الذى كان جده الأعلى أول رئيس لمجلس أمناء الكلية الأمريكية.

«عملت الكلية على نشر مناخ من التفكير الحر والحوار المفتوح مما كان مهادا ولدت فى رحمه القومية العربية وأتاح للقومية العربية أن تتطور وبوسعك أن تقول أن القومية العربية نشأت فى أحضان هذه الكلية».

ودرو ويلسن (الرئيس الأمريكى الشهير) كان فتى فى الثامنة عشرة فى كلية دابتسون فى نورث كارولينا عام ١٨٧٤ عندما نشط الاساتذة والطلاب فى كليتهم فى بيروت، لكن الرمز الأكبر لحلمه الدولى فى تقرير مصائر الشعوب. وقد انبثق وسط رماد حقبة ونظام استعمارى زائل كان بالفعل قد أصبح قائما.

فى السنة نفسها، انتقلت مدرسة ريفية يديرها اليسوعيون الى بيروت وأعيدت تسميتها باسم الكلية اليسوعية. ثم أصبحت جامعة القديس يوسف الفرنسية، وبعد الحرب العالمية الأولى غيرت الكلية السورية اسمها لتصبح «الجامعة الأمريكية فى بيروت» وتذيع شعبيتها تحت هذا الاسم. وعلى مدار عشرات السنين ستظل المنافسة محتدمة بين الجامعة اليسوعية والجامعة الأمريكية فى بيروت لدرجة أن كلتا المؤسستين ستصبحان رمزين للبنان ذى القطبين المتعارضين: الجامعة اليسوعية رمزا للقلب الثقافى

والايديولوجى للبنان إذ يرى نفسه فرنسيا ومارونيا ومؤيدا لاسرائيل وغربيا، لبنان الذى يرى فى نفسه سليل فينيقيا القديمة وينظر من علٍ إلى حد بالغ الى الجماهير العربية المسلمة، ثم من ناحية أخرى الجامعة الأمريكية فى بيروت التى أصبحت قلب اليقظة القومية العربية النابض التى ترى لبنان جزءا لايتجزأ من بلاد الشام ومن العالم العربى الأكبر، عالم جاءت دولة اسرائيل لتصبح بمثابة تذكرة مستفزة له بحقبة الاستعمار البريطانى، تماما كما أن لبنان المارونى السيطرة سيصبح رمزا للاستعمار الفرنسى.

وبالإضافة الى الفرنسيين والامريكيين كان للبريطانيين والروس والألمان والأسبان والايطاليين مدارسهم ونفوذهم المصاحب لها على قطاعات متنافسة من سكان سوريا الكبرى (المدارس البريطانية لها نفوذها على الدروز)، (والروس نفوذهم على أبناء الكنيسة الارثوذكسية الشرقية، وما إلى ذلك). وعليه فالأجانب الذين جاءوا بقيم غربية إلى العرب وخاصة قيم القومية الحديثة كانوا فى الوقت نفسه، ومن عجب، يعززون الانقسامات العرقية والسياسية العميقة داخل مجتمع سوريا الكبرى، مما حال بين منطقة سوريا وبين ان تصبح بحق أمة حديثة. أما جامعة بليس الامريكية فى بيروت، فبرغم منجزاتها البارزة فإنها كانت

على وشك أن تجتاحها دراما تاريخية كبرى لم يستطع المبشرون للأسف أن يفهموا بحق أبعادها ومراميها.

في عام ١٩٠٣ كان دانييل بليس قد شارف على الثمانين من العمر، فسلم مقاليد رئاسة الكلية السورية الى ابنه هوارد سويتسر بليس وكان كاهنا ولد فى موقع أبيه التبشيرى فى بلدة «سوق الغرب» ثم تعلم شأن أبيه فى كلية امهرست بأمريكا. ومثل أبيه ايضا فإن هوارد بليس قبل أن يعود إلى مسقط رأسه فى لبنان اكتسب خلفيته الأمريكية عندما علم سنتين فى مدرسة توبيكا فى كانساس فى أوائل ثمانينات القرن الماضى.

فى عام ١٩١٠ صاحب هوارد بليس (الابن) اثنين من التوائم هما بايارد وكليفلاند دودج فى أول زيارة فيه إلى بيروت. كانا حفيدين لواحد من الأعضاء الأصليين بمجلس أمناء الكلية، وكان كل منهماً يبلغ ستة أقدام طولا ويتسم بالنحافة والوسامة وبعينين بهما زرقة خفيفة، وكانا قد تخرجا للتو من جامعة برنستون وانطلقا فى رحلة حول العالم عندما ذهب بليس الابن الى مصر ليحضرهما.

جريس دودج ابنة بايارد دودج مازالت تتذكر تماما أول نظرة ألقاها أبوها على بيروت عندما وقف عند مرسى السفينة يطل على بحر شديد الزرقة: ساعتها اجتاحه الاحساس بأنه يضع أقدامه

على ساحل بلاد كنعان القديمة المفضية الى فينيقيا مرورا بيافا وصور وقيصرية وصيدا. أخيرا التقطت عيناه مرأى أشرطة صفراء هى السواحل وتنهض وسطها منارة بيروت وإذ اقترب من الميناء اشار هوارد بليس إلى حرم الجامعة فى مبانيه التى تحفها هالة سندسية ندية وترصعها أشجار الارز الشديدة الخضرة وينهض وسطها برج حاد الزوايا علما على ساحة الجامعة الرئيسية.

ما أجمل العالم وما أحفله بالأمل وخاصة فى الشرق الأوسط! هكذا بدا الأمر فى تلك اللحظة المشمسة بالنسبة لعائلتى بليس ودودج ولجميع الامريكيين الآخرين الذين يعيشون فى بلاد العرب. إن التصريحات النارية لقيصر ألمانى وتعبئة الجيوش عبر جنوب اوروبا وما عمدت اليه النمسا فى أونة أخيرة من ضم البوسنة، كل هذا بدا فى عيون الجالية الامريكية فى بيروت وكأنه أحداث لا اتصال بينها تنتمى الى بيئة أشد برودة وأكثر قتامة بفعل بعد المسافة فضلا عن انعدام الصلة مع ماهم فيه، بل إن ثورة تركيا الفتاة التى سبقت قبل عامين ظلت تنطوى على أمل بامبراطورية عثمانية تأخذ بأسباب ديمقراطية يستطيع فيها رعاياها من الشعوب كالعرب أن يعيشوا بسلام وقد طمحوا بالحلم الى الحكم الذاتى.

«كانت تلك سنوات من التفاؤل العظيم الذى ساد صفوف المبشرين أملا فى أن يفسروا القرائن المتناثرة لكى تعنى أنهم استطاعوا فى نهاية المطاف أن يجتازوا الحواجز الى عالم الاسلام لكى تصل كلمتهم إلى جماهير مسلمة أوسع نطاقا».

هكذا يلاحظ جون دينوفو وكان واحدا من كوكبة من الاساتذة الذين يتعاملون مع الأمريكيين فى بداية القرن بالشرق الأوسط هو يضيف إلى ذلك قوله «كان كثير من المبشرين يحلمون بالتأكيد بأن ثمة فجرا جديدا فى طريقه الى البزوغ، إذ كانوا يتنبأون بتحويل المنطقة الى الانجيلية بمعنى تحويلها الى القيم البروتستانتية الأمريكية».

وكان بوسع المبشرين أن يتصوروا هذا الأمر باعتبار أنهم كانوا – ربما بأكثر من الأوروبيين بل وأهل المنطقة أنفسهم – قوة هادية خلف كواليس الاحداث فى تطوير المؤسسات الحيوية بمنطقة سوريا الكبرى. كانت أول مطبعة عربية فى تلك المنطقة هى مطبعة المبشرين الامريكيين التى جاءوا بها إلى بيروت من مالطة سنة ١٨٣٤ مستخدمة بنطا طباعيا طوره إيلى سميث فأصبح يعرف فى سوريا الكبرى باسم العربى الامريكانى. وكانت أول رابطة ثقافية قومية عربية وهى الجمعية السورية للفنون والعلوم، وقد انشئت عام ١٨٤٧ هى أول مشروع مشترك بين أبناء المنطقة

وبين المستعربين من المبشرين الامريكيين الأوائل ومنهم إيلي سميث وكورنيليوس فان دايك. إن ابراهيم اليازجي، وهو ابن واحد من مؤسسي الجمعية المذكورة كتب ما أصبح يعرف بأول نشيد قومي عربي يظهر بالحروف اللاتينية والعربية بعنوان «تنبهوا واستفيقوا أيها العرب». وهو يزين صفحة غلاف كتاب «يقظة العرب» لجورج انطونيوس الذي استوحي عنوانه من النشيد، ويشير انطونيوس كذلك إلى «أن أول جهد منظم في حركة القومية العربية يمكن إرجاعه الى عام ١٨٧٥ عندما قام خمسة شباب تعلموا في الكلية السورية البروتستانتية في بيروت بتشكيل جمعية سرية».

وبحلول عام ١٩٠٠ للميلاد كان الأمريكان يتولون تشغيل ٩٥ مدرسة في منطقة سوريا الكبرى ويعلمون ٥٣٠٠ طالب. وكان من الجهود المرموقة لدى سكان المنطقة بصورة عامة تلك المساهمات التي أسداها الامريكيون في مجالات الطب والاغاثة. ففي عام ١٩٠٨ وهي السنة التي نشبت فيها ثورة تركيا الفتاة، قامت الدكتورة ميري إيدي ابنة أحد المبشرين في كلية ويليامز بافتتاح اول عيادة قرب بيروت لمعالجة مرض السل في الامبراطورية العثمانية. وفي غضون سنوات قلائل أصبح المبشرون الامريكيون يعالجون ٤٠٠٠٠ من المرضى سنويا في مستشفيات وعيادات

متناثرة فى كل انحاء الامبراطورية العثمانية. هكذا قدر لمدرسة الطب التابعة للكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الامريكية فى بيروت) التى فتحت فى عام ١٨٦٧ ومدرسة الصيدلة الملحقة بها التى افتتحت عام ١٨٧١. أن تصبح محورا لخدمة أولية للإرشاد الريفى أدخلت الطب الى القرى العربية. وبدلا من الطلاب الستة عشر الذين افتتح بهم دانييل بليس الكلية، أصبحت تضم ٦٠٠ من الطلاب جاءوا من جميع أنحاء العالم العربى، كانت نسبة متزايدة من الطلاب مسلمين ممن أصبحوا فى الشرق الأوسط فى مواقع القيادة فى مجتمعاتهم. وكان هذا يصدق بخاصة على خريجى مدرسة الطب. وكم من طبيب فى قرية، وهو ذلك الشخص الذى يتطلع اليه أفراد مجتمع بكل احترام، يدين بمكانته تلك إلى تعليمه الأمريكى الذى كان آية على تميز سرعان مايعرفه ويعترف به كل مخالطيه. وعندما بدأت شمس القرن التاسع عشر فى المغيب. كان الامريكيون باستثناء بقاع قليلة فى الأرض الاجنبية عنهم، يبدون فى عيون السكان المحليين فى إهاب من النقاء والكمال. ويصدق هذا بخاصة على منطقة الشام.

على أن وجود الأمريكيين فى تركيا وغربى إيران كان أوسع نطاقا. فالمهمة التى بدأت عام ١٨٣٠ على شكل مخاطرة أقدم عليها أوتيس دويت وإيلى سميث عندما ارتادا جبال النساطرة

سرعان ماتوسعت فى عام ١٩٠٠ للميلاد لتشمل ١٤٩ محطة تبشير تضم ٢٠٦ من المبشرين الامريكيين و١١٥٠ من المساعدين من أهل البلاد وكانوا يديرون تسعة مستشفيات ويعلمون فى ٥٤٢ مدرسة كانت تقدم تعليما علمانيا (غير لاهوتى) لما يقرب من ١٧٠٠٠ من الطلاب الأتراك والايرانيين والافراد والنساطرة واليهود وغيرهم. وقبيل نشوب الحرب العالمية الأولى، ارتفع هذا الرقم الى مايزيد عن ٢٥٠٠٠ تلميذ ★ ، فاذا ما سعد الحظ شابا فى قرية بشرقى الاناضول او غربى ايران لكى يحصل على تعليم لائق فى تلك الفترة فالارجح أن كان مدرسوه من المبشرين الامريكيين من الكنيسة الابرشية أو الكنيسة المشيخية.

أما العملية الامريكية فى مصر، التى كان يديرها المشيخيون من البروتستانت، فكانت تقارب نظيرتها فى تركيا وايران من حيث الاتساع حيث تولى المبشرون تعليم ١٤٠٠٠ تلميذ فى مائتى مدرسة. وعندما افتتح المشيخيون كلية البنات الامريكية فى القاهرة عام ١٩١٠ لم تكن الشخصية التى ترأست حفل قص الشريط بأقل من تيودور روزفلت، الرئيس الأمريكى الأسبق، الذى

★ لا تشمل هذه الإحصاءات مدارس الأحد والمراكز اللاهوتية التي كان يديرها المبشرون .

كان عائدا لتوه من رحلة فى أدغال افريقيا كان يصطاد فيها الفيلة.

ثم كانت هناك الجزيرة العربية ذاتها، ذلك الربع الخالى الحافل بالرمال الذى كان يمتد فى كل مكان جنوب هضبة سوريا الجبلية. فى عام ١٨٨٩ قام مبشران مدعومان من الكنيسة الاصلاحية الهولندية هما صمويل زويمر وجيمس كانتين بتنظيم بعثة الى كل أنحاء شبه الجزيرة العربية. استفاد الرجلان بحق من حركة التبشير فى الشرق الأوسط عندما بدأت تكتسب قوة دافعة مع بداية القرن العشرين، وما كان أحدهما من صفوة نيو انجلند الشهيرة (الواسب - نخبة البيض فى الولايات المتحدة) ولا كان خريجا لاحدى جامعات القمة فى أمريكا، بل كان زويمر ابن مهاجر هولندى من ميتشيجن وكان أبوه وأكبر اخوته مستخدمين متجولين لحساب الكنيسة الاصلاحية الهولندية فى كل الولايات الامريكية فى منطقة الغرب الأوسط والاطراف. ثمة أخ ثالث كان رائدا تبشيريا فى مناطق داكوتا الامريكية الموحشة. ويدعى زويمر أن والديه «نذرانى للخدمة الخارجية قبل أن أولد» وانه وصاحبه كانتين المنتمى الى منطقة جبال كاتسكيل فى نيويورك «كانا مقتنعين تماما بأن الله يريدهما فى بلاد العرب». وبعد فترة قصيرة أمضياها فى بيروت لدراسة العربية استقلا

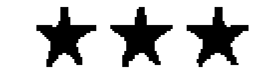
باخرة الى ميناء عدن اليمنى عاقدين العزم على تحسس احوال البلاد بغير دليل فى يدهما سوى كتاب أشعياء. وإذ دخلا الى حى عدن الوطنى المحاط بالاسوار الذى كان يمثل أول تجربة لهما فى بلاد العرب فقد أصيبا على الفور بالملاريا على نحو مايقول كانتين. مع ذلك كانت كلمات الرب العبرانى الى أشعياء هى التى دفعت كانتين الى تصور أن مشروعهما سيحقق النجاح حيث تبشرهما بأنهما «سوف يجولان فى المدينة سبع مرات ثم تسقط من حولهما أسوار المدينة» ★ .

كان كل من زويمر وكانتين بحق مؤمنا ورائدا وجنديا من جنود الرب بكل معانى الكلمة. على مدى خمسين عاما، من عام ١٨٨٩ وحتى نشوب الحرب العالمية الثانية ظلا مندفعين باخلاص وتكريس جيئة وذهابا شمالا وجنوبا عبر سواحل الجزيرة العربية من بغداد فى منطقة مابين النهرين نزولا الى أهوار دجلة الحافلة بالبعوض فى البصرة وهى وطن السندباد البحرى الاسطورى عند فم الخليج العربى، ثم من الكويت وغيرها من المشيخات الى مسقط مع الالتفاف حول خليج عمان الى عدن عند مدخل البحر الأحمر.

★ قاما بإصدار كتاب مشترك بعنوان «معالم الطريق الذهبية» .

في تلك الموانيء والقرى الحافلة بالعرق والهوام، أمضى زويمر وكانتين سنوات النضج من حياتهما دون خدم للمعونة وبغير مغريات المزايا التى كانت ترطب حياة الابرشيين والمشيخيين من كنائس نيو انجلند الذين كانوا ينعمون بالبيئات الحضرية فى بيروت والقاهرة. كم من ليلة أمضاها الرجلان «يطالعان الاسفار الدينية بالعربية على ضوء شمعة خافت وسط أمتعة ودواب فى خان مشرقى» كم ناما على متن القوارب وكم سكنا غرفات متسخة فى أكواخ من الطين وكثيرا ماكانت تنتابهما الأمراض وهما يعيشان حياة أقرب الى الهيبى. وإن نعما بسعادة لمدة أسابيع عندما كانا ينجحان فى نهاية مطاف فى اقناع اعرابى بأن يقبل نسخة من الكتاب المقدس ناهيك عن أن يصطحبها الى بيته. وخلال جميع السنوات التى تشهد فشلا يوميا، كان يعينهما دائما الأصحاح الأول من كتاب أشعياء حين يقول: كل بقعة تطؤها قدماك سوف نعطيها لك.

فإلى جانب شبكة المدارس أرسى الرجلان الأساس لخمسة مستشفيات تبشيرية سوف تعالج يوما ما ٢٣٧٠٠٠ مريض فى السنة فى منطقة الخليج العربى، ولسوف يقدر لابن «السفير» بيل ستولفوز أن يولد فى الكويت فى مستشفى كان جزءا من تلك المزايا التى قدمتها الكنيسة الاصلاحية الهولندية.



هكذا أتاح هوارد بليس لابنى عـائلة دودج أول رؤية لبـيـروت ولبنان حيث كـانت الرؤية حافلة بالوعد والبشرى. بدا البروتستانت الامـريكيـون وكـأنهم مـوشـوكـون على قطـع الطريق على مـسـيـرة الاستعمار والامبريالية بعد أن شيدوا مؤسسة ترمز الى الخير والنفوذ على شواطىء استراتيجية اجنبية وفعلوا ذلك من خلال اعمالهم الطيبة لاغير. وكان الرئيس تيدى رزفلت فى أمريكا من بين أكبر مساندى الجامعة الامريكية الجديدة المتحمسين. ثم قيض لهؤلاء المبشرين صديق آخر فى البيت الابيض عندما أصبح ودرو ويلسن رئيسا لأمريكا عام ١٩١٣ وهو ابن قسيس مشيخى وصديق قديم لابن كليفلاند دودج. فضلا عن كونه من أصحاب النزعة الدولية الداعية الى حق تقرير المصير.

هكذا شعر الامريكيون فى بلاد الشام وقتها أن الوقت لن يطول بالعرب إلا ويخلصون أنفسهم من براثن الاتراك وأحابيل الفرنسيين. بل ساد التصور أن يوما ما سيأتى فى المستقبل فإذا بالميادين العامة فى بيروت ودمشق تطلق عليها اسماء من قبيل دانييل بليس وإيلى سميث وغيرهم ممن قدموا للمنطقة تعليما غربيا وكتبا باللغة العربية بل وأتاحوا سبل قيام القومية العربية لصالح العرب. هنالك لاحت بشائر تركيبة ثقافية وتفاعل حضارى وكما كتب هوارد بليس نفسه يوما فإن المشاركة «مع أهل الشرق

فى أفضل ما لدينا بالغرب. معناها أن الغرب سيفوز بدوره بأشياء كثيرة ليس أقلها الصوفية الكامنة فى عقائد الشرق».

بعد ذلك جاءت نهاية يونية ١٩١٤ حين قام واحد من صرب البوسنة ممن كانوا يعارضون ضمها الى امبراطورية النمسا باغتيال الارشيدوق فرانز فرديناند ولى عهد الهابسبرج (حكام النمسا والمجر) وبدأت الحرب العالمية الأولى فوضعت المشاكل وعلاقات القوى فى العالم الحديث ولأول مرة على أعتاب الأراضى المقدسة. هكذا حلت أول كارثتين فادحتين ما لبثت أن انفجرت شظاياهما فوق رءوس الرواد من رجال الوعظ والتربية والتعليم والاغاثة فغيرت من نظرة العرب إليهم كما بدلت من نظرتهم هم أنفسهم الى العرب. فضلا عن تبديل الطريقة التى كان سائر الامريكيين ينظرون بها الى بنى جلدتهم العاملين فى منطقة الشرق الأوسط.

الفصل الثالث

الانجليزي مجنون الصحراء

فى ٢٧ يولية عام ١٩١٦ توفى دانييل بليس، كان قد شارف على الثالثة والتسعين، وقبل وفاته بسبعة أسابيع، أطلق الشريف حسين فى مكة رصاصة بندقيته من النافذة في بيته صوب ثكنات الجيش التركى القريبة وبهذا بدأت الأحداث التى تسمى بالثورة العربية ضد الأتراك العثمانيين.

وبينما كانت أسرة بليس وأصدقاؤه يحضرون مراسم الدفن في مقابر بعثة التبشير فى ضواحي بيروت، كان توماس إدوارد لورانس. دارس العربية البالغ من العمر سبعة وعشرين عاما الذى تخرج من اوكسفورد. قد كلف من جانب المخابرات العسكرية البريطانية فى القاهرة بالابحار عبر البحر الاحمر الى ميناء جدة ليستطلع آراء الشريف حسين وأبنائه بشأن عقد محالفة مع البريطانيين كان هدفها طرد الاتراك الموالين للألمان (خصوم بريطانيا فى الحرب العظمى الأولى من منطقة الشرق الأوسط.

من بين الأغراض التى حملها لورانس بين أمتعته مجموعة من مجلدين من كتاب تشارلز دوتى بعنوان «رحلات فى صحارى بلاد العرب» وكان مؤلفه هو البريطانى الوحيد الذى استطاع أن

يخترق دواخل غرب الجزيرة العربية حيث كان لورانس قد يمم وجهه شطرها. وكان لورانس قد اشترى الكتب حديثا من صمويل زويمر المبشر التابع للكنيسة الاصلاحية الهولندية الذى كان فى فترة استجمام بالقاهرة بعد جولات خاصة به طاف فيها الجزيرة العربية والتقى صدفة مع لورانس.. وقد قيل بعد ذلك أن لورانس حفظ مجلدى دوتي عن ظهر قلب. وبرغم أن تلك مبالغة بغير شك فإن لورانس نفسه كان مايفتأ يشير الى الكتابين بوصفهما انجيله فى التعامل مع العرب.

لورانس بطبيعة الحال قدر له أن يكتب مذكرات حازت شهرة أوفر بعنوان «أعمدة الحكمة السبعة» ولسوف يتبعها كتابات أخرى لبريطانيين عاشوا فى الجزيرة العربية منهم من لم يستطع التحدث بالعربية أو فهم العرب بأكثر مما فعل أسلافهم مثل صمويل زويمر أو إيلى سميث أو دانيل بليس. لكن هؤلاء البريطانيين كتبوا عن تجاربهم بمهارة أكثر ورشاقة أبلغ وكانوا بهذا مختلفين عمن سبقهم. لم تكن المسألة مجرد انتفاضات سياسية يغرق الوافدون الامريكيون الى الشرق الاوسط فى لجتها ويخضعون لتحولاتها، ولكن الأمر كان يتصل بالابداع الأدبى أيضا.

من هؤلاء الرحالة الانجليز الرومانسيون الذين وصفهم لورانس ذاته بأنهم «عصبة من المغامرين بغير حدود؟ كيف وجدوا

أنفسهم فى المواقع المؤثرة التى عاشوا فيها؟ وماذا كان بالضبط تأثيرهم على أقرانهم الأمريكيين؟».

لقد كان المبشرون الأمريكيون من أمثال صمويل زويمر وجيمس كانتين يجهدون فى تمرير الأناجيل فى الجزيرة العربية عند بدايات القرن فى حين أن كان هناك الانجليز الذين عكفوا على تعزيز هيكل قوة وسلطة على المستوى الاقليمى ليحمى الطريق البحرى المفضى الى الهند البريطانية.

نابليون بونابرت هو أول من أفضت أعماله الى التعجيل بالمصالح البريطانية فى الشرق الأوسط عندما هدد بشن هجوم على الهند انطلاقا من مصر التى احتلتها قواته فى الفترة من ١٧٩٨ الى ١٨٠١. وبعد مائة سنة من ذلك التاريخ، وعندما جاء قيصر ألمانيا ليهدد الهند، كانت قبضة بريطانيا على الجزيرة العربية هى التى دفعت ويلهلم الثانى (غليوم) الى الذهاب لتركيا والى التخطيط لانشاء سكة حديد ألمانية عبر آسيا الصغرى الى بغداد. هذه المزية الاستراتيجية فضلا عن الحاجة الى النفط التى طرأت على حياة هؤلاء القوم مجددا، هى التى أعطت لبريطانيا قوة دفع فى الجزيرة العربية لكى توسع نفوذها شمالا حتى يصل الى سوريا الكبرى ثم بلاد مابين النهرين (العراق).

هكذا جاءت الامبريالية بالانجليز الى الشرق الأوسط حيث هيأوا أرضية اسطورية من الثقافة والحضارة الوطنية التى كفلت لهم استراحة يأخذونها من حياتهم التى استبدت بها الآلة فى مجتمع (أوربى) كان يخضع وقتها لعاصفة من التصنيع السريع. يلاحظ الكاتب الانجليزى ديفيد برسى جونز أن «الخيال البريطانى كان أسير نزعته الفريدة والمتأصلة التى تقول بضرورة صون واعزاز كل ماهو مختلف وكل ماهو فاتن الجمال» بعبارات أخرى فإن العقل البريطاني يأسره جمال مخيمات البدو بقدر مايأسره جمال حديقة يانعة فى وطنه. وكما أن الحديقة بحاجة الى عناية وتشذيب بانتظام، فإن صور الخيام وأهل العباءات المسدلة الذين يدبون على مهاد الرمال تحتاج الى تفاصيل من صقل وتصوير فى ابداع الكتابة الوصفية.

ثم جاءت مسئوليات الاستعمار لتعزز هذا اللون من النشاط. فلكى تستطيع السيادة على مقاليد أهل البلاد عليك أن تفهم حياتهم وتتكلم لغتهم. هذه العملية أدت الى فهم وتقدير لكلا الجانبين - الحياة واللغة ولأن الدول العظمى الأخرى مثل فرنسا وألمانيا وروسيا كانت تنافس بريطانيا على مقاليد النفوذ فى تلك المنطقة المشبعة بالاساطير، احتاج الأمر الى كثير من الدهاء، وهذا يعنى القدرة على أن تندس بين صفوف أهل البلاد دون ان

يلحظك أحد وأن تتصرف كأنك واحد منهم، وذلك كى تعرف ما الذى يدور هنا أو هناك. وكم كانت تلك المحاولة قريبة من نفوس شرائح بعينها من الطبقات العليا بين الانجليز الذين كانت تراودهم نزعة الغرابة والتفرد، ولهذا فإن قصة «كيم» التى كتبها رأديارد كيبلنج حول التجسس وحول التزيى بزى المواطنين المحليين فى الحدود الشمالية الغربية من الهند البريطانية ينظر إليها بوصفها أعظم عمل فنى من انجازات الاستعمار.

ليس هناك شخصية فى رواية «كيم» تستأثر بقوة بالخيال وتجسد غرابة الأطوار التي شجعها الاستعمار مثل شخصية «لورغام صاحب» البقال الداهية الذى يمكن ان يراه الناس كأنه هندى او كأنه ينتمى الى جنسيات مشرقية أخرى والذى تعلم منه الصبى الايرلندى الابيض «كيم» دروس حرفة الجاسوسية بين الكتب القديمة والابسطة الشرقية واقنعة عبادة الشيطان وتماثيل بوذا المذهبة وعجلات الصلوات فى التبت وغير ذلك من آلات الايقاع . ويقال ان «لورغان» وغيره من الشخصيات فى رواية «كيم» تقوم كلها بدرجات شتى على أساس رجل واحد يقف تجسيداً ورمزا حيا على الغزو البريطانى فيما وراء البحار فى فترة القرن التاسع عشر وهذا الرجل هو السير ريتشارد فرانسيس بيرتون.

ريتشارد بيرتون كان «أسمر البشرة أنيقا، عيناه كعين الفهد، وحركته مثل وحش مفترس له جبهة معبود وفك شيطان» وكان يتكلم تسعا وعشرين لغة بالاضافة الى مجموعة متنوعة من الرطانات واللهجات أتاحت له أن يمضي دون أن يلحظه أحد بوصفه أفغانيا فيدخل الى مكة المحرمة على سواه ثم يدخل الى منطقة نهر الانديز بوصفه عاملا من الغجر وسط عصابة من العمال - كل هذا أضفى على بيرتون اسم الزنجي الابيض. وقد اكتشف بيرتون الكاماسوترا، ذلك الكتيب الذى يتناول فنون الجنس الهندية، وقاد أول حملة أوربية الى قلب افريقيا لكي يصل الى منابع النيل واستكشف دواخل البرازيل ودخل الى مدينة هرر المحرمة فى الحبشة والساحل الغربى لافريقيا وترجم من العربية كتاب ألف ليلة وليلة. ومع ذلك كان أكبر وأول عميل سرى للتاج البريطانى وتلك مهمة أتاحت له القيام بانشطته الكثيرة الأخرى.

وخلال حياة بيرتون المتنوعة ظلت الجزيرة العربية والاسلام معلمين هامين الا انه بالاضافة الى بيرتون العربى كان هناك بيرتون النيل وكان هناك أيضا أكثر من بيرتون فى حياة ذلك الرجل، هذا هو السبب الاساسى الذى يبرر إنه برغم الاشارة إليه بوصفه أول وأعظم مستعرب بريطانى فإنه لم يكن هذا وذاك فى واقع الأمر. اذ لم يكن بيرتون مهووسا فى يوم من الأيام لا

بالعرب ولا بالجزيرة العربية لدرجة ان يستبعد ماعداهم من مناطق وتخوم من خياله. وبعد زيارته مكة حول اهتماماته الى وسط افريقيا لأن جزيرة العرب لم تعد تقدم له شيئا اكثر من «اكتشاف الصحارى» وبالمناسبة فلسوف نرى ان الشغف الشديد بالعرب سيصبح خاصية تميز المستعربين بالدرجة الأولى.

في الشرق الأوسط أكثر من أى مكان في الامبراطورية البريطانية، عمل الخيال البريطاني وعملت الاستخبارات أيضا في اطار متشابك قوامه الافتتان والآثار واللغة والثقافة القبلية بشكل لم يسبق له مثيل. وهذه الظاهرة كانت تصدر عن أسباب عدة. فمن بين كل اصقاع الامبراطورية التى كان تحكمها بريطانيا العظمى فى أنحاء العالم، كان الشرق الأوسط من الناحية الجغرافية الأقرب إليها ومن ثم الأيسر في بلوغه. وفضلا عن ذلك فكما يوضح الباحث الفلسطيني ادوارد سعيد في دراسته بعنوان «الاستشراق» فإن ديار الاسلام تتاخم بل وأحيانا تعلو أراضي التوراة. كذلك فالعربية والعبرية لغتان ساميتان وكلتاهما تتناولان «مادة غاية الأهمية للمسيحية» وهذا هو الذى جعل الإسلام «عامل استفزاز» خطير وساحر بالنسبة للبريطانيين (ثم للمبشرين الامريكيين على السواء) كان استيلاء الاسلام على الأرض المقدسة هو الذى أفضى الى نشوب الحروب الصليبية، فضلا عن

ذلك كان الاسلام من الفطرة لدرجة أن يسهل فهمه بغير تعقيد (على خلاف اديان الهند أو افريقيا) ولكنه كان من الاختلاف بحد ذاته لدرجة تستعصى على من يفهمه من الخارج. كانت المسألة مثل حسناء فريدة أخاذة تتضوع أعطافها بأريج العطور وعبيرها يكاد يلفح أنفاس البريطانيين وكان هذا معناه أن لابد من السيطرة عليها.

وكان هناك شىء آخر لاسبيل الى تعريفه بالضبط شىء عن الصحراء بكل رتابتها الأخاذة والغريبة التى تنبت على مهادها أفكار الفراغ والعدمية بنفس القدر التى تعزز فيه أفكار النقاء والكمال. فى الصحراء ليس هناك مبنى ولا أى دليل على غرور الانسان: فيها الرمال تكاد تخنق الانفاس لكنها مثل فردوس من البراءة يانع مبسوط حيث كل شىء على حاله قبل وقوع الطوفان. جزء من تلك الصحراء هو الذى جذب أحبار التوراة وأنبياءها الى البرية بنفس القدر الذى يعود ليجذب رجالا ونساء ليسوا أحبارا ولا أنبياء لكنهم مندفعون بحس عميق من الجمال، هؤلاء هم المستعربون.

إن ت. لورانس يجسد أكمل نموذج على هذه المقولة، ففى كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» يروق له أن يسهب فى وصف أطلال فى شمال سوريا حيث تفوح رائحة الياسمين من غرفة فيما

يتصاعد اريج البنفسج من غرفة ثانية ورائحة الورد تفوح من الغرفة الثالثة لكن الغرفة التى اجتذبت وحركت مشاعر الدليل العربى الذى كان يقود لورانس ومن ثم لورانس نفسه، كانت الغرفة التى لم يكن يتصاعد منها سوى «رياح الصحراء المفعمة بفراغ بغير حدود، وتلك رائحة لايباريها شيء بالنسبة للانسان «إنها عبير اللاشيء، أفضل عبير على الاطلاق».

وبينما كان المستعربون الامريكيون يقعون فى حبائل سحر كتابات مثل مؤلفات لورانس وغيره من البريطانيين، فإن لورانس نفسه أثناء جولاته في الشرق الاوسط كان بدوره واقعا تحت سحر «رحلات فى صحارى بلاد العرب» وهو وصف من ١٢٠٠٠ صفحة لاوديسا استغرقت سنتين بين عامى ١٨٧٦ و١٨٧٨ فيما يعرف اليوم بالشمال الغربى من المملكة العربية السعودية كتبها أحد كبار خريجى اكسفورد هو تشارلس مونتاجو دوتى.

وهذا السفر الذى استغرق من صاحبه عقدا كاملا من الزمان لكى يكتبه يتسم بقوة وشمول بالغين من حيث تأثيره وقدرته على الاحاطة بشئون العرب وصحراء الشرق الأوسط لدرجة أن المرء لايستطيع التزيد فى تأثير هذا الكتاب على فكر المستعربين جميعا.

إن كتاب «رحلات فى صحارى بلاد العرب» هو الذى جعل من دوتى بحق أول وأعظم مستعرب بريطانى. أما ريتشارد بيرتون

فكان نسيج وحده. كان كنجم تفجرت نيازكه فى كل مكان وفى وقت واحد فلم يترك سوى فراغ أسود غداة الانفجار. ثم إن بيرتون جاء فى مرحلة مبكرة للغاية، وعندما توفى فى عام ١٨٩٠ كانت الامبراطورية التركية بالشرق الأوسط أمامها ستة وعشرون عاما أخرى من الحياة، ولكن كتاب دوتى بدأ حركة أدبية وسيكولوجية بين صفوف الغربيين قوامها الجاذبية نحو العرب وهذا ما لم يستطع أن يفعله بيرتون لا فى رحلة التنكر التى جاءت به الى مكة والمدينة ولا فى ترجمته لكتاب ألف ليلة وليلة. إن كتاب «رحلات فى صحارى بلاد العرب» أصبح ربما أكثر من مؤلفه ذاته شخصية مهمة لها اعتبارها فى حكاية الاستعراب، بل أن لورانس تمادى عندما كان يشير الى الكتاب فيطلق عليه كلمة واحدة بسيطة هى: دوتى.

جزيرة العرب التى شهدها دوتى ووصفها كانت بمثابة المختبر أو المحك الذى يمكن على صراطه اختبار وتشكيل شخصية الانجليزى،، إنها أرض من الآماد والفيافى الغريبة الممتدة بغير حدود ومن الربع الخالى الحافل برمال الرعب ومن الكتل الهائلة والأشكال المتكررة ذات التصاوير التى تكشر عن انيابها. إنها كون قائم بذاته يعكس قسوة العهد القديم حيث يقتل اللصوص ببطء حتى الموت، وحيث يجرد الموتى على قارعة الطريق من كل

مايملكون قبل أن يجودوا بآخر أنفاسهم، وحيث البشر يمشون الى مطهر من التعب المؤلم والمكدود وحيث لاتكاد تجد ما تأكله سوى الجراد أو ماتشربه سوى مياه تسبح فيها البغاث. في مدى عامين من التجوال بين حقول اللافا البركانية وبين ركامات لاتحوى بوصة من ظل يقي من هجير الشمس، ظل دوتى يتجول فيسرق بين حين وحين وتتقطع به السبل بغير زاد أو ماء ويتهدده الموت فى كل يوم تقريبا بسبب رفضه انكار ديانته المسيحية والدخول في الاسلام. وعندما يصل الى الحامية التركية فى مدينة الطائف فى نهاية رحلته المكدودة. يصف دوتى نفسه بهذه الكلمات:

«سترتى كانت بالية فوق كاهلى ، ومعطفى أصبح قديما ممزقا فيما تهدل شعرى حتى الكتفين ، وتدلت لحيتى شعثاء غبراء ، كانت عيونى فى حمرة الدم وقد كاد يعشى منهما البصر ، وبشرتى محرقة ومشققة فوق وجهى، أرسلوا إلى الحلاق وأعدوا الحمام وقدموا فنجانا من الشاى وكم جهد العقيد التركي الطيب فى أن يحولنى قدر الإمكان إلى ما يشبه أهل المدينة والحضارة» .

على أن نقد دوتى للعرب (الأعراب) نقد لاذع قاس : «فى قلوبهم الآسيوية غل يفوق ما تحويه القلوب من التدين» . وفى ثمانينات القرن التاسع عشر يتنبأ بأن أمم الإسلام التى تتصف

بفهم بدائى تتسم بدهاء الثعالب وتتصور عن قناعة أن المعرفة هى القرآن . وليس غيره لا تستطيع أن تسلك أى سبيل من بعد إلى الخير .

إن دوتى منذ البداية حتى النهاية يرفض مجرد فكرة التشبه بأهل البلاد المحليين بل ويحذر من أنه كلما طال الأمد على المرء وهو يعيش فى بلد مفعم بالأساطير تضعف لديه ملكة الحكم على الأمور وهو يعترف عن نفسه بقوله : «إن الشمس جعلتنى عربيا ولكنها لم تجذبنى إلى حيث الاستشراق» . ويلاحظ لورانس أن قوة هذا الكتاب إنما تكمن فى تمسك دوتى بجذوره كإنجليزى بصورة لم يكن على استعداد للتنازل أو التزحزح عنها . مع ذلك فالكتاب رومانسى وموقف لورانس كله منه موقف رومانسى أيضا على نحو ما كشفته المقدمة التى كتبها لدى إعادة طبع الكتاب عام ١٩٢٩ .

يصف دوتى رحلته بقدر من التباعد العاطفى الذى يميز العلماء ، لقد جاء مسلحا بدفتر وبارومتر وهو يعيد خلق بيئة بأكملها على نحو يثير الإعجاب بيئة جيولوجية ولغوية وثقافية وسيكولوجية ، إنه يصف مثلا جمال القمر وأهميته العملية للصحراء ويصف كيفية تسمية الفصيل من صغار الإبل حسب عدد أسنانه ويصف أنواع الصخور المصقولة والبازلت وغيرها من

تكوينات الصخور في الصحراء ويبرر السبب فى أن تحايا الرجال المفعمة إنسانية وهم فى البرية ما تلبث أن يجللها النفاق عندما تستورد تلك التحيات والمجاملات إلى المدن . وهنا على وجه التحديد تكمن الرومانسية . إن الصحراء بكل جمالها المهيب وبكل رعبها وبكل رتابتها ترسم لها صورة شاملة كاملة ، وهناك ما يتجاوز ذلك . إنها تقدم بأصواتها التى تستدعى إلى الخاطر ما سبق إليه إنجيل تندال المترجم فى القرن السادس عشر * . فأى قارئ لدوتى لا يمكن أن ينسى مثلا مشابهته للساميين فى الصحراء وكأنهم رجل يجلس فى عينيه قذى بينما تكاد جبهته تلامس النجوم . بل إن دوتى اعترف أنه إنما ذهب إلى بلاد العرب لأغراض شتى منها «أن يخلص اللغة الانجليزية من الرتابة والفهامة التى سقطت فى ربقتها منذ أيام الشاعر «سبنسر» .

لكن الذى حدث هو أن هذا الغرض الذى توخاه دوتى غاب عن الحسبان فالمراقب البارد المحلل الذى كان يحذر سواه من التوحد مع البيئة هو الذى تحول مع مرور الزمن إلى حكيم واثق من النفس كأنه الشخصية الرئيسية على مسرح ملحمة طولها بعمر الزمن حول بلاد العرب . إن هذه السهول المنبسطة فى تجريدها

* تندال المترجم كان مصلحا دينيا إنجليزيا وقد أعدم بتهمة الهرطقة .

وفى لا إنسانيتها التى طالما مارست أثرها على تغيير عقول البشر وشخصياتهم ما لبثت أن تحولت لأول مرة على يد دوتى إلى ساحة من ساحات الإبداع الأدبى مما جعل لها جاذبية وفتنة لا يستطيع المرء لها دفعا .

لورانس نفسه أشار إلى أن قسوة البيئة الطبيعية والبشرية هى التى جعلت من بلاد العرب كما رآها دوتى مقياسا من المعاناة تقاس به قدرة الرجال على الصبر والتحمل . هكذا وصف لورانس دوتى بقوله إنه خاض هذه التجربة بنفسه ، واجتاز اختبار البداوة بوصفها أقسى النظم الاجتماعية قاطبةً من حيث شظف العيش، وكم كنا محظوظين عندما عمد إلى رسم هذا كله فى ألوانه الحقيقية : حياة فى غاية الشظف ، الفراغ يحوطها من كل جانب ، وهى تنكر كل شئ لكنها تحتفل بشئ واحد هو جانب القوة والإرادة والتصميم فى شخصية البشر . وعندما مخر لورانس عباب البحر الأحمر من مصر إلى جدة . فى صيف ١٩١٦ وفى صحبته كتاب «رحلات فى صحارى بلاد العرب» كان مصمما على أن يخوض بنفسه ذلك الاختبار فى البلاد التى وصفها سلفه ، وبحكم طبيعة الاستعمار البريطانى فى الشرق الأوسط فى تلك المرحلة فإن هذه الرغبة الشديدة الخصوصية لم تقف حائلا دون ممارسة لورانس لمسئولياته المهنية إن لم تكن قد دفعت تلك المسئوليات إلى الأمام .

قبل أن يخلع على توماس إدوارد اسم «لورانس العرب» ، كانوا يعرفونه ببساطة على أنه نيد أو صاحبنا الصغير بسبب ضآلة حجمه . لكن هذا الصاحب الصغير على نحو ما يصفه «روبرت جريفز» كان يتمتع بقوة بدنية كبيرة ، وقد رآه البعض وهو يرفع بندقية على طول ذراعه ممسكا إياها من الماسورة إلى أن تصبح موازية للأرض . ثم لاحظ جريفز وهو أحد كتاب سيرة لورانس أن الجزء الأعلى من وجهه كان يتصف بملامح من الرقة تكاد تشبه ملامح أم ، فيما يتصف الجزء الأسفل بملامح جامدة تبوح بالقسوة ، وربما كان أكثر أوصاف هذا الرجل نفاذا بكل ما يحوطه من جدل وأساطير هو الذى صدر عن زميل له فى المكتب العربى البريطانى هو هارى سان جون فيلبى الذى وصف لورانس بأنه كان يجمع بين حساسية المرأة وبين خشونة الذكر .

هذا فى الحقيقة هو الذى جعل لورانس أيا كان الرأى فيه شخصية كبيرة . هذا الرجل الضئيل بأياديه وأقدامه الصغيرة كان قادرا على أن يتحمل تجربة رهيبة من شظف العيش كتلك التى تحملها دوتى من قبل ثم يكتب عنها بحساسية واهتمام بالتفاصيل على نحو خلب ألباب عالم ما بعد الحرب العالمية الأولى، وهو عالم كم كان يتوق إلى أن يرى تذكارا فرديا تضيئه أشعة الشمس وترطبه نزعة الرومانسية ، يتذكر بها حربا كانت

حتى ذلك الوقت معروفة بمشاهد الموت الجماعى لأفراد بغير أسماء وسط الوحل وأمطار الجليد المتجمد فى ميدان القتال فى الفلاندرز ★ .

وفيما أصبح كتاب دوتى عملا مجهولا إلا بالنسبة للخبراء فى الشئون العربية فقد أصبح كتاب لورانس بعنوان «أعمدة الحكمة السبعة» واحدا من أوسع الكتب انتشاراً باللغة الانجليزية مما جعل القوم يخلعون على مؤلفه - بمساعدة رجل الدعاية الأمريكى لويل توماس لقب «لورانس العرب» . بطبيعة الحال كان لورانس يتمتع بميزة واضحة على سلفه دوتى الذى وقعت مغامرته فى شمال غرب شبه الجزيرة العربية خلال فترة من الهدوء السياسى النسبى حيث كان التركى يغفو ولكن قبضته كانت شديدة على أقدار المنطقة وإن لم يدم ذلك طويلا. أما مغامرة لورانس فقد وقعت فى غضون اشتعال حرب عالمية مازالت اثارها محسوسة حتى الآن فى منطقة الشرق الأوسط مما يضفى أهمية دائمة على كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» .

على أن لورانس كانت له ميزة أخرى، أدبية هذه المرة، إن إنجليزية إنجيل المترجم كيم تنذال التى كتب بها دوتى كان يمكن أن تستأثر بإعجاب المتأدبين لكنها كانت غريبة على الجمهور العام. وفى حقيقة الأمر فالفقرات التى لا تنسى من كتاب «أعمدة

★ يقصد الحرب العالمية الأولى . «المترجم» .

الحكمة السبعة» تنطلق أساسا من وحى دوتى نفسه ، لكن لورانس استطاع أن يترجمها إلى لغة إنجليزية أبسط وأشد دقة لكى تستجيب للقارئ العادى المعاصر . كان تصور دوتى للعربى فى الصحراء أنه رجل كما أسلفنا يحمل القذى فى عيونه لكن جبهته تطال عنان السماء وهى صورة قال لورانس إنها تلخص تماما ما يتمتع به العرب من قوة وما يشوبهم من ضعف ، فضلا عن أوجه التناقض الغريبة فى تفكيرهم . ثم زاد عليها لورانس تحليلا ، ربما يعد أشهر تحليل قام به مستعرب غربى للعقل العربى وإن كان يعد ثاقبا عند قوم فيما يعد عنصريا عند آخرين :

«فى أول لقاء مع العرب تجد نفسك حيال وضوح كونى وثقة وطيدة فى المعتقدات تكاد تصل إلى أبعاد رياضية شديدة التحديد فيما تتخذ شكلا بعيدا عن كل تعاطف يشعر به البشر . كانوا قوما من ألوان بدائية أو فلنقل هم أهل الأسود والأبيض يطلون على العالم ضمن خطوط شديدة التحديد . هم قوم العقائد الثابتة يحتقرون التقاعس والتشكك ، والشك هو تاج الشوك الذى نعتز به نحن أهل العصر الحديث أما العرب فلم يفهموا مشاكلنا الميتافيزيقية ولا تأملاتنا الباطنية وإنما تركوا أنفسهم عند أقصى جانبى التطرف . هم يعشقو المبالغة باختيارهم ولم يرتضوا قط

أنصاف الحلول . إنهم يتبعون منطقا قوامه الآراء العديدة التى لا لقاء بينها ويصلون بالمنطق إلى أقصى الحدود دون أن يدركوا كم أن هذا غريب بل سخيف . لقد شقوا طريقهم بين رموز القبيلة والكهف على السواء» .

إن هذه اللغة الإنجليزية المستقاة من تقاليد أكسفورد وكمبردج التى كتب بها أعمدة الحكمة السبعة تبدو فى وقتنا هذا - أواخر القرن العشرين لغة غنية وجليلة فى حين أن كتاب لورانس يبدو بمقاييس سلفه دوتى إلى حد كبير نسخة موجزة مكثفة من كتاب «رحلات فى صحارى بلاد العرب» ومن أسف أن هذا أصبح اتجاها معتمدا ، فحركة الاستعراب بالبريطانى ، بوصفها نمطا ثقافيا فرعيا ، ظلت دائما محكومة بمقاييس الإبداع الأدبى ، والمشكلة أن الأدب ظل يتدنى باستمرار ليصبح أكثر شخصانية وأكثر اتجاها نحو الجانب السيكو - جنسى وأشد إيغالا فى الرومانسية جيلا بعد جيل ، إن لفظة «أنا» عند دوتى لا تنسى بسبب قوة شخصية دوتى نفسه التى تستمد أصولها من حكاياته التى رويت بكل تفصيل عن الصحراء . بيد أن «أنا» فى أعمدة الحكمة السبعة ، كما يلاحظ بحق البروفيسور إيلى قدورى «تتفق مع أعراف فن الدراما بمعنى البدايات الصغيرة العفوية وطرح

الرؤية عن الصـــحـراء وسنوات التنظيم والدهـاء فى رسم الخطط والقـتـال والإرادة ومـحـاولة إتقـان الأشـيـاء ، ثم يتـوج هذا كله فى نهاية المطاف فى استثمار الأحداث والاستيلاء على دمشق كما لو كانت تلك الحادثة هى الذروة (الدرامية) المتوخاة لكل الحوادث التى شـهدتها حـرب الصـحـراء والتى اكتسبت من خلالها مـعناها وتجانسها» .

هذا النمط يبدأ منذ الوهلة الأولى كقصيدة يهدى بها لورانس كتابه ويفترض أنه وجهها إلى صاحبه العربى الحميم :

«عندما أحببتك .. أخذت مواكب الرجال بين يدى
وكتبت وصيتى عبر السماء عند مراقى النجوم» .

ويتلو ذلك الملحمة الشهيرة التى جعلت من رجل أشقر مثل لورانس (وهو أيرلندى فى الجانب منه مثل كيم بطل رواية كبلينج) يخلع زى الخـاكى للجـيش البـريطانى ثم لا يكتـفى بأن يرتدى الدشداشة البيضـاء بل يكـاد يتقمص سـيكولوجيا هوية العربى فى الصـحـراء ثم يتولى وحــده قيادة هـــؤلاء الذين يجمعـــون بين البـداوة والنبالة إلى النصر على الأتراك العثمانيين .

بطبيعة الحال لم يتمكن عـرب لورانس قط من تحرير دمشق بمعنى الكلمة . فالذى قام بالتحرير حقيقة هو الجيوش النظامية

للحلفاء بما أتاح للعرب أن يواصلوا زحفهم المنتصر إلى تلك المدينة علامة على الفخر والاعتزاز . ويعترف لورانس بحق بهذا في رسالة إلى كاتب سيرته روبرت جريفز ملاحظا أن الفصل المتعلق بدمشق في كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» حافل بأنصاف الحقائق بل إن الثورة العربية كلها بالطبع التى تولي لورانس قيادتها كانت «عرضا جانبيا متفرعا من عرض جانبى» فى مشاهد الحرب العالمية الأولى .. كان مسرح الشرق الأوسط أقل أهمية بكثير من المسرح الأوروبى ثم كانت تلك الثورة العربية عنصرا ثانويا على مسرح الشرق الأسط ، فلم تكن تتألف بأكثر من العصبة من المحاربين غير النظاميين الذين قادهم لورانس لكى يفجروا سكة حديد الحجاز التى أقامها الاتراك فى هذا الموقع منها أو ذاك حتى يسببوا من المضايقات أكثر من الدمار .

ثم كانت هناك أيضا حادثة درعا الشهيرة جنوبى دمشق حيث يصف لورانس بتفاصيل دقيقة بل ويمكن وصفها بأنها شغوفة كيف أهين جسديا ثم ضرب بالسياط بواسطة بيك تركى ، هناك عدد ليس بالقليل زعم أن هذا الأمر لم يحدث قط وكل ما هنالك أن لورانس كانت تراوده الرغبة فى أن يحدث ، تماما كما كان يمضى بحياته فى الصحراء حيث يقول إن الانسان يعيش مع الإنسان

بغير حواجز أو مداراة وحيث يمكن للمرء أن يراوده اعتزاز وحشى بإهانة جسده بأى طريقة تعده بألم أو إهانة فى جسمه (!) وفيما ذهب دوتى إلى الصحراء رائدا علميا فإن لورانس ذهب إليها بعقدة شذوذه وعدم شرعية مولده وكان فى هذا كله يبحث عن نوع خاص للغاية من أنواع السلام العاطفى .

مع ذلك ففى جنازته عام ١٩٣٥ بكى ونستون تشرشل وقال : «أيا كانت حاجتنا بعد ذلك فلن نجد إنسانا مثله قط ★ ، وكان تشرشل على حق فبرغم العيوب الشخصية التى شابت لورانس وأيا كانت المبالغة فى الدور الذى لعبه مع العرب الذين انتمى إليهم وانتموا إليه ، فإن لورانس فى واقع الأمر هو «كيم» فى الحياة الحقيقية بمعنى أنه كان يمارس أحلامه وهذيانه بينما كان يجمع فى الوقت نفسه معلومات استخبارية لها قيمتها ، خلال مجمل الفترة التى أمضاها فى بلاد العرب كان مركزه الرسمى هو ضابط مخابرات سياسى استطاع فى نهاية المطاف أن يسلم العرب إلى أيادى بريطانيا العظمى .

كان لورانس يفكر بوصفه استعماريا ، كان يحبذ وعد بلفور والمشروع الصهيونى (فى فلسطين) كوسيلة لإبعاد الفرنسيين عن

★ توفى لورانس فى حادثة دراجة وكان عمره ٤٦ عاما .

فلسطين وربما عن سائر بلاد الشام ، وتصدى لقيادة المفاوضات السيئة الحظ التى تمت بين الأمير فيصل ابن شريف مكة وبين حاييم وايزمان (الذى كان لورانس يكنّ له إعجابا أصيلا) وكانت تحيزات لورانس ذات دوافع إمبريالية إذ كان يكره بل يمقت الأتراك والفرنسيين ويحترم اليهود «كلما استطاع اليهود أن يزرعوها (يقصد فلسطين) فهذا خير وأبقى «هكذا كتب لورانس فى رسالة بعث بها إلى الوطن . وفى «أعمدة الحكمة السبعة» يلاحظ أنه فقط فى المعجزة الدائمة لليهودية استطاع الساميون الأبعدون أن يحافظوا على هويتهم وقوتهم فى عالم أوسع نطاقا .

مع ذلك فقد بقى التزام لورانس العاطفى إزاء العرب (الذين كانوا فى نزاع مبدئى فى ذلك الوقت ، لا مع اليهود ولكن مع الاتراك ومع الفرنسيين حول سوريا) وبقى هذا الالتزامْ غير مشروط لدرجة أنه فى مؤتمر الصلح والسلام فى فرساى حينما كان لورانس جزءا من الوفد البريطانى إلا أنه كان يرتدى الملابس العربية كاملة . لورانس كان مقتدرا بوصفه عميلا سريا ، لكن يتساءل المرء : كيف تسنى لمثل هذا الفرد بكل عاطفيته وبكل انفعالاته المشبوبة أن يحقق ما حققه من شأو بعيد فى مضمار رسم السياسة ؟ .

تكمن الإجابة فى إنه مهما كانت مكانة الشرق الأوسط وأهميته بالنسبة مثلا إلى أفريقيا أو غيرها من الممتلكات الامبريالية ، وبالمقارنة إلى أوروبا إلا أن الشرق الأوسط ظل ساحة قصية مفعمة بالأسرار ومستعصية من ثم على معظم البريطانيين من رفيعى المكانة . فى ذلك الوقت كان عدد البريطانيين من ذوى المهارات اللغوية وغيرهم من خبراء المنطقة صغيرا لدرجة أن لم يكن ثمة تمييز بين العالم والدبلوماسى وبين عميل المخابرات العسكرية ، ولو كان للمرء أن «يمتلك» ناصية العربية لاستطاع أن يكون هذه المهن الثلاث على حد سواء ، وفى أكسفورد أصبح لورانس صنيعة ديفيد جورج هوجارث عالم الآثار والمستشرق الذائع الصيت الذى كان متضلعا أيضا فى العربية والتركية واحتفظ بصلات ممتازة فى داخل مؤسسة الامبريالية البريطانية ، هكذا رتب هوجارث أن يعمل لورانس فى موقع أثرى فى كرشميش على الحدود التركية السورية (كثيرا ما كان العمل الأثرى فى الحفريات هو الغطاء التقليدى لمهمات المخابرات) ، وبعد ذلك أصبح هوجارث رئيسا للمكتب العربى فى القاهرة عندما نشبت الحرب العالمية الأولى ، من ثم وجد لورانس مكانا فى سلك المخابرات العسكرية عند بداية الثورة العربية ، وفى نهاية الحرب كان لورانس قد عاش مع البدو وقاد جيشا من البدو على مدار

سنتين ومن ثم اكتسب من الصلات والخبرات ما جعله في مكانة مستشار رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج ، ورغم كل شئ فالسؤال يبقي : كم من الرجال أو النساء كانوا على شاكلة لورانس ؟

والإجابة أن كان هناك كثرة من هؤلاء جميعا . إن عرب لورانس لم يكونوا هم العرب الوحيدون في الصحراء لقد ذهب لورانس إلى الجزيرة العربية مستشارا لحاكم بعينه هو حسين شريف مكة ، واستطاع أن يشكل رابطة وثيقة خاصة مع واحد من أبناء الشريف هو فيصل ، كان رجال فيصل من المحاربين العرب هم الذين جاء لورانس لكى يقودهم ، هؤلاء المقاتلون جاءوا جميعا من منطقة غرب وشمال غرب الجزيرة العربية التى تعرف باسم الحجاز حيث تقع مكة والمدينة المقدستان عند المسلمين . وفيما كان الحجازيون وخاصة أسرة الشريف في مكة المعروفة باسم الهاشميين يتمتعون بمكانة سامية في كل أنحاء الوطن العربى (بحكم دورهم كسدنة للأماكن المقدسة ومقولتهم بأنهم ينحدرون مباشرة من نسل النبى محمد عليه السلام) إلا أن الحجاز لم يستطع فى رأى البعض أن ينشئ أفضل المقاتلين بل ولا أتقى المسلمين . لكن هذا التميز يصدق على أهل القبائل فى وسط الجزيرة العربية حيث المنطقة المعروفة باسم نجد ، وفيها

عاش الوهابيون اتباع محمد بن عبد الوهاب وهو داعية سلفي من القرن الثامن عشر دعا إلى تفسير للقرآن الكريم على أساس من التقشف والتزهد ، وفى ضوء معايير الوهابيين الصارمة فإن الحجازيين ليسوا من الخشونة كما ينبغى بل أن تدينهم يشوبه شرك وشخصيتهم أساء إليها قربهم من البحر الأحمر وصلاتهم بالعالم الخارجي ، وكان أقوى زعماء القبائل في نجد هو عبد العزيز بن سعود.

عشية قيام الحرب العظمى الأولى ، كان للبريطانيين عميل أو وكيل سياسى مرتبط بقبيلة ابن سعود هو الكابتن وليم هـ. شكسبير ، وهذا الشكسبير الذى ينتمى بصلة قرابة بعيدة للشاعر الكبير الذى حمل اسمه كان مكتشفا مقتدراً ، بل كان أول أوروبى يعبر الجزيرة العربية من شرقها إلى غربها أى من الكويت إلى السويس وذلك إنجاز لا يطاوله إنجاز فى تلك الأيام . لكن شكسبير على خلاف لورانس ، لم يكن يرى أن يتزيا بزى العرب ، وهذا كلفه حياته نفسها ، ففى معركة دارت فى عام ١٩١٥ بين ابن سعود ورجال قبيلة خصمه ابن الرشيد ، الذى كان مواليا للأتراك ، ما أيسر أن كان الزى البريطانى غنيمة سائغة للرماة من رجال ابن الرشيد ، ولو عاش الكابتن شكسبير لكان الاحتمال أن يكون ذلك الرجل وليس لورانس هو الذى يقود الثورة العربية

ضد الأتراك ، والعرب فى مثل هذا الظرف سيكنون عرب ابن سعود وليسوا عرب فيصل بن الحسين .

وبدلا من شكسبير بعثت بريطانيا إلى نجد هارى سان جون بريدجر فيلبى أو جاك فيلبى ، كما كان يعرفه زملاؤه الانجليز ، وفيما كانت مبادئ لورانس تتأرجح بين مساندة المصالح الاستعمارية البريطانية وبين ما رآه مطالب فيصل المشروعة فى سوريا إلا أن جاك فيلبى لم تكن تراوده هذه الوخزات من الضمير بشأن الولاء المزدوج ، كان دائما يعرف أن ولاءه الحقيقى يكمن عند ابن سعود والوهابيين .

الكاتب الانجليزى روبرت ليسى يصف فيلبى بأنه «ماكر داهية مثابر بكل مقياس» جاك فيلبى كان بالطبع والد العميل البريطانى المزدوج كيم فيلبى الذى هرب إلى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٦٣ بينما كان عضوا رفيع المكانة فى المخابرات البريطانية . ومن عجب أنه رغم كل ما كتب عن عمليات الجاسوسية فى الحرب الباردة لم يستطع مؤلف واحد أن يعالج بصورة منهجية تلك العلاقة المثيرة للعجب بين هذا الأب والابن وكلاهما تخرج فى كلية ترينيتى فى كمبردج ، وكلاهما كان بهذا الشكل خائنا بارزا لبلده الأصلى ، وخاصة لأن كيم فيلبى نما وسط بيئة استعرابية من ثم احترف الصحافة فى الشرق الأوسط ومع ذلك فلم يفض به هذا

إلى نفس حب العرب على نحو ما كان أبوه . ذات مرة كان كيم فيلبى يثرثر ثملا فى حانة فى بيروت فقال «العرب هم الشعب الوحيد الذى أعرف أنه يجمع بين الجهل والغرور» ، وبرغم أن كيم فيلبى رفض أباه وعرب أبيه إلا أنه انتهى به الأمر وقد كرر نفس سلوك أبيه وهو أمر طبيعى لمثل هذا الضرب من الأبناء .

جاك فيلبى بدأ حياته العملية مع نهاية القرن الماضى فى الهند كوكيل استعمارى بريطانى يعالج الأمور اليومية كجباية الضرائب ومكافحة الفيضان فى منطقة البنجاب ، سرعان ما أظهر فيلبى مقدرة مرموقة فى اللغات واللهجات فأتقن بسهولة الهندية والبوشتو والبنغالية ولغات أخرى . وكم كان سعيدا عندما كان ينغمس فى أى ثقافة بعيدة عن ثقافته الوطنية ، وعندما بدأت الحرب العالمية الأولى وأصبحت بلاد العراق ساحة حرب استراتيجية بين البريطانيين والأتراك الذين انحازوا إلى قيصر ألمانيا ، كان فيلبى واحدا من ضباط عديدين تم تجنيدهم لحساب البعثة البريطانية فى البصرة ، حيث أضاف العربية بسرعة إلى قائمة اللغات التى أجاد استخدامها ، وفجأة نسى الهند وأصبح فيلبى مدمنا على الثقافة البدوية العربية يمضى الساعات الطوال يتتبع القبائل وأحسابها معترفا أن هذا العمل لم يكن يمت بصلة ما إلى عمله كدبلوماسى، ولكنه كان «مجرد ناتج فرعى لدراساتى

اللغوية» على أن فيلبى ظل فى بلاد ما بين النهرين مجرد سمكة صغيرة فى بحر كبير من الموظفين البريطانيين الموهوبين ، ثم جاء موت الكابتن شكسبير فأتاح له الفرصة لكى «يتبنى» زعيما عربيا كبيراً .

وكان يعرف ما يتعين على المرء أن يفعله لكي يحدث أثراً فعالا. لورانس كان له فيصل والحجازيون ، وها هو ذا فيلبى يكون له ابن سعود والوهابيون ، وفن العمالة كان مشكلة بدأت بوصفها ضرورة فى عصر لم تكن الدول العربية (المشرقية) قد خرجت رسميا فيه بعد إلى حيز الوجود ، ولم يكن ثمة آلية رسمية لهؤلاء الزعماء القبليين لكى يعبروا عن مشاعرهم إلا من خلال ضباط بريطانيين متعاطفين معهم ترتفع أقدارهم المهنية وتسقط بقدر ما يحدث لهؤلاء القبليين الذين كانوا مرتبطين بهم فضلا عن ذلك كانت تكنولوجيا الاتصالات من البدائية لدرجة أن المسئول الاستعمارى فى بلاد العرب أثناء الحرب العالمية الأولى كان على صلة واهية جدا بمكتبه فى الوطن على خلاف الصلة التى تربط الدبلوماسى بوطنه فى يومنا هذا ، مثل هذا المسئول القديم كان يمكن أن يمضى شهوراً عدة لا يصحبه أحد سوى رجال القبائل الذين تبناهم . وهذه الحقيقة جعلت تجربته فيما وراء البحار أكثر

تركيزا وأشد كثافة وكلما زاد تركيز التجربة ، زادت كثافة الولاء المتطور والناجم عنها .

هكذا لم يضيِّع فيلبى وقتا لكى يكسب ود عبد العزيز بن سعود ففى مدى أسبوع واحد بعد نوفمبر ١٩١٧ الذى شهد لقاءه خارج الرياض مع ذلك الزعيم العربى الوسيم فى خشونة الطويل القامة وجد فيلبى نفسه فى خصومة مريرة مع الكولونيل ر . هاملتون الوكيل البريطانى لشيخ الكويت مبارك الصباح حيث عبر هاملتون عن ازدرائه بعد أن اقترح فيلبى أن يسمح لابن سعود بالاستيلاء على الكويت من أيدى عائلة الصباح .

لم يكن ثمة شئ فى شخصية جاك فيلبى يخضع للسيطرة أو ينبئ بالتواضع ، حتى صديقته وزميلته المستعربة «جرترود بل» كانت تتصوره «متسيدا وصعبا بأكثر مما ينبغى» سرعان ما خرج فيلبى على الناس يرتدى الثياب العربية ويمتطى جملا ويصحب محاربى ابن سعود من الوهابيين ويعلن نفسه «النجم الجديد فى السماوات العربية» وكما يكتب فى سيرته الذاتية «أيام عربية» قال : استطعت أن أضيف كَمًّا هائلا إلى معرفتنا المتاحة بأحوال جزيرة العرب وأن أبدأ عهداً جديدة جعلنى عدوا للجميع وكان لدى الشجاعة لأن أعبر عن قناعتى بأن رجل الأقدار فى جزيرة العرب هو عبد العزيز آل سعود وليس الحسين بن على (شريف مكة) ،

وكـان الأخـيـر هو المقـرب إلى كل من لورانس والمؤسـسـة الاستعمارية البريطانية .

كانت مقولة وزارة المستعمرات وقتها وكان كل مستعرب ما عدا فيلبي يوافق عليها هي التالي : عندما يختفي الأتراك من المسرح فليس هناك سوى العائلة الهاشمية لشريف مكة هم النسل المباشر للرسول هم الحائزون على المطلوب من حيث المكانة السياسية والدينية لكي يحكموا في ظل الاستقرار الجزيرة العربية. ولكن في عام ١٩٢٥ استطاعت قوات ابن سعود أن تسلك طريقها زاحفة نحو الغرب من وسط الجزيرة العربية فاجتاحت بذلك منطقة الحجاز ، وهكذا ذهب شريف مكة إلى المنفى وأصبحت مدينتا مكة والمدينة المقدستان جزءا من المملكة المتوسعة حديثا التي عرفت باسم المملكة العربية السعودية ، وأثبت جاك فيلبي أن كل زملائه البريطانيين كانوا على خطأ وما كانت هذه الحقيقة بالشيء القليل الذي يستهان به .

هكذا لم يخرج فيلبي من غبار هذه الأحداث بوصفه فقط اليد اليمنى للملك عبد العزيز آل سعود الذي كان يشاركه في التسري بالسبايا بل كان يناقشه مطولا في آيات القرآن بل إنه أصبح بعد ذلك بمثابة أمين لسر الملك وحاجبه . كل غربي كان يأتي إلى الرياض خلال ربع القرن الذي تلا سعيا نحو امتيازات النفط وغير ذلك من العقود التجارية كان عليه أن يبدأ مباحثاته التجارية أولا

مع جاك فيلبى ، وبصرف النظر عما تراكم لديه من الثروة من جراء هذا النشاط إلا أنه استغل موقعه المميز هذا لكى يسافر باستمرار إلى أماكن لم يكن ليسمح عادة للأجانب بالولوج اليها ثم ينتج عشرات من الكتب حول الثقافة العربية والانسان العربى والكشوف الجغرافية التى تصنف الآن بوصفها من الكتابات الكلاسيكية المرموقة التى لا تقدر بثمن بالنسبة لخبراء تلك المنطقة . وفى عام ١٩٢٩ ، بعد أن تحسنت علاقته الرسمية مع الحكومة البريطانية تحرك فيلبى إلى بيت بغدادى وهو نزل على شكل قلعة من الرمال يحوى شرفات معلقة على شط البحر الأحمر فى جدة حيث عاش جنبا إلى جنب مع مجموعة كانت متنامية من القردة العربية التى كانت تشغل أقفاصا على الشرفة .

فى عام ١٩٣٠ أصبح فيلبى على استعداد لاتخاذ الخطوة الأخيرة فيما كان عملية تدريجية من الانسلاخ عن شخصية الانسان واصطناع شخصية جديدة أو كما عبر هو نفسه «أن يذهب مع العرب إلى آخر الشوط» . ففى أوائل أغسطس من ذلك العام ارتدى ثياب شيخ عربى وقام بتوقيع وثيقة تشهد بقبوله الاسلام واتخاذه اسم عبد الله ومن ثم استطاع عبد الله فيلبى أن يسافر لأول مرة إلى مكة وأن يؤدى شعائر العمرة وهى الحجة

الأصغر حيث طاف بالكعبة مع المتعبدين ووصف ذلك بقوله إنها كانت تجربة مؤثرة تبعث الرهبة فى النفس فيما كانت أيضا فى غاية من المودة والدفء كأنما هى شئ غامض يتذكره الإنسان من ماض مطوى فى زوايا النسيان . هكذا أصبح قادرا على المشاركة كاملا فى ساحات البلاط الملكى وبعدها وهب له ابن سعود سرية اسمها مريم على سبيل الهدية تكريما لتحوله إلى الإسلام .

لكن سيقيض له أن يكون صديق وبطله ابن سعود هو الذى سيتخلى عنه فيما بعد ، فعندما زادت سطوة النازى فى أوروبا أصاب فيلبى اليأس من إشعال حرب ضد أدولف هتلر ، فبدأ يهمس فى أذن الملك أن لابأس ولا تثريب إذا ما عقدت إنجلترا سلاما على أساس شروط هتلر من قريب أو بعيد ، مع ذلك كان الملك حصيفا فأراد أن يلعب على كلا الحبلين فبالإضافة إلى عقد صفقات أسلحة مع ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية أبلغ الملك انجلترا بأمر جولة لمناهضة الحرب سيتحدث فيها فيلبى ويبدأها عام ١٩٤٠ ، وما أن غادر فيلبى المملكة السعودية حتى ألقت القبض عليه المخابرات البريطانية .

بعد ذلك سمح لفيلبى بالعودة إلى المملكة ، وعاد ليجد سلواه فى الوهابية التى حمته تقاليدها الصارمة بالتقيد بالمبادئ السلفية إزاء مقتضيات عالم سريع التغير . وفى عام ١٩٥٥ كان قد بلغ

التاسعة والستين ، فانتهى حلم عبد الله فيلبى ، فبعد أن شكى للملك الجديد سعود من «الفساد الضارب أطنابه» فى المملكة ، استدعى سعود فيلبى إلى حضرته وبصق عليه على رءوس الأشهاد ثم أمر بنفى فيلبى إلى لبنان .

★★★

عندما وصل فيلبى لأول مرة إلى بلاد ما بين النهرين قادما من الهند فى عام ١٩١٦ سرعان ما أنشأ صداقة مع «جرترود بل» وهو يصف ذلك بقوله «اكتشفنا اهتماما مشتركا بأشياء غريبة ، منها مثلا ، أنساب القبائل والحكام العرب الآنسة «بل» كانت تتمتع بجمال طابعه أرستقراطى إنجليزى ، طويلة القامة حادة الملامح ذات شعر فضى ، وعندما التقى بها فيلبى كانت تتكلم العربية بلهجة لا تكاد تعكس أى رطانة غريبة ، من الناحية الرسمية كانت «مس بل» ضابطا سياسيا تابعا للمكتب العربى البريطانى فى العراق ، وفى الحقيقة كانت هى القوة المسيطرة خلف قيام دولة يحاولون تجميع أطرافها من كردستان فى الشمال ومن منطقتى السنة والشيعة فى بلاد ما بين النهرين التى أصبحت تعرف باسم العراق وهى كلمة تعبر فى العربية عن الأصالة وطيب المحتد .

«جرترود مارجريت لوسيان بل» ، نشأت فى الريف الانجليزى محاطة بالثروة والنفوذ ، فى عام ١٨٨٨ كانت قد بلغت العشرين وتخرجت مبكرا من أكسفورد وأصبحت تجيد اللاتينية و الفرنسية والألمانية، وتعاملت مع الدبلوماسيين البريطانيين فى اسطنبول حيث نما لديها فضول عميق وشوق شديد إلى ما يقع على الجانب الآخر من البوسفور فى آسيا ، وفى أوائل تسعينات القرن الماضى نجدها فى طهران تجيد الفارسية و تنشر مذكراتها لرحلاتها الفارسية ثم تترجم أعمال حافظ الشيرازى الشاعر الفارسى الذى عاش فى القرن الرابع عشر ، ومن فارس كانت خطوة منطقية تالية أن تغامر إلى سوريا ثم ما بين النهرين لإتقان اللغة العربية. وفى سوريا وما بين النهرين وشمال شبه الجزيرة فى السنوات الأولى من القرن العشرين اكتشفت الآنسة «بل» الشهامة التى لا تقاوم للصحراء فأصبحت رحالة متفرغة وأثرية هاوية إن كانت تصر على أن تصحب أفضل أدوات مطبخها وأجمل ملابس السهرة لديها فى كل الجولات التى قامت بها ، ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى ، كانت قد ألفت نصف دستة من الكتب عن الاستكشافات الاستشراقية بما فى ذلك «الصحراء والسهل الخصيب» الذى لا يجاريه حتى اليوم أى وصف لرحالة لمدن سوريا الكبرى وشعوبها ، على أن حبها لم يقتصر على الصحراء

: لقد دخلت فى علاقة عاطفية غير مشروعة مع ضابط متزوج من فرقة الرماه الملكية هو تشارلس مونتاجو دوتى - ويلى ، ابن أخ مؤلف «رحلات فى صحارى بلاد العرب» وسميه ، وفى أبريل ١٩١٥ كان الكولونيل ويلى يقود قوة من الجنود الاستراليين فى مهمة بطولية أخيرة فى جاليبولي عندما قتله الاتراك برصاصة فى رأسه ومن بعدها عمدت الآنسة «بل» إلى توجيه كل عواطفها إلى الشعب الذى تبنته ، وهم عرب ما بين النهرين والى الدولة الجديدة ، العراق التى كانت مصممة على أن تولد على يديها . هؤلاء أصبحوا بمثابة العائلة التى لم يقدر لها أن تضم غيرها طيلة حياتها .

وعندما نشبت الحرب ، كانت السلطات البريطانية بحاجة إلى معارف الآنسة «بل» اللغوية والبشرية لأغراض الدبلوماسية وأعمال المخابرات .

وبعد وفاة ويلى ، أصبحت هذه المهمة شغلها الشاغل، وبين إصابات ونوبات بالملاريا وبين الإشراف على تحرير صحيفة عربية محلية وكتابة تقارير الدبلوماسية والاستخبارات فى مواسم الشتاء الحافلة بالمطر والوحل في بغداد فى السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الأولى ، أنتجت الآنسة «بل» مجموعة من الدراسات الاثنوغرافية عن مواضيع مثل التقاليد الشيعية وكتابة العربية

بحروف إنجليزية ، وكذلك كانت تقيم حفلات وإن كان حتى أقرانها من البريطانيين انتقدوها ، على نحو ما يقول كاتب سيرتها «بسبب غرورها الزائد وكراهيتها للنساء العربيات اللهم إلا إذا كن ينتمين - كما قالت الآنسة بل نفسها «إلى طبقات أعلى» .

كان الذى يربط بين هذه الأنشطة جميعا حلمها بعراق المستقبل الذى كانت تريده «مركزا للحضارة والرخاء عندما نتمكن من أن نجعل بلاد ما بين النهرين دولة عربية نموذجية وساعتها لن يكون هناك عربى فى الشام أو فلسطين بغير رغبة فى أن يصبح جزءاً منها ، فى ذلك الحين كان المسئولون البريطانيون عاكفين على عملية اصطناع هذه الدولة ومن أجل خدمة أغراضهم الاستراتيجية أرادوها تشمل حقول النفط فى جنوب كردستان وتتمتع بمنفذ على الخليج العربى لدعم وجودهم فى الهند. وبرغم أن هذا كان يعنى توحيد عدة أقاليم تخلى عنها العثمانيون دون أن يكون بينها رابط مشترك اللهم إلا كراهيتها العودة إلى القديم ، إلا أن هذا كله لم يكن ليشغل «الآنسة بل» . كان العراق لعبتها التجريبية وعندما أصبح العراق حقيقة واقعة اعترفت أنها بينما استخدمت فى برقياتها حججا لتعزيز خلق العراق بالنسبة لوزارة الخارجية فى لندن وكانت حججا سياسية واقتصادية إلا أن مفتاح الموقف في العراق فى نظرها كان دائما هو «الشغف الرومانسى».

الآنسة «بل» لم تعد قط إلى انجلترا ، بقيت فى بغداد وحيدة لتصبح مديرة شئون الآثار فى الدولة العراقية الجديدة وواحدة من خلصاء ملكه الجديد فيصل الأول ★ ، إلا أن حكم فيصل تطور بالتدريج ليصبح أكثر خبثا وفسادا ومن ثم فإن محادثاتها مع ملك العراق أصبحت تتخذ شكل معجب خاب أمله إزاء بطله السابق :

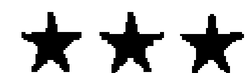
كانت تقول : بدأت أسأل (الملك فيصل) عما إذا كان يؤمن بإخلاص الشخص والثقة فيه فقال إنه لا يشك فى ذلك ، وقلت فى هذه الحالة فأنا أستطيع أن أتكلم بحرية كاملة رغم أننى فى غاية من التعاسة . لقد صنعت صورة جميلة ورشيقة من الثلج وشعرت إزاءها بالولاء ، وها أنذا أراها تذوب أمام ناظرى» .

(نزعة الآنسة «بل» إلى المبالغة والترسل فى الحديث يمكن أن تجد شبيها لها فى المحادثات التى تمت عام ١٩٩٠ بين حاكم عراقى آخر ودبلوماسية غربية أخرى أمضت بدورها كثيرا من سنوات حياتها فى العالم العربى) ★★ .

★ هو فيصل نفسه الذى حارب مع لورانس ضد الأتراك ثم كافأته بريطانيا بعرش العراق بعد أن أجبرته السلطات الاستعمارية الفرنسية على الخروج من سوريا .

★★ الأقواس هذه المرة من وضع المؤلف ويقصد بالطبع المقابلة الشهيرة بين صدام حسين والسفيرة الأمريكية ابريل جلاسبى . «المترجم»

أعلنت الآنسة «بل» نفسها قائلة «أنا عراقية» ثم اتخذت لنفسها فيما بعد لقب أم المؤمنين (!) وكان العراقيون يسمونها الخاتون أو سيدة القصر . وعندما ماتت دفنت فى بغداد عام ١٩٢٦ قبل عيد ميلادها الخامس والثمانين بيومين بعد أن تناولت جرعة مميتة من عقار البربيتوريت ، إلا أن قصة أخطاء بريطانيا فى العراق ظلت مستمرة خلال الحرب العالمية الثانية ولسوف تعرض إليها سطر الكتاب فيما بعد .



ورغم أن الساحة شملت آخرين ، فإن «لورانس» و «فيلبى» والآنسة «بل» هم أكثر الشخصيات التى لا تزال ذكراها ماثلة بين الأفراد البريطانيين الذين عملوا فى الحرب العالمية الأولى وجمعوا بين العلم والعمالة الإمبريالية ، وامتلكوا الوسائل المالية للسفر على هو اهم وسحر كل منهم الآخر تماما . كما أن كلا منهم كان مسحور اللب بواسطة العرب . ولكن نفوذهم لم يقتصر على أن يكون مجرد معرفة ثقافية مكتسبة ، إن مفتاح القوة لكل منهم كان قدرته ككاتب وقبل أن تؤثر كتب لورانس أو فيلبى أو الانسة بل وغيرهم من البريطانيين الذين أثروا على أجيال من المستعربين الذين أنجبتهم أمريكا ، إلا أن برقياتهم الدبلوماسية كان لها بدورها تأثيرها على راسمى السياسات فى لندن .. إن هـ .

وينستون كاتب سيرة الآنسة بل ، يلاحظ أنها ولورانس قدما مادة للقراءة فى فترة الحرب لم يبارها بالتأكيد أى وثائق تابعة للمخابرات بل إن موظفى الخارجية البريطانية كانوا يتقاتلون للحصول عليها . لكن بينما كانوا أساتذة فى حرفة الكلمة إلا أنهم لم يكونوا لا من الوضوح ولا الاتساق فى الآراء التى طرحوها ، وهذا بدوره ، على ما يقول وينستون ، هو العيب المأساوى فى المستعرب البريطانى : «كانوا فى غاية الأناقة اللفظية ، العالم بالنسبة لهم كان يمكن أن يكون مكانا أكثر سلما للأجيال القادمة لو لم يكونوا هم ومن على شاكلتهم كتابا ومؤلفين على قدر مشهود من الكفاءة والإقناع» .

لورانس بالذات كان شخصا يؤثر فيه مسرح الأحداث تأثيرا بالغا . بين صفوف العرب فى الصحراء كان مؤيدا للعرب ، فى دوائر الخارجية البريطانية فى هوايت هول كان مؤيدا للإمبراطورية ، مع حاييم وايزمان كان يستشعر فى نفسه صهيونيا مخلصا ، وهكذا فعند قراءة حوليات الحرب من لورانس أو الآنسة بل أو غيرهما يحار المرء كثيرا عندما يقرأ مثلا أن القومية العربية فى مناسبة ما هى العلاج الشافى لكل الأدواء ، بينما يقرأ فى مناسبة أخرى أن الحكم الذاتى فى العراق وسوريا هو الحل الناجع للمشكلات ، هذا الارتباك والاضطراب هو

بالضبط الذى يجسده الشرق الأوسط الذى صنعه البريطانيون وساعدهم على ذلك الفرنسيون فى مرحلة ما بعد الدولة العثمانية .

العراق ، تلك المملكة المصنوعة فى بريطانيا جاء كفصل تال لما عمد إليه البريطانيون والفرنسيون من تقطيع أوصال بلاد الشام وهو ما أحبط كثيرا ما كان المبشرون الأمريكيون يحاولون إنجازه فى الكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الامريكية) وغيرها من المعاهد العلمية .

لقد كانت الثورة العربية التى ألقت قيادها إلى لورانس مجرد نظير عسكرى لحركة اليقظة العربية التى قادها بدورها المبشرون الأمريكيون وقد شهدتها مدن كثيرة فى بلاد الشام فى القرن التاسع عشر من خلال تشكيل الجميعات الثقافية والسياسية السرية وهذا التراث جعل دمشق موئلا لمشاعر العروبة مع نهاية الحرب العالمية الأولى حيث أصبحت قلب العروبة النابض كما كانوا يسمونها وبالنسبة لقلة من المبشرين بدت بلاد الشام فى نهاية المطاف وكأنها ستنحو نحو اتباع خطى أمريكا بوصفها مجتمعا مستقلا وموحدا وليبراليا وديمقراطيا ، لكن هذه القومية العربية التى لا تعرف الحدود والتى ساندها المبشرون لم تكن تلقى عطفا إلا من جانب الغالبية السنية المسلمة ، هؤلاء الذين كانوا يعيشون أساسا على طول محور الشمال والجنوب فى دمشق وحمص وحماة ، وفى غير ذلك كانت سوريا بمثابة رقعة شطرنج

لأطراف متنازعة ما بين المذاهب والأديان والمصالح القبلية في الشرق الأوسط ، كانت مجرد مصطلح على نحو ما قالته الآنسة بل في لحظة صفاء في بداية حياتها العملية قبل موت صديقها المحبب دوتى ويلى «مجرد مصطلح جغرافى لا تتوازى معه أى مشاعر وطنية فى صدور السكان» .

وإلى جانب الموارنة والروم الأرثوذكس كانت هناك جيوب من الأرمن واليهود والشركس وكثير من المذاهب الباطنية المختلفة المتخلفة عن مد الإسلام الشيعى الذى كان قد اجتاح المنطقة غربا من إيران إلى سوريا ثم انحسر قبل ذلك العهد بألف سنة . كان هناك الدروز والاسماعيليون والعلويون . وكما سبق إيضاحه فإن المجموعات المختلفة من المبشرين الأجانب الذين كانوا يعملون لأغراض شتى من خلال مؤسساتهم التعليمية التى كانت كل منها تلبى احتياجات نحلة بعينها ، كانوا فى واقع الأمر يعملون على تجزئة السكان فيما كانوا يناضلون من أجل توحيدهم . وعندما استطاعت قوات الحلفاء بمساعدة من رجال لورانس من المحاربين العرب أن تجتاح دمشق فى عام ١٩١٧ وتطرد الأتراك العثمانيين مضى البريطانيون والفرنسيون فى توطيد وتكريس هذه الانقسامات العربية لتصبح بمثابة صخر صلد ، بينما قطعوا أوصال الأغلبية من عرب السنة عن بعضها البعض .

كانت منطقة سوريا العثمانية سابقا منقسمة إلى ست مناطق مختلفة : جزء من شمال سوريا ضموه إلى دولة تركية جديدة بدأ مصطفى كمال أتاتورك يقتطعها من واقع الخلافة العثمانية القديمة ، جنوب سوريا انقسم إلى منطقتين : منطقة انتداب فى فلسطين (وعدت بريطانيا مرتين أن تعطيها لليهود وللعرب) ثم مملكة في شرق الأردن يحكمها واحد من حلفاء لورانس فى الحرب العالمية الأولى هو عبد الله شقيق فيصل وابن شريف مكة ، أما الجزء الشرقى من بلاد الشام فقد أصبح جزءا من العراق البريطانى ، والفرنسيون أخذوا ما تبقى وقاموا بدورهم بتقسيمه من خلال إعلان دولة لبنانية موسعة تعرف باسم لبنان الكبير لكى يعزز وجود أصدقائهم المسيحيين الموارنة الذين سيضعون منذ تلك اللحظة عددا كبيرا من السكان المسلمين السنة تحت سيطرتهم.

فى الوقت نفسه حصل فيصل رفيق لورانس فى السلاح فى الحرب العالمية الأولى وابن شريف مكة على مكافأة عن خدماته ، ومن ثم قامت بريطانيا بتنصيبه ملكا على سوريا فى عام ١٩٢٠ وعاشت مملكته تلك مائة يوم إلى أن أخرجه منها الفرنسيون . حينئذ مضى لورانس وصحبه فطوحوا بفيصل إلى العراق حيث لم يكن قومه الهاشميون القادمون من غرب الجزيرة العربية يتمتعون

بأى مساندة محلية ويومها تطوعت الآنسة «بل» المتحمسة بالمساعدة على بناء قاعدة قوة لصالحه .

لكن بينما كان البريطانيون والفرنسيون يرسمون خطوطا على الخريطة ويحركون الحكام هنا وهناك مثل قطع الشطرنج ، كان الأمريكيون البروتستانت يعانون جنبا إلى جنب مع ضحايا المجاعة والمذابح التى كانت العواقب الوخيمة الناجمة عن الحرب العالمية الأولي . وعندما كان هناك بريطانيون من أمثال لورانس وفيلبى والآنسة «بل» يقعون فى غرام العرب ، كان المبشرون يتعلمون ربما أكثر من ذى قبل معنى ما يشعر به المرء بحق عندما يكون عربيا فى الحانات والمطاعم الشعبية الخيرية بسوريا فى الحرب العالمية الأولى بعيدا عن مضارب خيام الملوك ومراكز القوة فى لندن ، وهنا يتعين علينا أن نعود فنلتحق بمسيرة الأنجيليين البروتستانت الأمريكيين .

الفصل الرابع

نهاية الطيف الملون

عندما يأتى ذكر الحرب العالمية الأولى فى الشرق الأوسط تسجل الذاكرة المعاصرة صور الصحراء وفيالق الجمالة ولورانس مرتديا الدشداشة والعقال العربى ، لكنها لا تسجل الوجوه الضامرة لـ ٣٠٠٠٠٠ من أبناء الشام ، كثير منهم أطفال ، الذين تضوروا جوعا حتى الموت فى غمار إحدى المجاعات التى طال عليها النسيان فى هذا القرن .

بايارد دودج خريج جامعة برنستون الذى ذهب مع أخيه التوأم إلى بيروت فى قارب فى عام ١٩١٠ عاد إلى المدينة من جديد لدراسة العربية وللمساعدة فى جهود الإغاثة وقت الحرب . كان ينعم باستقلال الثراء فاستطاع أن يدعم شبكة من المطاعم الشعبية الخيرية التى تولت إطعام ١٢٠٠٠ عربى فى الجبال المحيطة ببيروت . كتب يوما يقول «كان الهواء حافلا برنين الأجراس التى تعلن الجنازات وكان الأطفال يبكون من أجل لقمة

خبز يتبلغون بها ، كانت الملابس شحيحة لدرجة أن الأمريكيين حولوا ستراتهم واستخدمت النساء الستائر لصناعة فساتين وكان الكيروسين من الندرة للدرجة أن الأهالى استخدموا لمبات بزيت الزيتون ، تماما كما كان أسلافهم الفينيقيون يفعلون ، كان الناس يتقاتلون على أكوام الزبالة ، وأصبح كثير من البيوت فى الجبال خالية بعد أن مات شاغلوها واستخدمت أبوابها لصناعة الأكفان».

هكذا كان السكان المدنيون في بلاد الشام هم الذى دفعوا ثمن الثورة العربية التى قادها البريطانيون فى الحجاز ، أصبحوا بكل معنى الكلمة سجناء عند الأتراك الذين فرضوا حصارا على المؤن الغذائية إلى داخل سوريا الكبرى ، أما المغتربون الأمريكيون الذين كانت حكومتهم برئاسة ودرو ويلسن موالية للبريطانيين وسرعان ما أعلنت الحرب على تركيا وغيرها من القوى فى وسط أوروبا ، فكانوا بدورهم سجناء يتهددهم الأتراك باستمرار بالترحيل فى حافلات مقفلة إلى دواخل الصحراء بينما كانوا يفعلون ما يستطيعون لتخفيف المعاناة التى كانوا يطالعونها من حولهم هنا وهناك .

هوارد بليس رئيس الكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الامريكية) وهو مستعرب محيط بموضوعه تماما كما كان لورانس

أو الآنسة «بل» أمضى سنوات الحرب فى كفاح لا يهدأ لمجرد أن يجد الطعام لأعضاء هيئة التدريس من أبناء المنطقة ويجعل الكلية تطفو بعيدا عن الغوص فى هاوية الديون إزاء مغارم الجهود الإنسانية التى قامت بها ، لم يكن يمضى يوم بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٨ إلا وكانت السلطة التركية تهدد أو على الأقل تثير المتاعب لرئيس الكلية الأمريكية.

• بالإضافة إلى أنشطة الإغاثة التى قامت بها الكلية المذكورة أنفق المبشرون الأمريكيون فى سوريا ١٦ مليون دولار وهو مبلغ جسيم فى ذلك الزمان على عمليات إطعام وإلباس العرب المحتاجين . كان رواد الكنائس فى أمريكا ذاتها هم الذين يجمّعون الأموال ، ومع ذلك ففى اشتعال أتون الحرب عبر ساحات أوروبا بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ، ومع اقتراب أمريكا من الالتحاق بهذا الأتون فإن الجماهير فى الوطن الأمريكى لم تكن تُركز على المأساة فى بلاد الشام ، وعلى ذلك فإن المغتربين الأمريكان كانوا مثل الضباط السياسيين البريطانيين المنتدبين لقيادة القبائل العربية يشعرون بالعزلة وبأنهم متروكون لشأنهم إزاء تجربة شخصية غاية فى التوتر . بدا الأمر وكأنه أوكل إليهم سر عظيم ينوء به قلب الإنسان لا يكاد يهتم به خارج نطاقهم فى

العالم إلا قلة قليلة . أدى ذلك إلى إحباط الأمريكيين فى سوريا الكبرى بل تعميق مشاعرهم إزاء الأرض التى تبنتهم أو تبنوها . كانوا يعرفون كما تقول مرجريت مكجلفارى ، وهى مبشرة فى بيروت أن «أعمال الأمريكيين» أدت إلى نتيجة سياسية لم يكن يكترث أحد فى واشنطن حتى لمجرد متابعتها .. الحق أن أمريكا أعطت بسخاء ولكن دون اكتراث يذكر فيما إذا كان هذا السخاء سيعود عليها عندما يأتى يوم تعترف فيه الأمة فى سوريا بأمريكا بوصفها صديقا لا مصلحة له إلا الصداقة ، وتتذكر جريس دودج ابنة بايارد دودج أن أمريكا كانت تمثل فى نظر عرب سوريا «نهاية الطيوف الملونة» .

الوا‌ف‌دون الأمريكيون من جانبهم ، كما كتبت مكجلفارى ، كانوا يستوحون سلوكهم من الاتجاه القومى عند العرب الذى رأى فيه هؤلاء المغتربون علامات مبشرة بأن سوريا الكبرى تتمتع بامتلاكها عناصر قوة كامنة بل وشرارة من نار مقدسة . وعند نهاية الحرب أبحر بليس إلى مؤتمر السلام فى فرساى ليلقى خطابا مشبوبا بالعاطفة لصالح القضية القومية العربية ، وعلى خلاف لورانس وغيره من البريطانيين فإن إيمان بليس وسائر المغتربين الأمريكيين بالقومية العربية كان إيمانا شاملا ، إذ لم

يكن أى منهم يمثل أى مؤسسة إمبريالية لها دوافعها الخاصة فى المنطقة (الحكومة فى واشنطن ، كما سوف نرى ، لم تصبح بحق مدركة لأهمية منطقة الشرق الأوسط إلا بعد انقضاء الحرب العالمية الثانية) .

وفيما كانت الجالية الأمريكية في سوريا متحدة فى دعمها لقضية القومية العربية ، فإن أربع سنوات من الاحتلال التركى الوحشى زادت من تفاقم التباين المستمر بين هيئة التدريس فى الكلية البروتستانتية السورية وبين سائر المبشرين الأمريكيين ، إن مكجلفارى التى عملت فى فرع بيروت من الصليب الأحمر اتهمت بليس والعاملين معه فى الكلية المذكورة فى كتابها «فجر حقبة جديدة فى سوريا» بأنهم «كانوا يتقربون من الأتراك» ، كما أن ستيفن بنروز فى التاريخ الذى كتبه للكلية بعنوان «بحثا عن الحياة» كتب يصف بليس إذ حافظ على موقف متسق من الولاء للحكومة العثمانية القائمة فى ظل الاعتقاد فى أن لها حقا أن تطلب من الكلية بوصفها مؤسسة مرتبطة بالنظام التعليمى للإمبراطورية ، موقف الطاعة والانصياع ، وبعد الحرب علمت مكجلفارى بالجهود الكاملة التى كان قد بذلها بليس فاعتذرت له ، ولكن الغبار الذى أثير حول مجاراة السلطات التى كانت تحكم

بيروت عصف بالكلية منذ ذلك الحين فصاعدا . لقد كان اتخاذ موقف أخلاقى مثالى معناه أن تغلق الكلية منذ وقت طويل ، بينما أدى التعامل مع العسكرتاريا العثمانية (ومن بعدهم الاستعماريين الفرنسيين ثم بعد ذلك حركة المقاومة الفلسطينية فى لبنان على نحو ما اضطرت الجامعة مرارا إلى سلوكه) إلى تعريض إدارتها وأساتذتها لتهمة مداراة العناصر المحلية . وفى عام ١٩٩١ ، تناول ويليام برنز من كبار مساعدى وزير الخارجية الأمريكية السابق جيمس بيكر لشئون الشرق الأوسط هذه الأزمة التى عاناها المستعربون فقال «العالم العربى يمكن أن يكون مكانا سيئا ولكن المستعرب هو إنسان لا يملك ترف التنظير وهو يقف على الحواف والهوامش ، إن عليه فى حقيقة الأمر أن يعيش هناك ويعمل وحده ويتعامل مع هذا الواقع الذى لا يمكن تقصى أبعاده».

وإلى جانب الدمار الذى لحق أوروبا ، فإن المجاعة التى أصابت بلاد الشام كان عليها أن تتنافس أيضا لكى تحوز الاهتمام مع كارثة إنسانية كبيرة أخرى تمثلت فى القضاء على ما يزيد على مليون من الأرمن بواسطة السلطات التركية فى الجزء الشرقى من آسيا الصغرى عام ١٩١٥ ، وكان المبشرون الأمريكيون فى تلك المنطقة هم أول من أبلغ العالم حول ما كان

يحدث هناك من خلال إشارات مبطنة فى الرسائل التى كانوا يبعثون بها إلى الوطن .

«ويليام نسبيت تشامبرز» خريج برينستون وهو مبشر مجمعى يتذكر «أنها كانت تجربة مهمة عندما كان المرء يدخل فى جدل مع عصبة عازمة على إراقة الدم وسلب الأموال حيث كانت شهوة الدم تطل من العيون» وقد وصف تشامبرز كيف أنه حاول إنقاذ قسيس أرمنى إلا إن واحدا من عصبة الأتراك أطلق الرصاص على القسيس فى ظهره بينما أغمد آخر خنجرا فى الجانب الآخر من جسد الرجل ومن ثم «سقط بين ذراعى جثة هامدة» .

هذه التجربة وغيرها دفعت تشامبرز إلى أن يكتب رسالة إلى واحد آخر من خريجى برنستون هو الرئيس ودرو ويلسن شخصيا قال فيها «كم يود المرء لو أن دولة كالولايات المتحدة تصبح قوية فى البر والبحر لدرجة تحول بين حكومة كتركيا وبين أن تتجاسر يوما على أن ترتكب مثل هذه الجريمة البشعة» ، وكان المطلوب على نحو ما نصح به المبشر المجمعى بلحيته البيضاء هو سياسة خارجية أمريكية تمتشق فى يد «بندقية ضخمة بينما تمد يدها الأخرى وهى تحمل الإنجيل» .

والحق أن الرئيس الأمريكى وقد أسعده الانتصار على تركيا ، ثم أغضبته أحابيل البريطانيين و الفرنسيين التى وصفها الرئيس

ويلسن بأنها عملية سباق يثير الاشمئزاز تماما على بلاد الشام ، كان بدوره يتطلع إلى الانصياع لنصيحة تشامبرز وغيره من المبشرين لكى ينضم إليهم فى جهد يرمى إلى إعادة صياغة العالم على نسق أمريكا وصورتها ، وعليه ، ففى عام ١٩١٩ أوفد ويلسن هنرى كينج رئيس كلية أوبرلين فى أوهايو وتشارلس كرين ، وهو مليونير من شيكاغو كان أبوه قد كون ثروة فى صناعة المرافق الصحية إلى سوريا لاستطلاع الرغبات السياسية للسكان المحليين . لجنة كينج - كرين كما تذكر فى التاريخ كانت فى حقيقتها لجنة كرين - كينج بمعنى أن تشارلس كرين كان العنصر المهيمن والقوة الدافعة فيما كان هنرى كينج بمثابة القوة التابعة.

فى شخص تشارلس كرين نرى نوعية جديدة من الأمريكيين اجتاحت العالم العربى تختلف بصورة ما عن نوعية المبشر : شدة الدعاية وقلة العوائد . هكذا فبينما تشكل لجنة كينج - كرين مجرد حاشية على متن التاريخ ، إلا أن تشارلس كرين يستحق الوقوف عنده بالوصف .

فى مقالة كتبت فى الخمسينات يقول كريستوفر راند وكان من ألمع المراسلين الخارجيين لجريدة نيويورك هيرالد تريبيون القديمة إن «من أسوأ خطايا زملائه الصحفيين هو ذلك الاتجاه الذى

يدفعهم للنظر إلى الشرق بوصفه مجرد خلفية مثيرة للاهتمام بالنسبة لشخصية الإنسان وتلك نوعية من الأنانية وربما من الرومانسية يتصف بها من اسميهم «طيور الأعشاش» ، رجال دأبوا على جمع نتف من آسيا وكأنما يزينون بها أعشاشهم وهم ينغمسون في دراساتهم عاكفين على أطباق وأيقونات ورماح ومخلفات وأوان من الفخار أو الصيني وغير ذلك من التحف الصغيرة . إنني أربط هذه الموجة بمعاصري الرئيس الأسبق تيودور روزفلت» .

روزفلت كان بطبيعة الحال منشئ هذه النوعية من الأمريكيين حيث كان يعود وسط جلبة إلى الوطن من الأدغال الأفريقية وغيرها من الأماكن الغريبة ومعه عينات يضمها إلى مكتبته وإلى نادي هارفارد ومؤسسة متحف سميثونيان . وفي أيام روزفلت كان كل من يملك المال للسفر إلى تلك الأصقاع الغريبة ويعود بأشياء أغرب ينظرون إليه أتوماتيكيا وكأنه خبير بها . هكذا يقول راند «كانت تلك طريقة رخيصة لشراء دبلومة» بل إن مثل هذه الوصمة كان يمكن وراثتها . الرئيس فرانكلين روزفلت كان يتصور أنه على معرفة جيدة بالصين لمجرد أن أحد أسلافه كان في يوم من الأيام يباشر تجارة من نوع ما حول منطقة هونج كونج . وكم

كان هذا يتفق مع العصر الذهبى عندما كان لدينا فى أمريكا طبقة عليا محدودة العدد لكنها تفرض وصايتها على الآخرين وكان أعضاؤها يستطيعون الاقتراب من أى فرد ومعالجة أى شئ من خلال ما يتوافر لديهم من صداقات شخصية أو إجادة التعرف على الناس والأشياء .

تشارلس كرين كان جزءا من ذلك العصر الذهبى ، ورث أموالا عن أبيه وسافر باستمرار دون حاجة للعمل لكى يكسب عيشا وكان يصف ملاحظاته على الثقافات والحضارات الأجنبية بأنها «دراسات» برغم أنه لم يتوافر لديه تعليم منظم ولم يكن يتكلم أى لغة أجنبية .

كانت روسيا أول هدف شغف به كرين . يكتب ليو بوكاك الذى وضع سيرة كرين ، فيقول «كانت تجمعات الأصدقاء حول سماور للشاى هناك تتيح له من الغبطة لدرجة أن يحمل هذه العادة ليكررها فى الوطن ويبدى فى ذلك قدرا كبيرا من الاعتزاز عندما يقدم الشاى لضيوفه من سماور .

كان أكبر جاذب لروسيا فى عين رين هو كنائسها التى تتلألأ بالذهب والأيقونات ، ولم يطل به الأمد حتى أصبحت من هوايته جمع أيقونات دينية من روسيا ، ولأنه كان أمريكيا ثريا فى روسيا

فى بدايات القرن ، فقد اجتمع إلى القيصر نيقولا الثانى وأصبح من أشد مؤيدى روسيا فى حربها ضد اليابان وفى دعايتها الحربية التى دفعت بها تهمة معاداة السامية (كان يعتبر أن المذابح التى قادها القوزاق ضد اليهود مجرد مضايقات) . هذه العواطف الثقافية أفضت بتشارلس كرين إلى أن يحب بسهولة ويكره بسهولة . وكانت عداوته لليابان بسبب انتصارها على روسيا هى التى شجعت شغفه الصين بوصفها العدو التقليدى لليابان ، قام بزيارات عدة إلى الصين حيث التقط «بعض تعابير قليلة» فى لغتها مما أضفى عليه سمعة المرجع الثقة فى شئون تلك البلاد ، وأفضى بالرئيس الأمريكى ويليام هوارد تافت إلى تعيينه وزيرا مفوضا لأمريكا لدى الصين .

فى تلك الأيام كانت مهام السفارة فى الصين لا تعدو أكثر من إضافة معلومات أساسية مثيرة للاهتمام إلى شخصية المرء . أو هى بمثابة أسلوب لأحد السادة كى يمضى الوقت ذاته . ولقد نصح واحد من العارفين بالأمور صديقه كرين بأن يتخذ من التصوير الفوتوغرافى هواية له ، فلن يكون لديه ما يفعله فى بكين، والحاصل أن كرين لم يذهب فى نهاية المطاف إلى الصين ، إذ تراجع الرئيس تافت عن التعيين أولا لأن وزارة الخارجية الأمريكية

حتى بمعايير ١٩٠٩ كانت ترى فى كرين شخصا مشاغبا ومشغولا وثانيا لأن الرئيس تافت نفسه صدم إزاء الكراهية السافرة التي كان كرين يضمرها بالنسبة إلى «اليابانيين واليهود» مما جعله يخلص إلى أن كرين سيكون «تعيينا خطرا» ولم يفت هذا فى عضد كرين ، بل أصبح أكبر متبرع فى الحملة الانتخابية للرئيس ودرو ويلسن سنة ١٩١٢ من ثم أصبح من أقرب أصدقاء الرئيس (سيكون أيضا من حملة نعش الرئيس ويلسن فى جنازته). ولقد كان ويلسن يلتمس آراء كرين بشأن روسيا وكان صاحبنا يقدمها بحرية تامة . كان كرين يشعر أن الروس شعب برئ تماما من الوحشية ، ومن ثم فالبولشفيك (الشيوعيون) جماعة لا سبيل إلى أخذهم على محمل الجد . ولأن هؤلاء القوم (يعنى يهود أمريكا) يسيطرون على الصحافة وأجهزة التعبير عن الرأى العام فإن أمريكا لا تحصل على صورة دقيقة لما يحدث فى روسيا ، فى واقع الأمر فإن كرين ، كما أوضح كاتب سيرته لم يكن لديه اهتمام حقيقى قط بالسياسة فى روسيا التى كانت بالنسبة له انحرافا مرهقا عن شغفه الشديد بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية والقطع الفنية التى أبدعتها والتى كان عاكفا على جمعها .

عرض ويلسن على كرين منصب السفير لدى روسيا ، وهو ما اعتذر عنه كرين إذ كان اهتمامه قد تحول إلى محنة الأرمن فى

آسيا الصغرى حيث أصبح مشاركا مع كليفلاند دودج والد بايارد والمبشرين المجمعيين فى تمويل وتنظيم جهود الإغاثة . ثم انضم كرين إلى مجلس أمناء كلية روبرت فى القسطنطينية (اسطنبول) وهى معهد أنشأه المبشرون قبيل سنوات من إنشاء الكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الأمريكية) . وقد انغمس كرين فى شئون الشرق الأوسط فى نفس الوقت الذى كانت المنطقة تشهد فيه المعاناة الإنسانية الكبرى فيما كانت مؤامرات البريطانيين والفرنسيين قد بدأت فى تخريب أهداف الرئيس ويلسن فى تقرير المصير لأهل سوريا الكبرى وغيرهم . وكان من الطبيعى أن يتبنى كرين نفس كراهية المبشرين للبريطانيين والفرنسيين ومن ثم كان طبيعيا أن تنمو لديه عاطفة من المحبة للعرب وثقافتهم من النوع الذى كان قد وقر لديه بالنسبة إلى الروس والصينيين من قبل ★ .

فى عام ١٩١٩ أوفد الرئيس ويلسن صديقه كرين رئيساً للجنة أمريكية تتولى توثيق ما يريده أهل سوريا الكبرى أنفسهم فى مجال السلام . وفى رسالة بعث بها إلى زوجته كورنيليا ، لاحظ

★ ربما كانت هذه المحبة للعرب وثقافتهم سببا فى ما لقيه كرين وسيرته من تحامل من المؤلفين والمؤرخين الامريكيين «المترجم» .

كرين أن ثمة «شعورا واضحا» بين صفوف العرب الذين التقى بهم بتهديد من جانب اليهود المحدثين والمتطفلين ، وفي واقع الأمر فإن لجنة كينج - كرين أوصت بالتخلي عن فكرة إيجاد وطن قومي يهودي وبأن تفرض قيوداً صارمة على الهجرة اليهودية وأن تصبح فلسطين جزءا من دولة سوريا يتم حكمها تحت انتداب أمريكي أو بريطاني ، دون أن يكون للفرنسيين دور في أي حال. ولقد دفع كرين ، مثل تشامبرز ،المبشر المقيم في آسيا الصغرى ، بألا تعود أمريكا إلى أسوار العزلة السابقة بل تستخدم قوتها لخير السكان من أبناء منطقة الشرق الأوسط .

لكن هذا لم يحدث : فرنسا وانجلترا قسمت سوريا ، أما أمريكا التي كانت قد بعثت شبابها ليقاتلوا ويموتوا في أوروبا فلم يقدر لها سوى أن تشهد سلاما يائسا ينبثق عن الانتصار الذي تحقق ثم تجد تجربتها الأولية بوصفها رجل الشرطة في العالم تجربة كئيبة بكل معنى ومن ثم سارعت بالانسحاب إلى داخل ذاتها مرة أخرى وسرعان ما أدى زئير الأطلسي إلى إخماد صيحات الحرية في الشرق الأوسط والبلقان بعد أن استطاع لمدة وجيزة من الزمن أن يستأثر باهتمام الرأي العام . هذا الوضع ترك كرين وأصدقاءه المبشرين وهم من الإحباط في غاية. لكن

شغف كرين بالعرب لم يكن ليفارقه ، فقد بدأ دراسة شخصية للتراث والحضارة الإسلامية ، مما أخذه في نهاية المطاف إلى أسفار في الهند وجاوة ، ثم واصل جمع القطع الفنية ليودعها في بيته . هذا التعاطف من جانبه لم يكن سرا ، فقد اجتذب يوما في دمشق حشدا من مئات العرب المرحبين الذين دعوه إلى مسجدهم وهم يهتفون عاشت سوريا مستقلة ، ولقد ظلت شخصية كرين ترى باستمرار في الشرق الأوسط بقبعته السوداء ولحيته البيضاء وإطلالته التي تجمع بين العطف والكبرياء . أصبح واحدا من أوائل الأمريكيين الذين قدر لهم أن يخترقوا أبواب صنعاء التي كانت تنتمي للعصور الوسطى في اليمن ، حيث أصبح صديقا للإمام ووافق على تمويل أول عملية للتنقيب عن النفط هناك . وعمل كرين أيضا مع جاك فيلبي لمساعدة الملك عبدالعزيز آل سعود ، وهو صديق آخر لكرين ، لبدء عمليات التنقيب عن النفط في العربية السعودية .

يكتب مؤلف سيرته فيقول : «أبرز تحيز كان يسيطر على فكر كرين خلال سنواته الأخيرة تجسد في بغضه غير المحدود لليهود . إذ حاول كرين أن يقنع الرئيس فرانكلين روزفلت وكان قد انتخب حديثاً أن يرفض مشورات فيلكس فرانكفورتر وأن يتحاشى تعيين

يهود آخرين في مناصب حكومية .وكان كرين يتصور أن ثمة محاولة على مستوى العالم، يقوم بها اليهود لتشويه حياة الأديان كلها ، وشعر أن إحباط هذه المخططات لن يكون من القوة بمكان إلا بواسطة ائتلاف بين المسلمين والروم الكاثوليك. وفي عام ١٩٣٣ اقترح كرين بالفعل على الحاج أمين الحسيني مفتي القدس أن يبدأ المفتي محادثات مع الفاتيكان لتخطيط حملة مناهضة لليهود .

أدى هذا إلى أن وقر لدى كرين إعجاب شديد بأدولف هتلر الذي رأى كرين أن ألمانيا في عهده أصبحت «الحصن السياسي الحقيقي للثقافة المسيحية». من ثم كان من السهل أن يحظى بمقابلة مع الفوهرر كما سبق له بالنسبة لقيصر روسيا . وقد تيسر ذلك بحكم معتقدات رجل مثل كرين والوسائل المالية التي كان ينعم بها . وجد هتلر وكرين أنهما يتشاركان في كراهية للبريطانيين والفرنسيين وكذلك لليهود . وآخر رسالة لكرين عن الشئون العالمية قبل أن يموت كانت إلى هتلر يوجه فيها اللوم لليهود على المشاكل التي نجمت في الشرق الأوسط . في ذلك الوقت كان كرين برغم كراهيته للبولشفيك قد أعلن عن مساندته لعمليات التطهير التي قام بها ستالين ضد اليهود في روسيا السوفيتية.

ولقد يلحظ القارىء أن جورج أنطونيوس قد أهدى كتابه «اليقظة العربية» إلى «تشارلس ر. كرين ، الذى يكنى بحق باسم هارون الرشيد مع المودة» . كان كرين شخصية محببة بين كوكبة من المثقفين العرب مسيحيين ومسلمين على السواء ومنهم أنطونيوس نفسه الذى كان قد عمل بين حين وآخر مترجما لكرين. وفي واقع الأمر ، فإن كتاب أنطونيوس الكبير «اليقظة العربية» هو الذى قدم لأول مرة وجهة نظر العالم العربى الحديث إلى العالم الأدبى فى الغرب و قام كرين بتمويله . إن تشارلس كرين لم يخدع العرب ، لكنه فعلها دون قصد منه عندما أعطى إلى أنطونيوس وغيره من المثقفين العرب الانطباع الخاطىء بأن معظم الأمريكيين يشاركونه حبه الرومانسى للعرب مقرونا ببغض عاطفى متساو لليهود . لم يكن الأمر بالتأكيد على هذا الحال فيما بين الأمريكيين بعامة ولا كان على هذا الحال تماما بين صفوف جالية المغتربين الأمريكيين فى بلاد الشام .

كانت الضغوط التي يعانيها هوارد بليس فى إدارة الكلية البروتستانتية السورية تحت الاحتلال التركى وبعد ذلك ضغوط الدفاع عن قضية العرب فى مؤتمر الصلح فى فرساى أكثر مما تحتمله قواه وقد عاد من أمريكا فى عام ١٩١٩ بعد علاج طبى ،

وتوفى بعد ذلك بوقت قصير من جراء السل فى منطقة ساراناك ليك ، نيويورك ، وسط أفراد عائلته . وقبيل ساعات من وفاته كان قد تكلم مطولا باللغة العربية ،لغة بلاد الشام التى شهدت مسقط رأسه ، وكان قد سمع العربية أولا وهو طفل ، إذ أن والده دانييل بليس كان يتحدث بها إلى والدته لكى تتعلم هذه اللغة بوتيرة أسرع .

فى السنة ذاتها غيرت الكلية البروتستانتية السورية اسمها رسميا لتصبح الجامعة الأمريكية فى بيروت ، وبعد سنتين من البحث قام مجلس إدارة الجامعة بتعيين بايارد دودج البالغ من العمر ٣٤سنة بوصفه أول رئيس للمؤسسة التى حملت الاسم الجديد . وقد يبدو للناظر إلى الأمور من الخارج أن هذا الاختيار حمل فى طياته قدرا من المحسوبية ، فلم يكن بايارد دودج بمثابة حفيد فقط لأول رئيس لمجلس أمناء الكلية ولكنه أيضا كان زوج مارى بليس ، ابنة هوارد بليس ذاته وحفيدة دانييل بليس .لكن الاختيار فى واقع الأمر جاء طبيعيا بل وملهما وبحلول عام ١٩٢٢ كان دودج الشاب من العناصر المخضرمة الشديدة المراس فى بيروت حيث أثبت مواهبه القيادية فى أعمال الإغاثة وقت الحرب. وفضلا عن ذلك ، ومع أن مواهبه الأخرى كانت ستتبدى مع

مـروروالزمن ، إلا أنه كـان نابغـا فى فن الحلول الوسط على نحـو شديد البراعة ، وفى قدراته لمسايرة الظروف السيـاسـية التى لم تكن بالضرورة ودية إزاء الأمريكيين وفى ظل بايارد دودج ، تصل الجامعة الأمريكية فى بيروت ، بل وتصل حركة الاستعراب من المبشرين الأمريكيين آخر مرحلة إنجاز صادق وصاف لها قبل أن يتغشى سجلها تحديات معنوية وسياسية صاحبت مولد إسرائيل .

وعلى غرار صديق والده تشارلس كرين ، لم يكن بايارد دودج من العناصر المتطرفة أو من الشخصيات الهازلة فى حالة دودج تمثلت وتشابكت كل عوامل الحرفة بصورة صحية فى غالب الأمر، كان قد نشأ نشأة طيبة وتلقى تعليما رفيعا فى برنستون ودير اللاهوت المتحد ، يكاد يتفجر بنوع من المثالية الدينية العملية ، كان مفكرا شغوفا بالجماليات الثقافية والعمرانية فى الثقافة العربية. موقف دودج تجاه دور الجامعة الأمريكية فى بيروت فى بلاد الشام فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى تلخصه هذه الكلمات التى لاتختلف كثيرا فى معناها عن تلك التى سبق وأدلى بها دانيـيل بليس فى عام ١٨٧١ و كـان ذلك عند وضع حـجـر الأساس لمبنى حرم الجامعة .

«نحن حـريصـون على أن نعلم طلابنا أن ينظروا إلى القـيم والمثل التى يعتنقها آباؤهم بكل مودة وتعاطف وعلى أن نكرم كل

الذين يتحملون الواجبات الرسمية فى إطار الطوائف التي ينتمون اليها وأن نحترم دوافع كل الشعائر والفعاليات وأن نوقر أماكن العبادة الأصيلة ولكننا فى الوقت نفسه حريصون على العمل جاهدين لكى نبث الحياة في هذا كله ، فى ضوء حياتنا الحديثة ، بحيث يصبح الدين قوة عملية وحقيقية فى بعث الروح الإنسانى وفى إعادة بناء العالم بعد أن مزقته الحرب» .

ولكن دودج كان يشعر فوق هذا كله بأن الجامعة الأمريكية «تشكل صلة بين الشرق والغرب أو قناة لتبادل الأفكار بين الطرفين» وكان على استعداد تماما لأن يتنازل عن درجة من المضاهاة بين ما استطاعت أمريكا أن تحققه معنويا وروحيا لشعبها وبين ما استطاع عرب الشام أن يحققوه ، ولأن سوريا الكبرى برغم ما فعله بها الاستعمارالبريطانى والفرنسى ، كانت ما برحت موقعا حافلا بالإمكانيات حيث يستطيع أى امرىء عاقل أن يشعر بالتفاؤل بالمستقبل فإن التوجه الثقافى لدودج لم يكن ليثير أى استغراب فى ذلك الحين .

فى ظل بايارد دودج أصبحت الجامعة الأمريكية فى بيروت بالمعنى السياسى والثقافى أكثر نفوذا من الحكومات البريطانية أو الفرنسية فى الشرق الأوسط ، وكان ذلك إنجازا مرموقا بكل معنى فى ضوء ما عمدت إليه الحكومة الأمريكية من تراجع من

المنطقة وفى ضوء غياب أى وجود حقيقى أمريكى يعتد به بعد ذلك عاودت الجامعة الأمريكية فى بيروت فى السنوات الفاصلة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية إلى تشكيل شخصية لها مستقلة عن أصولها الأمريكية ذاتها .

ومن أول الأعمال التى قام بها دودج بوصفه رئيسا للجامعة أن أمر بتعيين مدرسين دون النظر إلى جنسيتهم مما جاء بأساتذة عرب وأوروبيين إلى هيئة الجامعة فيما كانت جامعة القديس يوسف الفرنسية فى بيروت الشرقية المسيحية مقصورة على الجزويت الذين كانوا يبثون فى تلاميذهم روح الولاء لفرنسا ، فإن جامعة دودج الأمريكية فى بيروت الغربية المسلمة كانت بصورة مميزة دولية فى لهجتها ومتعاطفة مع القومية العربية ★ ولقد

★ هذا فيما كانت الكلية الدولية الأمريكية فى أزمير قد وجدت ان المناخ الوطنى فى جمهورية مصطفى كمال أتاتورك التركية لايرحب بها لدرجة أن باعت ممتلكاتها وأصبحت منتسبة إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت ، كانت أزمير لؤلؤة منطقة «الليفانت» فى آسيا الصغرى ، حيث كان سكانها من اليونانيين قد قدموا دعمهم إلى أوائل المبشرين الأمريكيين ومنهم بلينى فيسك وليفى بارسونز . على أن الأمريكيين الذين كانوا يشعرون بالاستياء تجاه تركيا بسبب مذبحة الأرمن التى وقعت حديثا ، وبحكم تصرفات السلطات التركية فى سوريا الكبرى خلال الحرب العالمية الأولى ،لم يكونوا ليحملوا وهم فى بيروت بأن القومية العربية إذا ما وضعت فى حيز الممارسة قد تصبح بنفس الصعوبة فى التعامل معها على قدر الصعوبة التى أثبتتها القومية التركية .

انطلق نمو الجامعة الأمريكية فى بيروت فى فترة ما بين الحربين بفعل المنح التى تلقتها من مؤسسة روكفلر والتى رتب لها دودج وبدأ تدفقها فى عام ١٩٢٤. وقد توجه كثير من هذه الأموال إلى مؤسسات التعليم الطبى التى أنتجت ولاتزال أكثر مما تمس الحاجة إليه بالنسبة لرجل الشارع العربى وهم الأطباء المدربون ومن ثم ارتفعت سمعة الجامعة الأمريكية فى المنطقة. ويقول الأستاذ جون دينوفو «إن نفوذ الجامعة تخلل كل بلدان المنطقة وما حولها ، ويشهد بذلك الموقف الودى الذى اتخذته حيالها الطبقات العليا من العرب حيث زاد الاحترام الذي استأثرت به الجامعة ولقد عمدت الحكومات فى سوريا والعراق وفى شرق الأردن وفلسطين وفي العربية السعودية والسودان ، وغيرها من مواقع الوطن العربي إلى إرسال أنبغ طلابها إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت التى زودت تلك الأقطار البازغة بالصيادلة والعاملين فى مهن التمريض والمحاسبة والسكرتارية وغيرها ، فضلا عن الأطباء. وفى كل أنحاء الشرق الأوسط ، كانت الجامعة الأمريكية فى بيروت تحت قيادة بايارد دودج قد أصبحت تعرف على سبيل المودة بوصفها «ملكة الشرق العظمى» وقد وصف مؤرخ هارفارد الكبير جورج سارتون تلك الجامعة بقوله «معمل تفريخ أفضل الرجال ومؤسسة دائمة للخير وحسن النوايا» .

على أن السؤال هو إلى أى حد يمكن أن يكون هذا صحيحا إذا ما قسناه على أساس الذكرى الموجعة لرحلة لفريق الكرة التابع للجامعة قام بها إلى مصر فى عام ١٩٣٠ ووصفها ستيفن بنروز فى كتابه بعنوان «فى سبيل الحياة» لقد استقل فريق الجامعة الأمريكية فى بيروت القطار إلى القاهرة ، ولأن عطلة الربيع كانت قد بدأت ، فقد انضم إلى الفريق بعض الطلبة فى فلسطين «كانت عربة القطار أشبه ببرج بابل حيث كنت تسمع الألسنة تنطق بالعربية والإنجليزية والعبرية والفرنسية..» وإلى الجنوب من حيفا كان ثمة قلق يساور كل فرد : هل سيلحق كوهين بالقطار ؟ وكان كوهين هو نجم الجناح الأيمن للفريق ويعيش فى تل أبيب على مسافة من خط القطار ، وكان محتملا أن تفوته الوصلة بين القطارين ولذلك فعندما وقف القطار عند ملتقى الخطوط زاد التوتر لكن كوهين كان هناك ولعل الصيحات التى تصاعدت وقتها أزعجت سكان اللد الطيبين رفعوه على الأعناق وأدخلوه إلى القطار من النافذة وكان الفرح غامرا ، فها هى ذى الجامعة الأمريكية لبيروت تستطيع أن تهزم المصريين .

«فى ذلك الوقت كانت المشاعر العربية اليهودية قد وصلت إلى مرحلة من الخشونة ولكن كوهين لم يكن بالنسبة للعرب فتي يهوديا بل كان عضوا فى فريق وقبل أن يصل القطار إلى مرحلة القنطرة

شرق ، شوهد نائما فى القطار وقد أسند رأسه إلى حجر دارس من الطلاب المسلمين» .

لم يكن وجود اليهود أمرا غريبا فى الجامعة الأمريكية فى بيروت فى عقد الثلاثينات لقد كان أوركسترا تل أبيب السيمفونى ما يفتأ يقدم حفلاته فى حرم الجامعة ، وكانت الموسيقى فى القداس اليومى أمرا يتذكره بكل قوة منذ أيام الصبا ، الدبلوماسى الأمريكى تالكوت ستيل حيث كان يقودها عازف الأورغن وهو يهودى روسى . بل إن تجارة البرتقال الاسرائيلية تدين بدايتها فى مرحلة ما قبل قيام الدولة فى فلسطين إلى مساعدة قدمها خريجو الجامعة الأمريكية فى بيروت ، وبرغم أن نمو الجامعة العبرية فى القدس كان يعنى تنافسا مع الجامعة الأمريكية فى بيروت إلا أنه كان فيما يظن من النوع الودى أكثر مما كان يمثله التنافس مع الجامعة الفرنسية - جامعة القديس يوسف فى الناحية الأخرى من المدينة اللبنانية .

هنا كانت قيم أمريكا وبالذات قيم منطقة نيو إنجلند بكل مجدها ، وهناك عبر المحيط الأطلنطى فى بلدة دير فيلد بولاية ماساشوسيتس . كان ثمة مجمعى آخر هو فرانك بودين يعلم تلاميذه فى أكاديمية دير فيلد أن المعهد الذى ينتمون إليه كان أكبر منهم ذاتهم ، بمعنى أنه يمثل كونا روحيا وأخلاقيا على أعلى

مستوى يفوق المجتمع ككل ومن ثم يمكن أن يكون قوة موحدة للعناصر قاطبة. وما كان يدرسه فرانك بودين وهو واحد من عظماء مديرى المدارس فى التاريخ ، كان يفعله بايارد دودج بطريقته الخاصة فى الجامعة الأمريكية في بيروت. من هنا كان بوسع الفتى كوهين أن يسند رأسه إلى حجر شيخ مسلم ، إذ كان كل منهما يعرف أنه بوصفه تلميذا بالجامعة الأمريكية فهو عضو فى صفوة حقيقية بمعنى الكلمة ولو كان للمرء أن يقف عند لحظة فى أوج حياة المبشرين مما لا يمكن قياسه كميا ، فإنها تلك اللحظة فى القطار إلى مصر حيث اليهود والمسلمون ★ تربطهم وحدة روح الفريق على الطريقة الأمريكية برغم الشبح الجاثم على بعد أميال قليلة من الصراع والاضطراب بين الجاليات والطوائف.

على أن نمو وانجازات الجامعة الأمريكية لم يأت بسهولة ، فالمعاهدات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى التى أعطت لفرنسا الانتداب على سوريا كانت أسوأ أنباء يمكن أن تتلقاها جالية المغتربين الأمريكيين الذين كان عداؤهم للفرنسيين سافرا وشديدا كما استبد بهم الرعب وهم يرون سوريا الكبرى الغالية عليهم وقد قطعت أوصالها إلى ست قطع لصالح البريطانيين والفرنسيين ثم

★ طبعا فى تلك الفترة ثلاثينات القرن ، لم يكن هناك كيان اسمه اسرائيل «المترجم».

هاهم الأمريكيون يتعين عليهم أن يعايشوا الفرنسيين الذين عمدوا إلى اتباع أساليب التآمر والوحشية من أجل المزيد من تجزئة الغنيمة المتبقية فى أيديهم .

أما الفرنسيون الذين كانت تجربتهم الاستعمارية مازالت حية فى الأذهان فى الجزائر وتونس فكانوا قد أشعلوا نيران بغضائهم إزاء القومية العربية السنية وقصدوا عمدا إلى إثارة الولاءات الطائفية لكى يحولوا دون قيام شوكة هذه القومية فى سوريا الكبرى، من ثم أعطوا استقلالا ذاتيا إلى المواقع الجبلية فى جبل الدروز واللاذقية حيث يعيش الدروز والعلويون ، وجعلوا هذه النحل الإسلامية الباطنية مسئولة فقط أمام سلطات الانتداب وليس أمام الحكومات السنية فى دمشق، بالإضافة إلى ذلك ، فإن العلويين والدروز وسائر الأقليات كانوا يدفعون ضرائب أقل نسبيا مما تعين أن تدفعه الأغلبية السنية بينما كانوا يحصلون على معونات إنمائية أكبر من الحكومة الفرنسية وشجع الفرنسيون أيضا تجنيد أبناء الأقليات فى جيوش احتلالهم التى سميت بالقوات الخاصة فى سوريا، أما الأغلبية السنية العربية من جانبها فكانت فى حال من القمع الشديد ، فمنطقة دمشق كانت تعامل بوصفها منطقة احتلال تجول فيها دوريات السنغاليين الشديدة المراس يساعدها

فى ذلك العلويون والدروز والأكراد. أما السنيون وأصدقاؤهم الأمريكيون زيضا فكانوا يتصورون أنفسهم من جانبهم وكأنهم تحت الاحتلال ،كأنما لم يغادر الأتراك الساحة ، خاصة لأن الفرنسيين كانوا قد أنشأوا دولة مستقلة فى منطقة لبنان وكان ذلك عملا زاد من تجزئة سوريا الكبرى ،ووضع المزيد من السلطة والنفوذ فى يد الموارنة الذين كانوا موالين للفرنسيين ومعادين للبروتستانت .

دودج عمد بحكمة إلى إدارة خده الآخر إزاء هذا كله ، ففى الطريق إلى بيروت لكى يتسلم رسميا رئاسة الجامعة الأمريكية فى بيروت توقف طويلا فى باريس لكى يرفع لغته الفرنسية إلى مستوى قدرته فى اللغة العربية ، وبعد ذلك وعلى مدى ما يقرب من عقدين من الزمن حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية ، حاول دودج أن يتقرب من المسئولين الفرنسيين ، بالضبط كما سبق أن حاول حموه ، هوارد بليس الراحل التقرب من الأتراك العثمانيين. ففى عام ١٩٤٠ عندما استولت حكومة فيشى الفرنسية على سوريا ، كان دودج واحدا من قلة من الأمريكان أو البريطانيين الذين بقوا فى بيروت خلال الاحتلال المؤيد للنازى حتى تبقى الجامعة الأمريكية فى بيروت فاتحة أبوابها. وبعد سنة من ذلك التاريخ ،

قامت قوات الحلفاء فى يولية ١٩٤١ بتحرير المدينة وتوقف شارل ديجول قائد فرنسا الحرة فى مسكن دودج لحضور حفلة شاى★ .

وكما كان الحال مع دانييل وهوارد بليس ، لم يكن كل شيء ينقصه الكمال فيما يبدو بالنسبة إلى بايارد دودج كان شأنه شأن أخيه التوأم كليفلاند طويل القامة ، أشقر ، خشن الملامح ، وصافى النظرات. وكما كان حال صديق أبيه ، تشارلز كرين ، كان هناك بين جوانحه ذلك الضوء الداخلى الذى تخيم عليه السكينة فضلا عن ذلك المزيج من الطيبة والكبرياء وكأنما يدل على حياة من النشاط الهادف فى ميدان اختاره بنفسه . إذ أن روح الاستقلالية ووفرة الثروة ورفعة التعليم ، كل هذا صرف عنه الحاجة لأى أنصاف حلول يصعب خيارها . إن ما كان يجهد

★مع ذلك فبالنسبة لعائلة دودج لم تكن الحرب العالمية الثانية قد انتهت ، ففى ٢٢ نوفمبر ١٩٤٤ قتل بايارد الابن وهو أحد أولاد دودج فى معركة ضد النازية فى فرنسا بعد أن ضحى بنفسه لكى ينجو الفصيل الذى كان ينتمى إليه. وقد منح بايارد هذا بعد وفاته وسام القلب الأحمر والنجمة الفضية ، وبعد قراءة البرقية التى أبلغته بوفاة ابنه ، عاد دودج إلى مقعده فى حفل عشاء فى بيروت ولم يبلغ زوجته بالأنباء حتى صباح اليوم التالى عندما أصبح قادرا على أن يأخذها فى جولة ليوم بالجبال. كان الانضباط وروح الصبر على المكاره من خصائص العائلة الواضحة تماما .

هؤلاء البشـر ويسـاورهم القلـق بشـأنه كـان مـقـتـصـرا على كبريات الأمور وعظائمها .

كم سـعـد دودج بدراسـتـه للعـربيـة والديانة الإسـلاميـة التى اسـتغرقت حياته كلها . كان يكرس سـاعات طـوال لنقـاش حول القرآن باللغة العربية مع العرب . منير سعادة ، الذى كان مدرسا بإحدى ثانويات بيـروت ، يقـول عن دودج «إنه انغمـس فى تاريخ العـرب لدرجة أنه أدرك أن ثمـة أشـياء عظيـمة سـوف تأتى من هذا الجـزء مـن العـالم ، وأراد أن يكون بدوره جزءا منها بنفس الطريقة التى أراد بها أن تكون الجامعة الأمريكية جزءا من يقظة الشرق الأوسط» .

آرثر كلوز وبيل ستولفوز شبا عن الطوق فى بيروت في الفترة التى كان فيها بايارد دودج رئيسا للجامعة الأمريكية هناك . ولد كلوز في بيـروت عـام ١٩٢٥ ، سنة بـعـد سـتـولفـوز ، الذى كـان صديق صباه ، عائلة كلوز كانت فى سوريا منذ سنة ١٨٥١ عندما كان جده الأعلى لأبيه «وليم وود بريدج إيدى» ، وهو قسيس شـاب من الكنيسـة المشـيـخـية قـد أبحر إلى ميناء بيروت بعـد تخرجـه مـباشـرة من كليـة ويليـامـز . وقـد كـرس «إيدى» حـيـاته للعمل التبشـيرى وكتابة تعليقات على العهد الجديد باللغة العربية . أما

ابنه «ويليام كينج إيدى» ، وهو جد كلوز ، فقد أمضى كل حياته في سوريا باستثناء سنوات أربع أمضاهن فى جامعة برنستون .

وكما يقول كلوز نفسه ، فإن جده «تبنى العادات العربية التى تفضل الأبناء على البنات مما جعل الحياة صعبة لابنته وهى بالصدفة أمى شخصيا»

جدة كلوز ، إليزابيث نيلز نيلسون كانت ابنة القس هنرى نيلسون ، الذى كان واعظا فى قداس جنازة الرئيس الأمريكى أبراهام لنكولن فى موطن الرئيس نفسه فى سبرنجفيلد بولاية ألينوى . أما والدة كلوز ، دورا إليزابيث إيدى فكانت مثل بنات هذه العائلة الشديدة التميز قد أمضت حياتها فى أعمال تبشيرية فى سوريا . وينبغى فى هذا المقام أن يرد أيضا ذكر خال كلوز ، ويليام ألفريد إيدى وكان نجما فى مكتب الخدمات الاستراتيجية (وهو الذى تولدت عنه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية) خلال الحرب العالمية الثانية وقد واصل طريقه ليصبح الوزير المفوض الأمريكى لدى العربية السعودية وهو الذى تولى الترجمة للرئيس فرانكلين روزفلت خلال اجتماعه مع الملك عبدالعزيز آل سعود فى عام ١٩٤٥ .

يقول كروز «كانت أمى تتحدث العربية بطلاقة ، عشنا فى الجزء المسلم من بيروت وكانت علاقاتنا طيبة مع المسلمين والدروز

والروم الارثوذكس بأكثر مما كانت مع الموارنة . ولقد نشأنا فى بيئة متحيزة ضد الكاثوليك لأن الفرنسيين كانوا يحابون الموارنة وكانت المدارس الكاثوليكية تتنافس مع جامعة بيروت الأمريكية ، هكذا فأنت ترى أن الجامعة كانت مهد القومية العربية المناهضة للفرنسيين . وأما نحن (الأمريكيين) فكنا سعداء من موقعنا بوصفنا الطيبين الذين لا مصلحة لهم فى هذا الجانب أو ذاك . عائلتى كانت انجليزية النزعة ومؤيدة للبريطانيين ولتقرير المصير للعرب ، ولاسيما مبادئ لجنة كينج - كرين التى أيدت قيام دولة عربية فى فلسطين» .

«أما الموارنة فكانوا فى غاية الغرور» هكذا يضيف ستولفوز ويقول «كانوا جبليين فى غاية من صعوبة المراس يعرفون فن تحجيم الآخرين . وحتى الآن فإن المسلمين فى لبنان لا ينعمون بنصيب كامل من العدالة . أما الموارنة فهم نبت مصطنع باعتبار أنهم لم يعتبروا أنفسهم عربا بل من سلالة فينيقية» .

أيام الصبا السورية لكل من كروز وستولفوز انتهت عند اندلاع الحرب العالمية الثانية عندما عادت الكثير من العائلات المغتربة إلى الساحل الشرقى للولايات المتحدة . هذا هو الوقت الذى جعل كلوز وستولفوز وتالكوت سيل وابنى بايارد دودج (ديفيد وبايارد

الأصفر) وغيرهم من الفتيان «البيارتة» يرسلون إلى أكاديمية دير فيلد لتلقى تعليمهم الثانوى قبل أن يلتحقوا بجامعة برنستون (أو أمهرست فى حالة سيل) .

ولم يكن ثمة مكان أفضل بالنسبة لصبى فى مرحلة المراهقة ليقضى أربع سنوات فى أواخر الثلاثينات وبداية الأربعينات من دير فيلد الواقعة فى مغانى الرعاة فى غربى ماساشوسيتس . وأدى هذا المزيج بين بيروت الاغتراب وبين أكاديمية دير فيلد إلى أن أصبح هؤلاء الصبية يتمتعون بعقلية رفيعة ومناقب فاضلة إلى حد يقرب من الكمال . لكن أمريكا التى قدم إليها هؤلاء الصبية فى دير فيلد لم تكن أقل من أمريكا التى انتمى اليها مغتربو بيروت .. كان دير فيلد امتدادا لكل ما هو طيب في عالم البروتستانت البيض . وكانت الثلاثينات والأربعينات بحق أفضل فترة فى دير فيلد عندما كان ثلاثة أرباع تلاميذها يأتون من مدارس إعدادية خاصة . وهنا نستذكر عبارة جانيت ستولفوز : «فى برنستون وفى ول سليب فى المدارس الإعدادية كنا نذهب لا نكاد نصادف أى يهودى فى يوم من الأيام . كانت تلك أمريكا المختلفة حينذاك» .

عشية قيام الحرب العالمية الثانية ، كانت الجالية الأمريكية فى الشرق الأوسط قد وصلت إلى أوج وجودها . كان هناك ثلاث

مدارس أمريكية للبنات فى لبنان وحده . وإلى جانب الجامعة الأمريكية فى بيروت والجامعة الأمريكية فى القاهرة التى كانت قد فتحت أبوابها فى عام ١٩٢٠ ورأسها تشارلس واطسن الذى ترجع جذوره فى التبشير البروتستانتى فى مصر إلى عام ١٨٦١ فقد افتتحت شعبة لإعداد المعلمين ودائرة خدمة ريفية ومدرسة للدراسات الشرقية ملحقة بالجامعة الرئيسية . كل هذا أدى إلى أن أصبحت الجامعة الأمريكية فى القاهرة بسرعة محور النشاط التبشيرى الأمريكى فى مصر تماما كما كانت كذلك الجامعة الأمريكية فى سوريا الكبرى . وتماثلت الجامعتان فى اجتذاب أبناء المؤسسة الحاكمة في مصر فأصبحت حاضنة الوطنية المصرية ، تماما كما كانت الجامعة الأمريكية في بيروت حاضنة القومية العربية .

لكن مع رجفة الحرب التي عادت لتجتاح أوروبا من جديد ، عمد بايارد كينج إلى إبلاغ مجلس أمناء الجامعة الأمريكية في بيروت بأن الشرق الأوسط وصل إلى ختام حقبة من عمره ، وحتى برغم دور أمريكا في العالم العربي الذى كان إلى حد كبير أفضل من دور فرنسا أو إنجلترا من حيث أعمال الخير ، فقد أشار دودج إلى أن التوترات التى حلت من جراء القومية العربية سوف تشعر

بها أمريكا بدورها . أما الجامعة الأمريكية فى بيروت . وبالتالى مجمل الجالية من الوافدين الأمريكيين فى العالم العربى فقد ظلوا فى حال من الازدهار خلال الحرب العالمية الثانية لأنها استطاعت أن تقدم خدمات أساسية فى مجالى التعليم والرعاية الاجتماعية مع ابتعادها عن السياسة ، كان الوافدون يسايرون الاتجاه العام للرأى المحلى واستطاعوا مسايرة القوى التى كانت تعد نفسها على مسرح الأحداث ، ولم يكن لديهم حاجة للاعتذار عن الاجراءات التى تتخذها حكومتهم لأن واشنطن لم تكن تمارس نشاطا فى المنطقة على نحو ما كان الأوروبيون يفعلون . وفى حقيقة الأمر فإن دودج وغيره من الوافدين على المنطقة أرادوا وجودا حكوميا أمريكيا أكثر بروزا لكى يتنافس مع وجود الفرنسيين والبريطانيين . كانوا لا يزالون يأملون بل ويتصورون أنه عندما تجعل واشنطن وجودها محسوسا فى الشرق الأوسط فإنها ستفعل ذلك بما يعزز علاقاتها الخاصة مع العرب دون تعقيد تلك العلاقات . لكن الذى حدث بطبيعة الحال سيكون أمرا قاسيا بل سيكون مثل «الكوميديا الإلهية» . ثمة حركة أخرى كانت ليبرالية بدورها وكان لها قصدها السليم وكانت ذات طابع إنسانى كذلك لكنها كانت مدفوعة بمأساة بشرية من نوع وأبعاد سحقت

أمامها حتى منطق إنجيل البروتستانت وقدر لها أن تنفجر فوق رءوس هؤلاء الأمريكيين المغتربين فتؤدى إلي شعورهم بالمرارة والإحباط .

في عام ١٩٤٨ ، تقاعد بايارد دودج وكان في سن الستين إلى برنستون ، نيوجيرسي . وقد نشر دودج في أبريل من ذلك العام مقالة في مجلة «ريدرز دايجست» (المختار) عن أزمة فلسطين بعنوان «هل ينبغي أن تنشب الحرب في الشرق الأوسط ؟» هذه المقالة التي تألفت من ستة آلاف كلمة وأصبحت منسية ولا يكاد يعرفها أحد هي البيان التعريفي للمستعربين الأمريكيين بشأن مولد اسرائيل . وبرغم أن كاتبها حذر بقوله «ليس كل اليهود صهاينة وليس كل الصهاينة متطرفين» إلا أن الحركة الصهيونية في نظر دودج كانت مأساة لا تكاد تبشر بخير . لم يكن دودج معاديا للسامية ، بل كان يلوم رفاقه المسيحيين على التصرف بطريقة تجعل إحساس اليهود «باللاوطن .. إحساسا أكثر حدة». وفي واقع الأمر فإن محرري مجلة دايجست قدموا دودج بوصفه «صديقا بارزا للعرب واليهود» . أما مقولة دودج ضد الصهيونية فلا تنطلق من سياسات الحركة بل من المعارضة العربية لها، التي جعلت برنامج الصهيونية في نظر دودج غير واقعي ومن ثم

محفوفا بالخطر . وكان دودج يعلم أن مولد دولة يهودية سوف تتلوه سنوات وعقود من الصراع ، ومن تلك كتب دودج يقول «إن كل الأعمال التي تقوم بها هيئاتنا الأمريكية الخيرية التي لا تقصد الربح في العالم العربي - مؤسستنا للشرق الأدنى ، مبشرونا ، جمعياتنا للشبان المسيحيين والشابات المسيحيات ، كلية بوسطن اليسوعية التابعة لنا في بغداد ، كلياتنا في القاهرة وبيروت ودمشق ، كل هذا سوف يتهدده الإحباط والانهيار الكامل .. وكذلك أيضا سيكون امتيازاتنا النفطية» . وهو سيناريو قال دودج إنه سيساعد روسيا الشيوعية . ثم انطلق دودج ليقتبس من عبارات زميل وصفه بأنه خبير أمريكي في شئون الشرق الأوسط تقول «إن الروس ينوون إدخال آلاف مؤلفة من الشيوعيين الروس اليهود إلى الدولة اليهودية الفلسطينية» وبرغم أن دودج أحال بشكل عابر إلى المحرقة - الهولوكوست اليهودي ولم يكن عمرها قد زاد عن ثلاث سنوات (وقت كتابة مقالته) إلا أنه بدا ناسيا العواقب السيكولوچية والتاريخية الناجمة عنها بالنسبة للاجئين اليهود الأوروبيين في فلسطين ، وفيما اعترف بأن العرب لن يقبلوا قط بدولة يهودية ، إلا أن دودج ناشد اليهود أن يلقوا أسلحتهم ويدخلوا في محادثات مع العرب . وتنتهي المقالة باقتباس من

الإنجيل يقول «لا بالقوة ولا بالسطوة ولكن بروح من عندى هكذا يقول رب الجنود» ولم يبد دودج واعيا بما كان يراود يهود فلسطين الذين عاشوا فى معسكرات الموت من كوابيس وهم يقرأون العهد القديم بعيون مختلفة عن عيون مبشر بروتستانتى .

فى الخمسينات عاد دودج مؤقتا إلى الشرق الأوسط ليعيش فى القاهرة ومنها سيسافر إلى كل دولة عربية فى المنطقة وكذلك إلى اليونان وتركيا وباكستان والهند ، يقضى عيد الميلاد فى الخرطوم ، ويكتب فى القاهرة دراسة عن جامعة الأزهر ، ويشرف على نشر مقالات عميقة عن المسلمين فى العصور الوسطى ، ويحضر مؤتمرات وحفلات شاى يقيمها طلابه السابقون بالجامعة الأمريكية فى بيروت . ويحتفل به باستمرار فى كثير من العواصم العربية ويملأ مذكراته بأوصاف عن بازارات «لكناو» ★ وعن الطيور الغريبة فى أسيا . كان دودج يحصد ثمار حياة مكرسة للعرب وللثقافة الإسلامية . إسرائيل كانت المكان الوحيد فى المنطقة الذى لم يكن قط ظاهرا على خط سيره فى كل رحلاته . وعندما توفى دودج فى عام ١٩٧٢ قال صائب سلام رئيس وزراء لبنان من راديو لبنان إن «بايارد» دودج فهم الشعب اللبنانى

★مدينة فى شمال الهند . «المترجم»

والشعوب العربية ، كان واحدا منهم وعاش قضاياهم الاجتماعية والتربوية والقومية ..» كان دودج ، شأنه شأن العرب ، غير مستعد لا عاطفيا ولا سياسيا ، للتعامل مع حقيقة دولة لليهود فى الجزء من فلسطين الذى منح لهم بمقتضى قرار التقسيم للأمم المتحدة .

كان دودج يمثل بامتياز فى هذا الصدد جالية بيروت بأكملها ، ذلك لأن المبشرين البروتستانت الأمريكيين ، على نحو ما يلاحظ ريتشارد كروسمان ، عضو البرلمان البريطانى الذى شارك فى فريق أنجلو أمريكى للتحقيق فى مشكلة فلسطين فى عام ١٩٤٧ «كانوا يعارضون قضية الصهيونية مستندين إلى جميع الحجج التى كان يطرحها بصورة أعنف المسئولون البريطانيون المؤيدون للعرب فى الشرق الأوسط» . وإلى حد ما فعل أيضا نفس الشئ أبناء هؤلاء المبشرين ، ولنصغ إلى آرثر كلوز الذى تخرج من دير فيلد وبرنستون وأصبح من الموظفين الأمريكيين فى الشرق الأوسط .

«لقد جعلت اسرائيل من عملى أشد صعوبة ، أتذكر اليوم الذى فتحت فيه السفارة السوفيتية أبوابها فى دمشق وما كان لذلك أن يحدث بسهولة لو كان ثمة حل مختلف لمشكلة فلسطين . ومن دواعى الأمانة التامة أن أقول إننى تصورت أن خلق دولة

اسرائيل كان خطأ ، فمن الناحيتين المنطقية والأخلاقية أنا أستطيع أن أرى كيف كان يشعر اليهود بعد الهولوكوست ، لكن حل مشكلتهم تم التوصل إليه بصورة غير نزيهة ، إن الولايات المتحدة والبريطانيين والسوفيت خططوا للوصول إلى تقسيم فلسطين من خلال الأمم المتحدة» .

الباب الثانى

على أرض الواقع

الفصل الخامس

الدبلوماسي المحترف

في سبتمبر ١٩٤٧م كتب لوى هندرسون مدير مكتب الشرق الأدنى وشئون أفريقيا وجنوب آسيا فى الخارجية الأمريكية إلى وزير الدفاع جورج مارشال يقول : «إن تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية أمر يعارضه عمليا كل موظف فى السلك الدبلوماسى أو فى وزارة الخارجية ممن سبق له التعامل مع قضايا الشرق الأدنى والشرق الأوسط» . والحقيقة أن وزارة الخارجية لم تكن وحدها هى التى تعارض إقامة إسرائيل ضمن المؤسسة السياسية فى واشنطن . إن جميع مستشارى الرئيس هارى ترومان لشئون السياسة الخارجية بمن فيهم كثير ممن كانوا يوصفون بالحكماء : مارشال وروبرت لوفيت وشارلس بوهلن وجيمس فورستال ودين اتشيسون كلهم كانوا ضد الاعتراف بالدولة اليهودية الجديدة التى كانوا يرونها عقبة فقيرة نفطيا توضع فى مسار العلاقات مع العرب الأغنياء بالنفط والمتمتعين بموقع استراتيجى حاكم ، فى وقت كانت الولايات المتحدة تنطلق

فيه إلى غمار صراع على الساحة العالمية مع الاتحاد السوفييتي. لكن لم يكن منهم من تمسك برأيه متشبثا على نحو ما فعل هندرسون وزملاؤه الدبلوماسيون فى مكتب الشرق الأدنى بوزارة الخارجية . وعندما بات واضحا أن ترومان لم يكن ليثنيه أحد عن تأييده لإسرائيل ، عمد كل من لوفيت ومارشال وغيرهما من الحكماء إلى سحب معارضتهما واصطفا من خلف الرئيس لدرجة لم يكن ليفعلها هندرسون أو وزارة الخارجية بحال من الأحوال . وعندما أذيعت أنباء اعتراف ترومان بإسرائيل هتف دبلوماسى أمريكى كان منتدبا فى البعثة الأمريكية بالأمم المتحدة فى نيويورك قائلا فى أسى : لا يمكن لهذا الأمر أن يكون . وعمد دبلوماسى آخر هو فيليب إيرلاند وكان قد مارس التدريس فى الجامعة الأمريكية فى بيروت إلى موازاة الصهيونية بالنزعة النازية وبعد أشهر من الاعتراف ، وعندما كانت إسرائيل تحارب فى ربيع ١٩٤٨م حاول هندرسون وزملاؤه جاهدين منع وصول الأسلحة إلى اسرائيل .

ومن الذكريات ما يستعيدها باركر هارت وهو مستعرب أصبح فيما بعد مساعدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى فيقول : «إن خبراء المنطقة حز فى نفوسهم كثيرا ما وقع فى عام ١٩٤٨م ،

كنا قد بذلنا جهودا هائلة لوضع الأساس لقيام علاقات طيبة مع العرب . وإذ كنا في موقع متقدم في هذا المضمار بوغتنا بما حدث. وذهبت كل آمالنا أدراج الرياح» .

ويقول دبلوماسي آخر هو كارلتون كون : «كان المخضرمون من المستعربين يعرفون أنه لو كان التصويت على قرار التقسيم قد سار في منحنى آخر .. لأصبح العالم العربي مهيئا تماما للتغلغل السياسي وللإخصاب الثقافي الأمريكي لكن شهدنا أيام الوجود الأمريكي المرغوب وقد انقضت .. ووقر في أذهان البعض أن اسرائيل جاءت لتفسد كل شئ» .

أما الرئيس ترومان فكان لديه في مذكراته ما يلي : «خبراء وزارة الخارجية المختصون بالشرق الأدنى كانوا بغير استثناء لا يكنون الود لفكرة دولة يهودية .. بعضهم كان يتصور أنه ينبغي تسكين خواطر العرب بحكم تعدادهم وفي ضوء حقيقة أنهم يسيطرون على كل هذا القدر من موارد البترول .. ومنهم من كان يجنح إلى أن يكون معاديا للسامية» .

بيد أن مسئولي الخارجية الذين عايشوا تلك الحقبة ولا يزالون على قيد الحياة لهم تحفظاتهم على هذه الأحكام ، ولا

يكتفـون بإنكار صحتها بل يقـولون بأن ترومـان كان يعرف حق المعرفـة أن هندرســون ورجـاله مـا كـانوا مـعــادين للســامـيـة . والحاصل كما يؤكد هؤلاء المستعربون المحنكـون أن ترومـان كان يمـارس لعبة الســياسـة الداخلية ويدغدغ حـواس يهـود أمـريكا تطمينـا لمخاوفهم ولو على حساب الدبلوماسية المحترفة .

من ناحـيـة أخـرى ، لا يذكـر هؤلاء المخـضـرمـون أنهم لم يكن لديهمْ ببسباطة لا الاســتعداد ولا حتى القـدرة على تخيـل مـحارق الهـولوكـوست النازية ضـد اليـهـود بنفـس الدرجــة التى كـان يتصورها بها ترومــان وكثير من الأمريكيين .. وكان المستعربون فى هذا أقرب إلى أسلافهم من جيل المبشـرين البروتســتانت ومن ســواهم مــن وافدى الأمـريكان على منطقـة الشــرق الأوسـط ، وهنا يـعـتـرف السـفيـر السـابق ستـولفـوز قـائلا : كـان اليـهـود بالنسبــة لنـا يمثلــون عـالمـا مـتباعدا وغير حـقيقـى فى حين كان الفلسطينيون أفرادا من لحم ودم تعـرفـهم بـأعيـانهم . قـارن هذا القـول بنظـير له حول الرئيس ترومان يشير إليه مستشاره كلارك كليفـورد فيقول : كان ترومـان يشجب وجود الجيـتو (مـعازل أو حـارات اليـهـود) واسـتـمـرار الاضـطهـاد الشـديد ولم يتـخلص من الشعور بالروع عندمـا يذكر مصرع نحو ستة ملايين يهودى على

يد النـازى وكـان على وعـى تمامـا ببـؤس الحـاجـة التى كـان يعيشـها مئات الآلاف من اليهـود الذين تشـردوا بسـبب الحـرب العـالمية الثـانية ، على أن المشـاعر العاطفيـة إزاء الهولوكـوست الذى وقع فى أوربا لا ينبغى بالطبع أن تؤثر على موقف المرء نحو الأوضـاع فى الشرق الأوسط . ومن الناحية الأخـلاقية المطلقة .. يستطيع المرء أن يبرر هذا التـحذير بوضـوح ، فلمـاذا يتعين على العرب أن يعاقبوا عن جرائم أوربية بينما لم يشهد العالم العربى قط أيا من المشاعر التقليدية من العداء المسيحى للسامية ؟ لكن هذه المشـاعر لم تؤثـر فـحسب على المواقف السـياسـية فى عـام ١٩٤٧ و ١٩٤٨ بل إنهـا أدخلت، كـمـا تكشف فيمـا بعد، تصـورا عميقا ينفذ إلى تطورات الأمور فى الشرق الأوسط فى تلك الفترة. وهى تطورات لـم يفلح فى اسـتيـعابها وقتـها فيـما يبدو موظفو الخارجية الأمريكية .

إن جسـامة حـجـم الهولوكوست .. أطلق عقال عملية تاريخية لم يكن التدفـق الضـخم للاجـئين اليهـود من أوربا إلى فلسطين سوى جزء منها ، وهذا الجانب جعل مولد اسـرائيل أمرا مقضيا ببسـاطة وكان هذا الجانب من الوضـوح بمكان لكنه لم يكن كذلك فى نظر المستعربين «الأمريكان» .

مع ذلك فقد كانت تشكيلة عناصر الخارجية مختلفة عن سابقتها (في القرن التاسع عشر مثلا) أى تشكيلة المبشرين البروتستانت ، وابتداء من عقد الخمسينات حدث اندماج بين التشكيلتين فتألف منهما فئة المستعربين التى لن تلبث أن تنقسم بدورها إلى تشكيلة ذات عناصر جديدة .. ومن هنا فلا غنى عن فهم الدبلوماسيين الذين عملوا فى مكتب شئون الشرق الأدنى بالخارجية الأمريكية فى السنوات الأولى التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، وهذا يعنى البدء برجل بعينه اسمه لوى هندرسون .

لوى هندرسون كان أكثر من رجل يمثل أحد أعمدة الدبلوماسية الأمريكية بل قد يعد أهم وأبرز دبلوماسى محترف فى تاريخ الولايات المتحدة . وكونه لا يكاد يكون معروفا خارج نطاق دوائر الخارجية إنما يقف شاهدا على الدور المحورى الذى قام به ، وعلى تدافع الوقائع الاخبارية اللاهث فى هذا القرن ، ثم على السرعة التى تنسى بها تلك الوقائع وما تحويه من تفاصيل . على مدى ما يقرب من نصف قرن ظل هذا الرجل لاعبا من خلف الكواليس فيما يكاد يكون كل دراما دولية شاركت فيها الولايات المتحدة . من ثم فالشرق الأوسط لم يكن سوى فصل من فصول الملحمة التى نسميها الحياة المهنية التى عاشها هندرسون .

جاء لوى وسلى هندرسون من بلدة صغيرة فى ولاية أركنسا، واحدا من توأمين ولدا فى عام ١٨٩٢ لواعظ فقير درس فى ثانوية متواضعة فى إحدى بلدات كنساس وانتقل بعدها إلى جامعة نورث وسترن خارج شيكاغو . واعتبروه غير لائق طبيا للخدمة فى الحرب العالمية الأولى . بسبب إصابته فى ذراعه ، لكنه تطوع فى خدمة الصليب الأحمر حيث عاين بنفسه مدى الفوضى الاجتماعية التى أغرقت المانيا و روسيا فى نهاية تلك الحرب ، وقد اختطف الموت التوأم روى الذى مات بمرض فى الكلى ويومها كتب إليه أبوه الواعظ يقول : أما وقد رحل أخوك فإن عليك أن تضاعف استقامتك مرتين . ومن ذلك الحين ظلت حياة لوى هندرسون تندفع بوحى من طيف شقيقه التوأم الذى رحل . وفى هذا السياق يلاحظ الأستاذ هـ . براندز فى كتابه بعنوان : «فى داخل الحرب الباردة : لوى هندرسون وصعود الامبراطورية الأمريكية ، ١٩١٨ - ١٩٦١» : أن كل الملابسات أفضت إلى عمق الإحساس بالواجب إلى حد يملك عليه نفسه بما أدى إلى تضييق مجال رؤيته للأمور وإلى تجاهل نزعة التأمل التى تجعل المرء يتعلم من انتقاد الآخرين .

أصبح هندرسون مثل ناسك جزويتى لا يعرف من ملته واعتقاده سوى السلك الدبلوماسى ؛ ذلك الكادر من الدبلوماسيين الذين أمضوا حياتهم المهنية يمثلون أمريكا فى سفارات فى الخارج أو يعملون فى وزارة الخارجية فى واشنطن. بيد أن هندرسون على خلاف سائر الدبلوماسيين ، لم يكن يستبد به فضول الفكر أو الثقافة . لا يكاد يقرأ كثيرا خارج مطالعة البرقيات الدبلوماسية الواردة أو الصادرة ومن ثم فالذين عرفوه كانوا يأخذون عليه افتقاره لروح الدعابة بل وعجزه عن المشاركة فى المشاعر الشعبية السائدة . ومما له دلالة خاصة ذلك الشعور الذى أعرب عنه هندرسون تجاه مدينة نيويورك حين قال : إنها مدينة أجنبية بالنسبة لى شأنها شأن لندن أو باريس أو برلين ، فالذين يجلسون فى المطاعم أو فى مترو الأنفاق .. الذين يدفعونك بالمناكب فى الشوارع أو فى مداخل الدكاكين يبدون وكأنه لا يربطهم فى أى جامع مشترك . ولقد كان من أولى المهام التى أسندت إلى هندرسون فى وزارة الخارجية تحرى الروابط السوفييتية بمنظمات العمل اليسارية فى الولايات المتحدة . وفى ضوء الدور الكبير الذى لعبه اليهود وغيرهم من الأعراق فى تلك

المنظمات فى العشرينات يبدو أن هذه المهمة هى التى أدت إلى تعميق كراهية هندرسون لمدينة نيويورك ولما تمثله من عالم متعدد الأعراق والسياسات .

تتبدى أوجه شبه كبيرة ، فى هندرسون على نحو ما مع رجل آخر اسمه جون ماكلوى تجسد فيه أكثر من أى فرد آخر واقع النفوذ السياسى وأنفة الشريحة العليا من مؤسسة الحياة على الساحل الشرقى للولايات المتحدة ، جون ماكلوى هذا هو أحد عمالقة دوائر المال فى وول ستريت . وقد ساعد فى إدارة وزارة الحرب أثناء الحرب العالمية الثانية وعين بعد ذلك مندوبا ساميا فى ألمانيا ثم رئيسا للبنك الدولى ورئيسا لبنك تشيس مانهاتن ومجلس العلاقات الخارجية ، كان ماكلوى مثل هندرسون من الطراز الجاد يعمل خلف الكواليس ويجيد تدبير الصفقات دون كثير من تأمل .. ومثل هندرسون كان قد تربى فى عائلة بروتستانتية خاملة ورقيقة الحال .. وهذه الظروف بالذات دفعته إلى أن يكون أكثر من أرستقراطى أمريكى بمعنى أن يتأصل لديه إحساس عميق بالواجب أكثر من زملائه الذين ولدوا وفى أفواههم ملاعق الذهب، وثمة صورة التقطت للدبلوماسى هندرسون على عتبات المفوضية الأمريكية

فى بغداد عام ١٩٤٣ يبدو فيها على طبيعته الحقيقية منتصبا فى حلة السهرة السوداء ، يداه معقودتان خلف ظهره ، شاربه مهذب وعيناه مترفعتان بغير أدنى أثر لتردد أو ارتياب .. وبرأسه الأصلع كان أقرب ما يكون إلى هيئة نظيره ماكلوى . على أن الأخير ، وقد كان محور الثناء العاطر قرب ختام حياته ، إلا أنه خضع فى السنوات الأخيرة لعملية مراجعة بوصفه واحدا من أبرز المسئولين عن اعتقال الأمريكيين ذوى الأصل اليابانى خلال الحرب الثانية ومنع الجيش الأمريكى من قصف خطوط السكة الحديد المفضية إلى معسكر اعتقال النازى فى أوشفيتز . ولا مراء فى أن ماكلوى كان يصدر عن نمط محتمل من التحيز ، سواء حين سارع إلى العفو عن مجرمى الحرب الألمان فور أن وضعت الحرب أوزارها ، أو حين عارض بشدة خلق اسرائيل ، كما كان معارضا لأمنها قبل مجئ الليكود إلى السلطة بوقت طويل . وعلى غرار نفس النمط سارت حياة لوى هندرسون التى بدأت بكراهيته لنيويورك والثقافة العرقية اليسارية التى تسودها .

لكن إذا كانت حياة ماكلوى حافلة بأحكام خاطئة فإن أحكام هندرسون ، إذا نحينا الشرق الأوسط ، كانت فى جانب

الصـواب بل حـتى فـيمـا يتعـلق بالشـرق الأوسـط فإن آراء هنـدرسون وإن جـاءت خاطئـة فى بعض الحـالات لا يسـتحيل الدفـاع عنهـا .

لقـد عمـل هيـرمان إيلـتس الذى كان سـفيرا لدى السعودية ومصر مع هـندرسون فى مقتبـل حياة إيلتـس الدبلـوماسية . وهو يصـفه بقوله : كان لـوى هنـدرسـون رجلا يلتمـس الشـمول لا التفـاصيل والجـزئيات . وكان يطل على العـالم من منظـور كونى .على أنه جاء إلى الشـرق الأوسـط فى مـرحلة متـأخـرة نسبيا من خدمتـه الوظيفية وقد وضع الشرق الأوسط بأحكام فى محور تأثيره على الصراع السوفييتى الأمريكى .

وكان هنـدرسـون مع بواكير خـدمته ، قد اقتصر على العمل من عام ١٩٢٧ إلى عام ١٩٤٢ فى الشـئون السـوفييتية وشـرق أوربـا بما فى ذلك السـنوات الثمـانية التى أمضاها مقيمـا فـى دويلات البلطيق وموسكو .

وقـد خلقـت هـذه التـجـربة أثرهـا على مـجـمـل حيـاته وأتاحـت لـه أن يعـمل جنبـا إلى جنب مع رجال من طراز جورج كينان وتشارلى بوهلن .

واكتسب الثـلاثة معا سمعتهم بوصفهم أبرع ثلاثة خبراء فى المرحلة كلها مـختصين فى أمـور الاتحاد السوفييتى حيث خلقوا

سجلا لم يدانيه أحد من بعد من حيث التنبؤ والتحليل .
وفيما كان هناك الكثير من الأمريكيين ، ومنهم جماعة كانت واقعة كما ينبغى لنا أن نقول تحت سيطرة المثقفين اليهود نظرت إلى الدولة الشيوعية الجديدة فى روسيا بمنظار وردى ، إلا أن هندرسون وبوهلن استطاعا أن يعاينا ويعايشا أساليب الحرمان والإرهاب التى مارسها نظام ستالين .

بل إن هندرسون إذ شعر بالاحباط إزاء شعبية ستالين فى الأوساط الليبرالية بأمريكا ، وجه اللوم فى برقية دبلوماسية إلى اليهودية العالمية على أنها مساند مهم للاتحاد السوفييتى .

وفى ريجا عاصمة لاتفيا تزوج هندرسون من سيدة لاتفية حملته على مضاعفة كراهيته للشيوعيين السوفييت والمتعاطفين معهم فى الخارج ، وكما كان الحال مع تشارلس كرين عضو لجنة كنج كرين الموفدة بعد الحرب العالمية الأولى إلى بلاد العرب ، يمكن القول بأن مشكلة هندرسون مع اليهود إنما بدأت خيوطها فى روسيا ، ولأنه كان يعيش فعلا فى موسكو ويشهد مظالم ستالين فقد حضر المحاكمات الصورية التى نصبها وعايش التجارب المقيتة التى كانت فيها العناصر الروسية تختفى فى الجولاج «الأرخبيل

على حد تعبير الروائى «سولجنستين» ، فقد أضحى هندرسون أكثر تشككا فى ستالين حتى عن هتلر نفسه ، وأدى ذلك إلى هجوم تعرض له هندرسون علانية من جانب اليسار الأمريكى واليهود متهمين إياه بنوازع فاشية ومعاداة السامية ، لكن وعى هندرسون بحقيقة النظام السوفييتى حمله على التنبؤ منذ ابريل ١٩٤٢ بأن التحالف السوفييتى الأمريكى ضد هتلر يشكل ظاهرة عابرة وأنه قمين بأن يتفكك فور أن تضع الحرب أوزارها .

على أن الأمريكان فى عام ١٩٤٢ ، وبخاصة الرئيس روزفلت كانوا مبهورين بحلفائهم السوفييت الجدد وقت الحرب ، لدرجة لم يكن تفكير هندرسون معها يعد صحيحا من الناحية السياسية ، ونجح الضغط على وزارة الخارجية من جانب عقيلة الرئيس اليانور روزفلت وغيرها من عناصر البيت الأبيض فى نقل هندرسون إلى الشرق الأوسط ، المنطقة الأقل أهمية من العالم حيث كان المتصور ألا يثير هندرسون المتاعب بأن يهاجم ما تواضع عليه الآخرون . يومها قال دبلوماسى أمريكى : «رباه : الشرق الأوسط ، تلك منطقة لا يحدث فيها شئ قط» . مع ذلك فقد شاء قدر هندرسون أن

يصل إلى الشرق الأوسط في نفس اللحظة بالضبط من التاريخ الأمريكى التى أصبحت فيها تلك المنطقة ذات أهمية تاريخية كبرى .

ثمة علاقة كانت تربط بين وزارة الخارجية الأمريكية وبين العالم العربى - ربما على نطاق أضيق : علاقة تعود إلى الأيام الأولى لنشوء الجمهورية الأمريكية .

لقد كان عاهل المغرب الأقصى - العلوى - أول حاكم أجنبى يعترف بالولايات المتحدة بعد الثورة الأمريكية . وفى عام ١٨٢١ فى عهد إدارة الرئيس جون كوينس ادامز .. بدأ أول مستعرب فى وزارة الخارجية الأمريكية فى تعلم اللغة العربية وكان اسمه ويليام هودجسون ، بيد أن الحضور الدبلوماسى لواشنطن فى العالم العربى ظل محدودا للغاية حتى نشوب الحرب العالمية الثانية إذ كانت سياسة أمريكا هى التسليم بمصالح بريطانيا فى المنطقة والاكتفاء بدعم الجهود التعليمية التى كان يقوم بها المبشرون .. الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة جاء فى أعقاب الحرب العالمية الأولى عندما تفهم الرئيس ودرو ويلسون الرغبة فى أن تقوم أمريكا بدور سياسى فى سوريا - الشام - وأوفد مبعوثه كرين إلى هناك لهذا الغرض . بيد أن فكرة

ويلسون ما لبثت أن تبددت أمام الضغط البريطاني والفرنسي ، ورغم أن المصالح البترولية الأمريكية التي عمد كرين إلى تعزيزها قد فتحت أبواب العلاقات مع زعماء العشائر العرب قبيل الحرب العالمية الثانية فمع كارثة تحطيم الأسطول الأمريكي في بيرل هاربور كانت أمريكا لا تزال مستوردا صافيا للبترول ومن ثم كان البترول هو القضية المؤجلة لمراحل المستقبل ، لكن ابتداء من عام ١٩٣٩ فصاعدا ، وفيما كان ستولفوز وأرثر كلوز وأصدقاؤهما وعائلاتهم يغادرون بيروت بدأ الموقف يتغير على نحو درامي مثير .

رايموند هير كان دبلوماسا شابا برتبة سكرتير ثان في المفوضية الأمريكية بالقاهرة في الفترة من ١٩٣٩ حتى ١٩٤٢ ومن ثم كان واحدا من حفنة من الأمريكيين الذين عايشوا هذا التحول الجذري . ولد هير في وست فيرجينيا ومارس التدريس في كلية روبرت في اسطنبول التي أنشأها المبشرون قبيل إنشاء الجامعة الأمريكية في بيروت - وعندما التحق هير بالسلك الدبلوماسي في العشرينات لم يكن ثمة مؤسسة ملائمة في واشنطن لتعليم اللغات ومن ثم توجب عليه ، كما فعل سلفه هودجسون من قبل ، أن يوفد إلى الخارج ليتعلم العربية والتركية في مدرسة اللغات الحية في باريس .

يحكي رايموند هير في مذكرات منشورة فيقول : كانت الحرب هي حياة القاهرة ، كان القوم يقيمون المآدب فيما كان غيرهم يقاتلون في الصحراء ، وكانت الشرائح العليا من الحياة الاجتماعية تضم أعضاء الأسر المالكة من الهاربين من ممالك البلقان ومعهم مشاهير من نجوم الأدب أمثال لورنس داريل وإيفلين وفرياستارك ، لكن واشنطن لم تكن مهتمة على نحو خاص بالشرق الأوسط ، ولا أدل على ذلك من أنه رغم الحرب الدائرة وقتها بين البريطانيين والألمان لم يكن بالمفوضية الأمريكية ملحق عسكري ، وتلك مهمة وقعت على عاتق هير شخصيا الذي كان عليه أن يعتمد أساسا على السفارة البريطانية للحصول على المعلومات اللهم باستثناء مصدر خاص به - في مصر وقتها - يطلق عليه اسما غامضا هو «الطيف» .

لكن في مارس ١٩٤١ استطاع الرئيس روزفلت أن يقنع الكونجرس رغم اتجاهاته الانعزالية بإصدار قانون الإعارة والتأجير ، وبعده بدأ التحول التاريخي صوب اعتراف أمريكا بأهمية الشرق الأوسط . وسرعان ما عمدت واشنطن إلى دفع كميات كبيرة من الأسلحة إلى مصر كي يستخدمها الجيش البريطاني مما فرض وجودا موازيا وملموسا سواء من النواحي التعبوية أو الدبلوماسية أو الاستخباراتية .

إلا أن شعور الإحباط راود رايموند هير بالنسبة لردود واشنطن على البرقيات التى كان يبعثها ، وبينما كان يشدد باستمرار على أهمية الشرق الأوسط وخاصة منطقة البحر المتوسط فى الحرب ضد هتلر . إلا أن واشنطن، على نحو ما شرح الرئيس روزفلت يوما لرئيس الوزراء البريطانى تشرشل ، كانت ترد بأن السيطرة البحرية على المحيطين الهندى والأطلسى هى الكفيلة فى الوقت المناسب بكسب الحرب . من هنا وقعت مناشدات هيربل والسفير الأمريكى الكسندر كيرك بإمداد البريطانيين فى مصر بطائرات حربية أمريكية ، على آذان صماء فى واشنطن إلى أن سقطت طبرق الليبية بيد الألمان عام ١٩٤٢ .

يومها اندفع الأمريكيون إلى العمل ، وشارك سلاح الجو الأمريكى فى القتال بحلول نوفمبر ١٩٤٢ عندما استطاعت القوات البريطانية أن تصد تقدم الفيلق الألمانى الأفريقى – قوات روميل – عند العلمين فى صحراء مصر الغربية . فى ذات الوقت كانت القوات الأمريكية تنزل على ساحل المغرب مندفعة شرقا عبر الصحراء إلى تونس حيث قدر لها فى ربيع ١٩٤٣ أن تلتقى بالقوات البريطانية الزاحفة غربا من مصر وأمكن للطرفين فى سلسلة من المعارك السريعة طرد الألمان من شمال أفريقيا .

ورغم أن الأمريكان ألفوا أنفسهم فجأة فى موقع السيطرة بالشرق الأوسط إلا أن رايموند هير يضيف متأملا : إن هذه الحقيقة لم تكن واضحة لنا تماما ولا كان واضحا ضخامة الدور الذى كان علينا أن نبادر إلى الاضطلاع به فى المستقبل العاجل . وفى هذه المرحلة الفاصلة بين اكتساب قوة إقليمية وبين القدرة على استخدامها فى أرض الواقع ، شاء القدر أن يدخل إلى الصورة لوى هندرسون .

ومن المستبعد فى ضوء اتجاهات هندرسون وخبراته السابقة بعد أن ترك منصبه فى موسكو وقد كان أحد المراكز العصبية الحساسة أثناء الحرب العالمية الثانية ليعمل فى مركز «عضة البعوض» فى بغداد ، ألا يطوى جوانحه على شئ من الحنق نحو الرئيس روزفلت وزوجته اليانور ، وعلى الليبراليين بالحزب الديمقراطى وعلى اليهود الأمريكيين الذين كانوا وقتها فى جملتهم أعضاء بالحزب الديمقراطى ، كان هندرسون قد بلغ الحادية والخمسين ولم ينجب من زوجته أطفالا بل كانت حياته مكرسة تماما للسلك الدبلوماسى وتلك حقيقة تشهد بها الانهيارات العصبية التى كانت تصيبه أو ربما بسبب الإرهاق فى العمل .

أما بغداد فكانت وقتـها محطة متوارية فى خلفية الصورة ، كانت قاعدة تموين للبريطانيين الذين كانوا يصدون زحف الألمان فى إيران المجاورة بل والسوفييت أيضا ، بيد أن العراق كان قاعدة مضطربة قبل أن يكون موقعا يخيم عليه الهدوء . وقتها تبدد الحلم القديم للراحلة - «جرترود بل» بأن تجعل من ذلك البلد الذى قامت بريطانيا بتصنيعه «دولة عربية» نموذجية . لقد أدت السيطرة البريطانية فضلا عن تنامى النزاع بين اليهود والعرب فى فلسطين إلى تحويل عرب العراق إلى جبهة التعاطف مع النازى .

ففى عام ١٩٤١ قبيل وصول هندرسون بعامين شهدت بغداد انقلابا سيئ الحظ متعاطفا مع النازى يقوده مجموعة من ضباط الجيش العراقى (ثورة رشيد الكيلانى) على أن «فرياستارك» الدبلوماسية البريطانية وأديبة الرحلات التى ورثت إلى حد ما وزن سابقتها «جرترود بل» ، بوصفها سيدة عرب العراق - مس ستارك كما يسمونها كانت ترى مستقبلا واعدا للديمقراطية فى العراق . ولذلك دافعت عن تصرف البريطانيين بوصفه كان لازما لإتاحة الوقت الكافى أمام جنود الملك فيصل الأول أن يكسبوا حربهم الخاصة ضد مدبرى

الانقلاب بغير مساعدة من أطراف أخرى . من اليهود الذين بقوا على قيد الحياة كان إيلى قدورى الذى كانت كوابيس ذكرياته محورا لتدفق كتبه ومقالاته الغزيرة ضد ضباط الشئون العربية البريطانيين المخضرمين . لقد شاهد قدورى كارثة يهود بغداد المعروفة محليا باسم أحداث السلب ، ورآها بمثابة نتيجة مباشرة لتداخل قوم من الهواة فى شئون العراق على امتداد عقود من الزمن من أمثال «مس بل» و «مس ستارك» الذين اخترعوا بلدا وقاعدة للسلطة للسكان العرب المسلمين . ومن ثم كان ينبغى لهم أن يتحملوا المسئولية عن الأقليات التى يهددها هؤلاء العرب . وفى دراسات عن الشرق الأوسط تأتى عبارات قدورى مفعمة بروح الغضب : «كان بوسعهم - اليهود» أن يسلموا طواعية بحق الغزو وطيلة تاريخهم تعلموا أن يؤثروا السلامة لكن هذه الخبرة مع طول أمدها لم تجعلهم يفهمون ضمير الغرب بكل نشوزه وغرابة أطواره .. غرابة المستر فيلبى الذى آل على نفسه أن يتبع هذيانه فيجعل من أى صعلوك رئيسا لجمهورية عراقية أو ذلك العشق الأحمق الذى جال بخاطر المس بل حتى تصورت نفسها حامية حمى امبراطورية عباسية

جديدة أو التعصب المأفون لدى الكولونيل لورانس الذى أقسم بشرفه أن ينصب كل سلالة شريف مكة على عرش من العروش . مع هذا كله فقد كان مصير اليهود فى يد هذه العناصر» .

ولم يكن ثمة من يساند رأى قدورى فى هذا الصدد غير ضابط المخابرات الملحق بالقوات البريطانية فى بغداد سومرست دى شير الذى كتب يقول :

«إن السبل التى تنتهجها وزارة الخارجية تستعصى على فهمى لقد شققنا بالسلاح طريقنا إلى قلب المدينة خطوة من بعد خطوة .. وعلينا أن نريح أقدامنا فى الخارج . وسيبدو الأمر مهينا لحليفنا حاكم البلاد - فيصل العراق - الذى فر إلى فلسطين ساعة وقوع الإنقلاب - إذا ما شاهدوه يعود على حراب البريطانيين» .

بعد أن وصل هندرسون إلى بغداد وأتيحت له فسحة من الوقت كى يستوعب كل حقائق التاريخ أدرك بأنه لن يوجد فى قلبه مكان للتعاطف مع اليهود فى العراق . لقد شعر أن اليهود يتحملون جانبا من مسئولية العنف الموجه ضدهم ، لا لأنهم فقط كانوا متعاطفين سرا مع الصهيونية بدلا من

التعاطف مع الشعور الوطنى العراقى ، ولكن أيضا بحكم ما اتصف به بعض تجار اليهود على رءوس الأشهاد من خيانة للأمانة وطمع وانتهازية وسلوك يحمل على الاعتقاد أنهم يرون أنفسهم اجتماعيا وثقافيا فى مرتبة أعلى من العرب .

لقد كان هذا البغض التلقائى الذى شعر به هندرسون إزاء الجالية اليهودية بالعراق أكثر تطرفا من الاتجاهات المماثلة التى اتخذها المستعربون البريطانيون أو المبشرون وربما كان الأمر فى حالة السفير الأمريكى الجديد يصدر عن جذور مختلفة . ففى حالة المستعمرين البريطانيين لم يكن أمرهم يتعلق بكراهية لليهود بل إن بعضهم مثل لورانس أن يكون محبا للسامية ، لكنهم كانوا يحبون العرب أكثر يدفعهم فى ذلك وشائج من الفن والعلم تربطهم بالثقافة العربية ، فضلا عن شعور دفين بالذنب بأنهم خانوا طموحات العرب بعد الحرب العالمية الأولى ، ولاسيما عندما سمحوا للفرنسيين أن يقتطعوا سورية «الكبرى» . من ناحية أخرى كانت ثمة روابط بين البريطانيين وبين أثرياء العرب . وهذا عين ما يقوله ريتشارد كروسمان عضو البرلمان البريطانى عن بنى جلدته بعد أن كلف بالتحقيق فى المشكلة الفلسطينية عام

١٩٤٧ : من السهل أن ندرك السبب الذى يجعل البريطانيين يفضلون الطبقة العربية العليا على اليهود لأن الانتلجنسيا العربية ذات ثقافة فرنسية وهى طبقة مسلية ومتحضرة وتجمع فى حياتها بين الشجن والملهاة . وبالمقارنة معهم يبدو اليهود كبورجوازيين متوترين ينتمون إلى وسط أوربا بل وألمانيا ، لكن علينا أن نتذكر أن هندرسون رجل لم يقرأ سوى القليل من الكتب ولم يكن لديه قابلية تذكر للتعاطى مع فنون الثقافة التى شغف بها البريطانيون . وكما يقول هيرمان ايلتسن وآخرون : لم يكن هندرسون كثير الشغف بالحضارة العربية . وفيما كان رفيق هندرسون وهو ارشى روزفلت حفيد الرئيس تيودور روزفلت ، وقد أصبح فيما بعد فى طليعة مستعربى المخابرات المركزية الأمريكية ، يستكشف فى حماس المواقع الأثرية ومناطق القبائل فى بلاد ما بين النهرين كان هندرسون قابعا فى عقر دار المفوضية يطالع التقارير السياسية .

وعلى خلاف المبشرين لم يكن هندرسون من أصحاب الاتجاه المثالى ، ولم يبد عليه ولا على أى من خلصائه أى اهتمام خاص على نحو ما فعل المبشرون بالحفاظ على

علاقة شخصية مع العرب مع ذلك كان هندرسون موهوبا فى التحليل وسرعة الاستيعاب . وكان قادرا على أن يتناول لفوره الحقائق المتوافرة عن منطقة لم يعرفها من قبل فيضعها ضمن إطار معرفى بحيث تتقاطع مع ما يجرى فى أماكن أخرى من العالم . ولم يطل به الأمر كى يتصور ما عساه يكون الوضع فور أن تنتهى الحرب ضد اليابان والألمان حيث سيكون الشرق الأوسط فوق برميل من بارود .

وكان قاطعا فى تصوره فى عام ١٩٤٣ بأن الموقف بين الطوائف فى فلسطين متفجر ويكاد يستحيل على الحلول ، وأن الصدمات الناجمة عنه سوف تتطاير شظاياها فى كل أرجاء الشرق الأوسط حيث تشوه سياسات المنطقة على النحو الحاصل فعلا فى العراق فى ذلك الزمان .

ولأنه كان متأكدا أنه بعد هزيمة هتلر فلسوف يصبح الاتحاد السوفييتى عدوا لأمريكا على صعيد العالم كله ، فقد تصور أنه ينبغى لأمريكا أن تنظر إلى قضية فلسطين من خلال «فلتر» النضال ضد الشيوعية . وهذا يقتضى أن تؤيد أمريكا الجانب الذى يتيح لها فى فلسطين أن تعزز قدرتها فى التعامل مع السوفييت . وفى رأى هندرسون لم يكن الأمر

محل جدال : فالعرب يملكون البترول والمواقع الاستراتيجية والأعداد من البشر مما كان يتبعه السؤال : وما عدد آبار البترول التي يملكها اليهود فى كل حال ؟

فى عام ١٩٤٣ كان هذا كله محض تنبؤات حتى ولو تصور البعض أنه كان صادرا عن عدم تعاطف من جانب هندرسون مع اليهود . وفي عام ١٩٤٧ كان هندرسون قمينا بأن يتحقق من أن اعتراف أمريكا باسرائيل سوف «يشترى» لها عشرات السنين من المشاكل والتكاليف بل سيؤدى على حد قوله إلى صعود التعصب الإسلامى بشكل لم يحدث من قبل لمئات من السنين فهل يمارى اليوم أحد فى ذلك ؟

مع هذا فقد ثبت أن هندرسون مخطئ فى شئ واحد فقط وهو : أن أمريكا استطاعت أن تكسب على كلا الوجهين : صداقة مع العرب ومع اليهود لكن الأمر ظل كما تصور طيلة ثلاثة عقود من الزمن وهو ما بقي واضحا بصورة قاطعة حية قبل أن يباشر هنرى كيسنجر سياسة المكوك وتعاد إقامة العلاقات مع مصر وسوريا فى السبعينات .

فى نهاية المطاف فإن موقف المرء إزاء هندرسون إنما يصدر عن تصور لما كانت تحتاجه السياسة الأمريكية من

التصرف العقلانى بغير عواطف فى تلك الفترة ، ولأن هندرسون كان قد عايش الستالينية لدرجة لم تتح سوى لقلة قليلة من بني وطنه فلم يكن تساوره أية ـ أوهام عن هوية العدو الذى سيكون وما عساها تكون العدة التى تحشد من أجل هزيمة ذلك العدو .

والحق أن هندرسون لم يكن لديه اهتمام خاص ، لا بالعرب ولا بلغتهم أو ثقافتهم أو طموحاتهم الفكرية أو القومية . بيد أنه كان يتبنى آراء قوية بشأن المصالح القومية للولايات المتحدة وأين يكون موضعها فى الشرق الأوسط وقد حدث أن هذه الآراء قد تبعت سابقتها من آراء المبشرين وهذا التتابع بين السابق واللاحق هو الذى نجمت عنه ثقافة المستعربين المولدة التى نشأت فى عقد الخمسينات .

لقد ترقى هندرسون فى وظيفته عام ١٩٤٥ وكان ذلك بفضل مهاراته في التحليل وقوة شكيمته ونشاطه ومضاء عزيمته بدعم من زوجته «أليس» وظل يضحي بحياته شخصيا فداء للعمل وأداء الواجب فأصبح مديرا لمكتب شئون الشرق الأدنى فى وزارة الخارجية الأمريكية . ويومها بدأوا يحسون بقوة هندرسون على الفور . وعندما بدأت

الحكومة الفرنسية التى كان يتزعمها وقتئذ زعيم فرنسا الحرة شارل ديجول فى قصف دمشق وسائر المراكز السكانية العربية فى سورية كوسيلة للحفاظ على الانتداب الفرنسى ذهب هندرسون مباشرة إلى الرئيس ترومان وأشار عليه بأن يجبر الفرنسيين على الانسحاب ، ولم يقتصر هندرسون على التفكير فى أن الاجراءات الفرنسية تستهين بروح ميثاق الأمم المتحدة الجديد بل لأنها تهدد أيضا بأن تحرف مسار العلاقات بين الغرب وبين العرب وسائر المسلمين .

وكما شرح هندرسون لرؤسائه فإن بغض العرب للفرنسيين لن يلبث أن يتوجه إلى الغرب بأسره ، ومن شأنه أن يسمح للاتحاد السوفيتى يوما بأن يملأ الفراغ الذى تخلفه الدولة الكبرى فى سورية وهذا بالطبع نفس ما حدث على وجه الدقة .

وفى أوائل عام ١٩٤٦ تقدمت القوات السوفييتية صوب مدينة تبريز ومشارفها فى جنوب غربى إيران ، وكانت تزعم الاستيلاء على المدينة . كانت تلك أولى أزمات ما أصبح يعرف بعد ذلك باسم الحرب الباردة ، لكن كان لوى هندرسون مستعدا . هو الذى شق طريقه يومها إلى

مكتب وكيل الخارجية الأمريكية دين أتشيسون ووزير الخارجية جيمس بيرنز مسلحا بالخرائط لكى يشرح لهما كيف أن انتشار القوات السوفييتية على هذا النحو إنما يهدد تركيا والعراق وحقول النفط الإيرانية . وهو الذى ضغط على إدارة ترومان لكى تصدر تحذيرا متشددا إلى ستالين الذى سرعان ما بادر إلى سحب قواته . وكان هندرسون أيضا هو الذى استجاب إلى فوضى سياسية اجتاحت اليونان بعد ذلك وفى نفس العام المذكور وتحرك بنشاط لحشد استجابة أمريكية قوية لمنع وقوع انتصار للشيوعيين فى اليونان ، من هنا جاء القول بأن مبدأ ترومان الذى كان أقوى من أى وثيقة مماثلة في تشكيل سياسة أمريكا لمناهضة الامبراطورية الشيوعية قد وضعت صياغاته في مكتب هندرسون وتحت إشرافه المباشر ، وقد جاء ذلك كرد فعل للحرب الأهلية فى اليونان .

وفى مثل هذا الجو ، حيث كان ستالين يدق بعنف أبواب اليونان ويهدد الأطراف الشمالية من إيران ، قيض لهندرسون أن يواجه مشكلة فلسطين فى عامى ١٩٤٧ و١٩٤٨ . كان يتبع الأسلوب المكتبى فى إدارة شئون الشرق الأدنى بوزارة الخارجية

الأمريكية وكان مستوعبا بالكامل فى التعامل مع الخطر الشيوعى وقد فعل كل ما استطاع فعله للحيلولة دون صدور قرار تقسيم فلسطين وكذلك دون اعتراف الولايات المتحدة بمنح جزء من فلسطين إلى اليهود . ورغم أن مارشال (صاحب المشروع الشهير) وعناصر أخرى من غير دوائر الخارجية كانوا يؤيدون هندرسون فى سياسته تلك ، إلا أن يهود أمريكا ركزوا كل غضبهم على هندرسون وحده . وفى هذا الصدد قال إيمانويل سيلر ، وهو عضو ديمقراطى بالكونجرس كان يمثل منطقة يهودية مكثفة فى نيويورك : ربما تكون فلسطين موضوعا جديدا ينشغل به المستر مارشال وقد يكون قد استقى معلوماته فى هذا الشأن من المستر لوى هندرسون عاشق العرب ومحترف التخريب ذى البنطلون المخطط .

ويحلول منتصف عام ١٩٤٨ ، وإذ كان ترومان يكافح فى معمعة الانتخابات ، أصبح هندرسون بمثابة عبء على كاهل مرشح الرئاسة الديمقراطى ولم يكن من سبيل لأن يتحمله ، وهكذا قيض لهندرسون أن يدفع ثمن جريمة ارتكبها عندما وقف متحديا ضد المتمسكين بكل ما هو تقليدى ومكروه وكان الثمن هو نفيه من جديد سفيرا هذه المرة لأمريكا فى الهند .

لكن هندرسون لم يكن نادما على شئ بحال : كان على استعداد لأن يتحمل علنا فرية معاداة السامية إذا كان هذا هو الثمن الذى يدفعه من أجل النهوض بواجباته كمسئول فى السلك الخارجى للولايات المتحدة . ثم مضى لا يلوى على شئ لكى يغرق نفسه فى بحر السياسة الهندية ، وعلى نحو ما سبق أن صادفه بالشرق الأوسط فقد وصل هندرسون إلى نيودلهى بعد أن أصبحت الهند قضية كبرى . ومرة أخرى عمد هندرسون إلى التحدى التقليدى والمتعارف عليه ومنطق الملاءمة السياسية عندما جرؤ على انتقاد زعيم الهند الجديد الذائع الصيت جواهر لال نهرو : وجد هندرسون فى نهرو رجلا مغرورا وشديد الحساسية وعاطفيا ومعقدا فضلا عن إنكاره الجميل إزاء صداقة الولايات المتحدة الأسوأ من هذا فى رأى هندرسون أن كراهية نهرو لأمريكا لم تكن تنبع من اختلافات فى السياسة بل من خيلاء تلميذ تربى فى المدرسة الإنجليزية ولم ير فى أمريكا سوى ثقافة الاستهلاك المادية وفكر الطبقة الوسطى ثم أن هندرسون رأى فى حياد الهند نزعة خطيرة بل وتنطوى على خيانة فكرية ★ كل هذه

★ عدم أخلاقية الحياد – تلك الفكرة المختلة رددها دالاس بعد ذلك بالنسبة لجمال عبدالناصر «المترجم» .

الطروحات أصبحت فيما بعد مشاعا بين الناس لكن هندرسون كان أول من أشار إليها .

وفى عام ١٩٥١ ترك هندرسون الهند ليصبح سفيرا لدى إيران بعد أن عين الدكتور محمد مصدق رئيسا للوزراء فوعد بطرد البريطانيين ومصالحهم البترولية خارج بلاده ، وعلى مدار الثلاث سنوات التالية أدار هندرسون بنفسه سياسة أمريكا من أجل مزيد من التعاطى مع الشئون الإيرانية ومن ثم من أجل الإطاحة بمصدق عندما أصبحت مغازلاته واضحة مع الاتحاد السوفييتى ، وعلى ذلك تأكدت عودة الشاه إلى مقاليد السلطة فى ظل وجود قوى على مدار ربع القرن الذى جاء من بعد، وكان ذلك بفضل هندرسون نفسه الذى لم يكن مع ذلك سعيدا بالنتيجة ، فقد تنبأ بأنه سيأتى اليوم الذى سيصبح فيه الشعب الإيرانى مبغضا لأمريكا بقدر الكراهية التى أبداها نحو بريطانيا .

وأفضى حدث الإطاحة بالدكتور مصدق إلى إنشاء حلف بغداد بوصفه تحالفا بين دول الشرق الأوسط المعادية للشيوعية وعين هندرسون سفيرا لدى الحلف الجديد فى عام ١٩٥٥ كما شارك هندرسون فى أزمات

السويس والكونغو وغيرهما ، أما آخر مأمورية مهمة قام بها هندرسون فى الخارجية الأمريكية فهى الإشراف فى الخمسينات على إعادة تنظيم السلك الدبلوماسى كى يصبح قائما على الدبلوماسيين المحترفين قبل أن يقوم على الصفوة المحظوظة فيما أرسى الأسس التى قامت عليها عملية التحول الديمقراطى الحقيقية التى كانت جديرة بأن تشهدها الخارجية الأمريكية فى عقد الثمانينات.

وفى نهاية خدمته كان أقران هندرسون ينظرون إليه ، وهو الموظف المحترف ، حتى النخاع بوصفه الرجل الذى لم يسمح للاعتبارات السياسية بأن تلون أو تصبغ المشورة التى يسديها والذى استطاع أن يشق طريقه إلى أعلى بفضل ما بذله من جهد دءوب وإخلاص وتفان فى أداء الواجب .

ولقد كان مرؤسوه ينظرون إليه بوصفه نموذجا لما عساهم يصبحون - خاصة وأن هندرسون لم ينجب أطفالا مما جعله يتحلى بنظرة أبوية نحو شباب السلك الدبلوماسى الذين كان يرى فيهم ورثة يأتون من بعده .

يمكن القول بأن لوى هندرسون هو مخترع ثقافة وفكر الدبلوماسية الامريكية فى العقود الأولى من حقبة ما بعد الحرب.

وكانوا يسمـــونه على محمل الود «مستر فورين سيرفيس» وكأنه التجسيد الحى للدبلوماسية وسلك الخدمة الخارجية وهو لقب لايزال علما عليه ويستخدمه زملاؤه السابقون حين يتناولونه بالحديث . وفيما تحمل قاعات غرف الاستقبال الدبلوماسية فوق سطح الخارجية الأمريكية أسماء مؤسسى الدولة الأمريكية فإن ثمة قاعة عامة واسعة فى الطابق الأرضى تحمل اسم هندرسون . وعندما أعلن وزير الخارجية هنرى كيسنجر إطلاق اسم الرجل على تلك القاعة فى عام ١٩٧٦ أثنى على هندرسون بوصفه «الجوهر الذى يجسد ما يجعل السلك الدبلوماسى أداة عظيمة ومتفانية من أدوات سياستنا القومية » .

ولا يمكن أن يكون ثمة برهان أعظم عن المسافة اللامتناهية التى تفصل بين الخارجية الأمريكية وبين الدولة اليهودية من حقيقة أن الرجل الذى شن حربه الشعواء لمنع الاعتراف بها هو ذاته الرجل الذى يرى فيه أنداده أنه يمثل أعظم مقاييس المهنة التى ينتمون إليها . وفيما يعد لوى هندرسون وغدا زنيما فى نظر الاسرائيليين واليهود الأمريكيين ، إلا أنه يظل شهيد التجاهل والجحود العام بنظر موظفى السلك الدبلوماسى الأمريكى .. كان هندرسون من طراز الصفوة

الكلاسيكية التى تنفذ إلى جوهر الأمور . كان يدرك أن الرأى الشعبى المحلى لا مكان له عند حساب المصالح القومية ذلك لأن الجمهور العام يفتقر إلى الحقائق ومهارات التحليل وخبرة الحياة فيما وراء البحار مما أتيح بوفرة له ولزملائه .

أفلم يكن هو على حق – فيما أخطأ جميع هؤلاء المثقفين اليهود – بشأن الطبيعة الحقيقية للشيوعية ؟

وبرغم أنه ما من أمرئ على يقين من المرة الأولى التى استخدموا فيها مصطلح «مستعرب» – أرابيست – فى أمريكا فى معرض الاستهانة لكى يصدق على من يؤيد العرب من الناحية السياسية ، إلا أن هذا التعريف الجديد والسلبى بدأ مع لوى هندرسون رغم أنه لم يكن يتكلم العربية بل ولم يمض فى العالم العربى سوى عامين فقط من أعوامه العملية التسعة والثلاثين . ★

ومنذ أوائل الخمسينات فصاعدا ظل التعريفان اللذان يصدقان على مصطلح «مستعربْ» يتعايشان جنبا إلى جنب : تعريف السلك الخارجى والمبشر البروتستانتى المستعرب الذى يتكلم العربية بطلاقة وتوافرت لديه تجربة حياتية يعتد

★ توفى هندرسون فى عام ١٩٨٦ .

بها فى العالم العربى ، ثم التعريف الآخر على مستوى العامة وخاصة بين عامة اليهود : ذلك الذى أحب العرب وفعل ذلك غالبا لأنه يكره اليهود .

وهذا الحكم ارتبط بدوره مع تهم بالاستعلاء الطبقى أو الاجتماعى .. ويوضح أحد رؤساء منظمة محافظة فى واشنطن هذا الأمر فى معرض المقارنة بين خبراء شئون أمريكا اللاتينية وبين المستعربين فيقول : إن «المتأسبن» - المختص فى الاسبانية - يشير إلى معانى اللاصفوة .. بل يرتبط ببارونات المخدرات وبثقافة محلات السوبر ماركت المكونة من سبعة إلى أحد عشر طابقا وذلك بحكم علاقتنا الوثيقة مع العالم اللاتينى .

أما العربية فهى من الناحية الأخرى لغة بعيدة عنا .. وصعبة ومن ثم يحوطها الغموض ، والتضلع فيها يوحى بالقدرة على الدخول إلى طبقة حاكمة عليا حيث لا ترحيب بدخول اليهود ولا من على شاكلتهم من الامريكيين .

ولأن مستعربى الخارجية الأمريكية كانوا جميعا أفرادا ممن كانوا يصدرون باستمرار على مدار الزمن عن خلفيات مختلفة ، فإن سبر أغوار الحقيقة عنهم هو من الصعوبة

بمكان ، فضلا عن أن أهميته تتجاوز بكثير كلا من التعريفين السابقين لمصطلح المستعرب وإن كانت جذورهما السياسية غاية في الوضوح ، فعند إنشاء اسرائيل توجه مستعربو الخارجية الأمريكية إلى الشرق الأوسط وقد استقر وطيدا فى أذهانهم نموذج لوى هندرسون وما أن استقروا فى مواقعهم الخارجية حتى بدأوا يتأثرون بالقيم التى كانت تسود دوائر المبشرين المحلية .

الفصل السادس

المخضرمون

فى مذكراته التى كتبها بعنوان «مهمة فلسطين» كتب السياسى البريطانى - ريتشارد كروسمان يقول : أتصور أن بوسعك العثور على شخص تكون هوايته هى مراقبة الطيور يقف فى موقع التباعد عنها فيما يحدق فيك مباشرة ، إن خبير الشئون العربية يتصف بنفس السمات .

فى عام ١٩٤٧ عين كروسمان عضوا فى اللجنة الأنجلو - أمريكية التى تولت التحقيق فى مسألة فلسطين وكان عضوا فى البرلمان البريطانى بغير خبرة سابقة عن الشرق الأوسط ولا العرب ولا اليهود . وقدر له فى القدس والقاهرة أن يلتقى بمستعربين بريطانيين وأمريكيين لأول مرة فى حياته .

وهنا يقول كروسمان : إن المستعرب شأنه شأن من يعكف على مراقبة الطيور .. استطاع أن يتحرر من

السوقى والمبتذل ، من إيقاع المادية فى عالم الغرب والتمس اللجوء إلى سكينة داخلية . ويمضى كروسمان قائلا : المستعرب وقع فى غرام العرب لأنهم أتاحوا له أن يتوحد مع القيم العالية التى يفتقدها فى وطنه الأول حيث كان محكوما عليه أن يبقى محروما من تحقيق الذات ، لكن ها هو وقد وجد نفسه فى الشرق الأوسط ولقد عقد العزم دون أن يعرف السبيل إلى ما يتبعه كى يوائم بين الحضارة الغربية وبين الثقافة العربية . لقد تعلم بذاته أثمن قيم فى الحياة من العرب .. لكنه هو ذاته أيضا يعرف كوامن الضعف عندهم ، وكم يشعر بالإحباط إزاء ما يراه فيهم من خمول ومن فساد فى طبقاتهم العليا ، وفوق ذلك من تكريس الحضارة الغربية التى كثيرا ما يتبناها العرب المتعلمون ، من هنا فهو أولى من غيره بانتقاد العرب لأنه يفهمهم حق الفهم . بيد أن نقده هذا إنما يصدر عن فرد ربط مصيره بقضاياهم .

فى سجل حوليات السلك الدبلوماسى الخارجى كتب «كارلون ستيفنز كون» يصف نفسه بأنه «آخر سفير من طراز القرن التاسع عشر» كان يجلس (فى مقابلة)

المؤلف معه فى بيته الريفى المسور بالخشب فى وادى فرجينيا وقد زينت الجدران من خلفه بأقنعة الشيطان المجلوبة من الهند وكأنها تذكر المرء بذلك المتجر الذى كان يعمل فيه «لورغان صاحب» بطل رواية «كيم» . والمعروف أن السفير «كون» كان هو الذى تولى من وراء الكواليس صياغة دليل السياسة الخارجية للرئيس الأسبق ريجان فى أوائل عام ١٩٨١ . وقد ذكر أنهم عينوه فى أكثر من منصب لسفير تتويجا لحياة دبلوماسية حافلة قضاها فى الشرق الأوسط وشبه الجزيرة الهندية ، إن «كون» يعتنق آراء فى السياسة الخارجية شديدة الاختلاف عن آراء رونالد ريجان ، ولكن حقيقة أنه كان جزءا من فريق مرحلة الانتقال إلى عهد ريجان نفسه ، إنما تشهد بالأسلوب الذى يمكن أن يؤثر فيه عنصر الاحتراف المهنى على أكثر الرؤساء البعيدين عن هذا الاحتراف .

يوضح السفير «كون» أنه اختار موقعه فى كاتماندو (نيبال) لأنه أراد أن ينساه الآخرون ، كان ذلك فى الثمانينات ، ولما تكن سفارة أمريكا فى نيبال قد زودت

بهـواتف بعد ، بـل كـانت السـفـارة تسـتـخـدم أسـلوب البـرقيات العتيـق . ولهـذا «فلـم تكـن واشـنطن لتعـير التفـاتا إلـى مـا كـنت أفعـل فيهـا يا إلهـى ! كـم كـان الأمـر رائعا ! ناهيـك عـن تعـيين زوجتى جـين وهـى بـدورهـا دبلومـاسـية محـتـرفة ومخـضرمـة سـفيرة لـدى بنجـلاديش المجـاورة . ولهـذا كنت أنتهـز عطلـة نهـاية الأسـبوع لأطـير إلى دكا أو تطـير إلينـا جـين فـى كاتمـاندو أو نذهب مـعـا للاسـتكشـاف فـى الصـين وبوتـان ، فقـد كان السـفر متعـة لنـا» .

السـفير السـابق «كـون» يتحـدث بلهجـة حادة مفعمـة بالحفـاوة تنـم فـى غمـوض عن روح الأمـريكى البسـيط تجمع بين المودة والارتيـاح .. هى نفـس اللهجـة التى كانت تشـيع فـى خطـابات چورچ بـوش ، طبـعا مع مراعـاة قواعد النحـو . ذلك لأن السـفير «كـون» مـثل بوش ، خـريج أكـاديميـة فيلبـس فى مـاسـاشـوشـتس الواقـعـة فى حـرم دير انـدوفـر القديم ، الـذى انتقـل فـى أواخـر القـرن التاسـع عشـر إلى ضـاحية نيوتاون فى مدينـة بوسـطن . وفيمـا ذهـب بوش إلى جامعـة ييل بعد أن خـدم كطيـار فـى الحـرب العـالميـة الثـانيـة . فـقـد ذهب كـون إلى هارفارد وهو يصغر الرئيس السابق بثلاث سـنوات ، بعد خـدمة

قصيرة في الجيش ، بيد أن قصة كون تبدأ مع والده الذي يمكن أن يعد واحدا من أصفى العقول التي أنجبتها أمريكا .

ولد كون الأب عام ١٩٠٤ في ويكفيلد في ولاية ماساشوشتس وبعد أن طردوه من ثانويتها أرسله البرير إلى أكاديمية فيليبس حيث كان يثير المشاكل باستمرار ، وفي هارفارد كان بمثابة صاروخ غير موجه لكنه في هارفارد أيضا التقى بعالم في الانثربولوچيا ، هو أرنست البرت هوتن الذي أوقد شعلة بين جوانح الفتي كون بكتابه المعنون «من القرد إلى أعلى» وهنا يضيف الابن السفير كون قائلا : هكذا انغمس أبي في النظريات العرقية ، في تلك الأيام التي كانوا يحترمون فيها التقسيم إلى أجناس وأعراق .. الأيام التي كان يهرع فيها علماء الانثربولوچيا إلى أفريقيا والشرق الأوسط مسلحين بخرائط ورسومات لألوان بشرة الإنسان وقوالب لقياسات الدماغ . طبعا ليس لك أن تستعيد هذه السيرة في أيامنا هذه وإلا وصفوك بأنك عنصري فالموضة في مجتمعنا اليوم أن لا تعترف بأن الشعوب والثقافات يمكن أن تكون مختلفة .

بيد أن كون الوالد ما لبث أن أصبح مشدودا بالذات إلى «شعب الريف» وهم قوم شقر من قبائل البربر ذوى العيون الزرق ، ولم يكد يعرفهم أحد ويسكنون جبال أطلس فى المغرب ، وكانوا أيامها يحاربون المستعمرين الفرنسيين . وكان والدى - يضيف السفير كون - يعجب بالمحاربين المغاوير ولا يستهويه صنف البشر المساوم فى بحر السياسة . كان أبى من طراز البريطانيين فى القرن التاسع عشر الذين شدهم الإعجاب بمحاربى الباتان ، قبائل المقاتلين بشراسة الذين شهدتهم حدود أفغانستان مع الهند البريطانية . ثم وقع كون الأب وزوجته الجديدة وكانت فى العشرين من العمر فيما كان فى الثانية والعشرين فى قبضة محاربى الريف المغربى عام ١٩٢٦★ الذين تصوروهما من الفرنسيين وشرعوا يتناقشون فيما بينهم كيف يجهزون عليهما . ولما كان كون يتحدث فرنسية شديدة الركاكة فقد خلص رجال القبائل إلى أنهما بالفعل أمريكيان حسب زعمهما ، وسرعان ما عقد والدى صداقات مع أحد أبناء

★ الإشارة هنا إلى ثورة جبال الريف بقيادة عبد الكريم الخطابى (المترجم) .

منطقة الريف اسمه محمد الأمنبهي بل عاد به إلى ماساشوستس عربونا للصداقة ولمزيد من الدراسة . وعلى أساس حكايات الأمنبهي كتب الأب روايتين بعنوان «رجل من جبال الريف» و«لحم الثور البرى» ومازالت ذكريات طفولتي تستعيد هذا الامنبهي الذى ما لبث أن عاد إلى المغرب ومات بعدئذ مسموما .

(ولأن الأب والأم كانا فى حال من الترحال الى أماكن بعيدة يجمعان كل مايصل إلى أيديهما من أغراض وعينات، فقد تولت جدة الطفل رعايته حتى يشب عن الطوق). كان وضعنا المالى محفوفا بالخطر. كان أبواى يحملان عصا الترحال كلما توافر في أيديهما المال من هذه المؤسسة أو تلك. وحين لا يكونان على سفر كان بيتنا يسوده جو غريب حيث احتساء الشراب فى إطار من الخفة والسخر معهود فى أجواء هارفارد .

ولم يكن أبى يتوقف عن اختراع النظريات ولن أنسى ما حييت كيف أخذ يرقب باتريس لومومبا زعيم الكونغو الوطنى على شاشة التليفزيون إبان أزمة الكونغو عام ١٩٦٠ وكانت أصابع أبى تتحرك وكان بوسعك أن تلمح كم يود من صميم قلبه أن يضع هذه الأصابع على جمجمة لومومبا فيما هتف لحظتها قائلا: هذه ليست

جمجمة من الكونغو! . نشر كون الأب أكثر من ٣٠ كتابا يعد بعضها من بين افضل مؤلفات الرحلات والاثنوغرافيا فى أوائل ومنتصف القرن العشرين. وكان الأب كذلك جاسوسا أثناء الحرب العالمية الثانية لمكتب الخدمات الخاصة الذى أنجب وكالة المخابرات المركزية فيما بعد، وكان من الطبيعى أن يضع عن المكتب مؤلفا بعنوان «حكاية من شمال أفريقيا» : عالم الانثربولوجيا عميل لمكتب الاستخبارات ١٩٤١-١٩٤٣» . ولقد ذهب أبى الى ذلك المكتب متطوعا بغير أدنى تردد ولو لم يكن المكتب قائما لأنشأه أبى وعمل فيه.. لقد كان من الطراز المغامر.. والوطنى أيضا .

رجل من هذا الطراز كان جديرا بأن يظل اسمه مذكورا عند كل من يتعاطى الأدب والثقافة لكن الأمر على خلاف ذلك فى الواقع، لأن الثقافة الأمريكية ليست على شاكلة نظيرتها البريطانية حيث لا يزالون يكرسون أسماء كتاب أدب الرحلات ومؤلفى الانثربولوجيا الوصفية. خذ مثلا كتابه المنشور عام ١٩٣٥ بعنوان «المقاسات فى اثيوبيا والفرار الى اليمن» والعنوان يشير الى قيام كون الأب بأخذ مقاسات مقادير كبيرة من رءوس البشر فى أثيوبيا طاردوه ليطردوه خارج الحبشة فولى وجهه شطر اليمن حيث صادفه حظ احسن إذ وجد عينات بشرية وحيث يصف الأمر

بقوله: ها. أنذا أمثل خليطا من الساحر والمهرج وراهب الاعتراف. وكم يخطىء القوم إذ يظنون أن ما أتمتم به من أرقام إذ أقيس أدمغتهم ، إن هو إلا صلوات أرددها وكثيرا ما يسعد الفرد منهم أن يشعر بقدر من أهمية وهو من غمار الناس عندما تؤخذ قياسات رأسه . ومعظمهم يتصورون أن أبى به مس من الجنون ولكن من حسن الحظ أنهم يتسامحون مع الجنون فى تلك البلدان بأكثر مما يفعل القوم ببلدى . مثل هذه السطور الساخرة يمكن أن ترقى إلى سخرية الكاتب «إيفلن دو» فى مؤلفه «سكوب» أو تتوازى مع روبرت بايرون، فى الطريق الى اوكسيانا لكنها تتضح أيضا بشىء آخر يستدعى الى الخاطر واحدا من أعراف الكتابة البريطانية ذلك هو الحنين الى بلاد العرب - أرابيا التى اجتذبت كون الأب بقوة وما شده اليها سوى الجهامة التى تكسوها والفراغ الذى ينبسط فى أرجائها .

★★★

إن تفاؤله بالنسبة لبلاد العرب لم يكن بغير أساس فبفضل خدمات يهودى من اليمن اسمه «اسرائيل» ظل كون الأب ينعم بأيام هانية إذ يعكف من طلوع الشمس الى غروبها على أخذ مقاسات رؤوس من الجنس السامى، وفى هذا السياق يكتب

«كون» الأب قائلا: والحق إنه بغير «اسرائيل» هذا فلست أدرى ما عسانا كنا فاعلين فى اليمن.. ذلك لأن اليهود يعرفون عن العرب بأكثر مما يعرف العرب عن أنفسهم . لكن برغم أن كون الأب أحب يهود المشرق بكل ما يتفردون به إلا أنه كان أقل شغفا بالدولة الجديدة فى اسرائيل . وهو يذكر فى كتابه «*القافلة*» أن عام ١٩٤٨ ما لبث أن شهد حدثا انتكس معه تيار تصفية الاستعمار عندما ارتدت مسيرة التطور فاستطاع الإسرائيليون أن يخلفوا البريطانيين فى فلسطين وهم لا يزالون هناك،. وكتاب «القافلة» يعد أفضل كتب كون الأب.. وهو عمل فكرى ينفطم على سطوره كثير من المستعربين الامريكيين إذ يستخدمون الجغرافيا لتفسير الخصائص الثقافية لشعوب الشرق الاوسط على اختلافها. وفى ذلك الكتاب يثنى كون الأب على الاسلام باعتبار أنه أتاح الدرجة المثلى من البقاء والسعادة لملايين من البشر وسط بيئة كانت تزداد مسغبة وحرمانا. وهنا يعود المؤلف مؤكدا على استهانة مخيفة بالحياة العصرية وهو مايشيع بين صفوف المستعربين وبين مؤلفى أدب الرحلات على السواء يقول : الجغرافيا تجلب الاستقلال،. والتكنولوجيا تهزمه . ومن ثم تراود البعض الهواجس بالدعوة الى عالم واحد نعيش فيه فى ظل علوم

التكنولوجيا. ولو كنا فى عالم واحد.. فأين يعيش المتمردون؟ وبغير المتمردين.. كيف يظل العالم واعيا وفى غاية التأهب .



صدر «القافلة» عام ١٩٥١ . لكن «كون» الابن السفير يقول بحزن إن الكتاب بات الآن وكأنه ينتمى الى عصر هيرودوتوس مؤرخ اليونان القديم.. والابن يبدو بدوره قطعة من شظايا ذلك البناء القديم: قد ينكر هذا.. لكن بيته فى واشنطن أقرب ما يكون الى روح ذوق أبيه: بيت من النوع الذى يرتاح فيه رجال من طراز الأب أو حتى من طراز رديارد كبلنج شاعر الانجليز فى الهند البريطانية : كل الجدران مغطاة فى السقف بألوان تجليد الكتب القديم ثم مساحات هائلة من الأرضيات ، ربما أوسع مما فى بيت السفير بيل ستولفوز مغطاة بدورها بسجاجيد من أبدع ما أنتج الشرق.. ويفسر كون هذا الأمر بقوله إن الدبلوماسيين يعشقون السجاجيد كما تعشقها قبائل التركمان سواء بسواء لأنها فى غالب الأحيان هى متاع القبائل الرحل يحملونها من مكان الى مكان فى أرجاء العالم المعمور ويودعونها من ثم تلك المساحات الحميمة المقربة الى أفئدتهم .

السفير «كون» تبع خطى أبيه فى الدراسة فى أكاديمية فيلبس

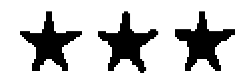
ثم فى جامعة هارفارد لكنه قرر الالتحاق بالسلك الدبلوماسى لأنه أقرب الى ما كان عليه الأب وإن جاء مختلفا وهو يقول إن أبى كان سعيدا بهذا القرار .

هكذا جاء يوم الفاتح من سبتمبر ١٩٥٢ حين وصل «كون» الى دمشق. وهو يتذكر التاريخ إذ استقبله يومها فى المطار واحد آخر من عشاق السلك الدبلوماسى هو ويليام ايجلتون ويقول : كانت تلك أول مرة التقى فيها مع ايجلتون ومن يومها ونحن من اخلص الاصدقاء . ولقد قدر ايجلتون أن يلعب فى الثمانينات دورا مهما فى علاقات أمريكا مع العراق .

أمضى كون السنوات الأربع التالية فى دمشق وكانت تلك فترة طويلة لشاب فى العشرينات من العمر. ولم يقتصر الأمر على أن المكان ضم كون وايجلتون بل كان هناك أيضا بيل ستولفوز وارثر كلوز وعدد آخر من الأمريكيين المستعربين . وهنا قد يحتاج السياق الى قدر من التفاصيل لرسم معالم الجو السياسى الذى كان يسود المكان باعتبار أن سوريا فى الخمسينات كانت عالما قائما بذاته لا يضم دمشق أو حلب فحسب بل يشمل أيضا الجامعة الامريكية فى بيروت القريبة من المكان بعد أن أصبحت بيروت جزءا من دولة لبنان المستقل. يقول السفير «كون» لقد أثرنا غضب السوريين الشديد وكانت تلك تجربة جديدة بالنسبة لهم.

وقلما تعرضت علاقة بين بلدين الى ذلك التحول السلبى فى مدى قصير على نحو ماحدث فى العلاقة بين الولايات المتحدة وسوريا .
ذلك لأن العلاقة الأمريكية السورية انقلبت رأسا على عقب ما بين عام ١٩٤٦ حين كان لوى هندرسون الأمريكى يدافع عن حقوق السوريين ضد قوات ديجول الفرنسية، تماما كما سبق للرئيس ويلسون وصديقه تشارلس كرين الدفاع عن السوريين ضد الفرنسيين والبريطانيين ، وما بين عام ١٩٤٧ حين أعلن ترومان تأييده لقيام دولة يهودية. هكذا أفضى قرن بأكمله شهد محبة وعطفا وحدبا من جانب المبشرين الأمريكيين الى جانب العرب السوريين الى تصادم بليل مع إحدى الطروحات المتأصلة فى صميم الليبرالية الغربية مجسدة فى إقامة دولة يهودية فى فلسطين . هكذا تحولت نظرة السوريين الى الامريكيين من المستوى الأرفع الذى كان حتى عام ١٩٤٦ الى المستوى الذى رأوا فيه الأمريكيين بوصفهم عناصر الخطر التى تهدد كيانهم بالتجزئة والتقسيم. كان الفرنسيون قد اقتطعوا لبنان واقتطع البريطانيون شرق الأردن ثم ها هم اليهود يكملون ما شرع به البريطانيون لكن بدعم أمريكى هذه المرة، باقتطاع فلسطين . من هنا جاءت صيحات وحدة الصف العربى ضد اليهود، وكانت تقصد مبدئيا

على الأقل، دعوات إلى إعادة قيام سوريا الكبرى لكن فيما كان السوريون يتوقون الى عودة فلسطين فضلا عن سائر المناطق السليبة إلا أنهم كانوا يلقون اشد الصعاب فى أن يكملوا مسيرتهم ذاتها، إذ كان الفرنسيون قد منحوا استقلالا ذاتيا للعلويين فى الشمال الغربى وللدروز فى الجنوب. لكن فى وقت الاستقلال الذى حان بعد ربع قرن من ذلك التاريخ أعيدت هذه المناطق فجأة لتتوحد تحت حكم دمشق مما زاد الكيان السياسى صعوبة وتشوشا .



وثمة خرافة عمدت إلى إذاعتها عن سوريا وسائل الإعلام الأمريكية التى تعوزها ذاكرة التاريخ. وتابعها فى ذلك مؤيدو اسرائيل محاولين إبراز فرق محتمل بين ديمقراطية الدولة اليهودية وبين عدم ديمقراطية الدول العربية.. توهم تلك الدراسة بأن سوريا بلد لم يشهد أهله من العرب تجربة فى الديمقراطية أو فى سيادة القانون، وهذا مخالف الحقيقة على طول الخط على نحو ما يشهد به أى مستعرب أجنبى عاش فى سوريا الخمسينات ، فليس من بلد عربى عاش مثل سوريا تجربة الديمقراطية على الطراز الغربى ومارسها بكل حرية وإخلاص وسط ظروف غير مواتية على كل

حال وكان ذلك فى الاربعينات والخمسينات ، بل تشهد ذاكرة التاريخ بأن فشل الديمقراطية جاء أوثق اتصالا بتركة الاستعمار الاوروبى أى بعد إنشاء اسرائيل جزءا منها قبل أن يرتبط بخصائص تاريخية أو ثقافية فى صميم تكوين السوريين أنفسهم.

فى يوليو عام ١٩٤٧ كان هندرسون قد ساعد على وقف القوات الفرنسية هجماتها على سوريا. ورغم أن نفوذ فرنسا وهو يسعى إلى تقسيمها كان لا يزال محسوسا فإن سوريا أجرت انتخابات عامة وكانت النتيجة متوقعة بالنسبة لبلد كان قد تشكل لتوه من واقع مجتمعات سياسية متنازعة .. وقد فاز الحزب الوطنى الذى يتزعمه شكرى القوتلى بأصوات تفوق ما حصلت عليه أى جماعة أخرى، لكنه لم يكن قادرا إلا على تشكيل حكومة أقلية فيما ذهب النصيب الأكبر من الأصوات لصالح مختلف المستقلين الذين كانوا يمثلون شتى المصالح العرقية والاقليمية . ولكن تحت السطح كان الواقع أدهى وأنكى سبيلا، ويذكر حبيب كحالة فى كتابه «مذكرات نائب» لقد أجلت النظر من حولى فلم أر سوى حزمة من المتناقضات ، كانت المهانة التى ألحقتها اسرائيل بالجيوش العربية فى حرب الاستقلال عام ١٩٤٨★ قد ألحقت

★ هى حرب سلب فلسطين فى الادبيات العربية المعاصرة. «المترجم» .

الضعف بالحكومات المنتخبة ديمقراطيا وعندها دبر حسني الزعيم رئيس الاركان السوري انقلابا في ٣٠ مارس ١٩٤٩ وهو أولى الحلقات من سلسلة استيلاء العسكريين على السلطة في مرحلة ما بعد الحرب الثانية بالعالم العربي يومها رقصت الجماهير في شوارع دمشق.

«حسني الزعيم» لم يكن يمتلك أي سياسة متجانسة ، تتيح له التوفيق بين الانتماءات السورية المختلفة على الصعيد الداخلي التي ورثها عن سوريا تحت سيطرة الفرنسيين . سرعان ما أطيح به في انقلاب عسكري آخر - بل وحوكم «حسني الزعيم» عسكرياً وأعدم رميا بالرصاص . وما لبث الحكم العسكري التالي أن أعاد من جديد عملية تنظيم انتخابات وطنية جديدة لم يقدر لها أن تتم إلا في عام ١٩٤٩ . وجاءت نتائج التصويت على نفس شاكلة التشتت التي جاءت عليها في عام ١٩٤٧ مما دفع بهذه التجربة الديمقراطية الأخيرة الى هاوية الفوضى بسبب احتدام التنافس بين الطوائف المختلفة التي أشتد عودها على أيام الفرنسيين .

من هنا اتسمت تلك الفترة بالاضطرابات والتظاهرات على نحو ما يكثر حدوثه في المجتمعات الديمقراطية ، لكن الذي كثر حدوثه أيضا كان.. الاغتيالات السياسية على أن هذه الفوضى انتهت في ديسمبر عام ١٩٤٩ عندما استولى العقيد .. أديب الشيشكلي على السلطة في انقلاب عسكري جديد .

كانت مقدرة الشيشكلى على إعادة النظام الى نصابه دافعا لكى يطلق عليه المراقبون الأجانب وصف «أتاتورك العالم العربى» لكن كان الشيشكلى وليس غيره هو الذى بدد تصورات الأجانب بأن بوسع سوريا أن تجد طريقها نحو الاستقرار . ففى عام ١٩٥٣ أعرب عن اسفه علنا لأن سوريا ما هى إلا الاسم الرسمى الحالى لبلد يقع ضمن الحدود التى سبق وأن رسمها الاستعمار. والمشكلة أن الرجل كان على حق فيما يقول .

في عام ١٩٥٤ أطيح بأديب الشيشكلى.. ذلك لأن اتجاه الشيشكلى أغضب عناصر مختلفة داخل الجيش وخارجه مما دفعهم الى التخلص من الرجل .

ولم تنقض أشهر قليلة حتى جاء خريف ١٩٥٤ ليشهد السوريين وقد أجروا انتخابات برلمانية حرة ونزيهة. وجاءت نتائجها أقرب ما تكون الى انتخابات الجزائر فى عام ١٩٩٢ التى أوصلت الأصوليين الأسلاميين قاب قوسين أو أدنى من السلطة ، جاءت لتشكل دليلا على أن الديمقراطية الغربية لا تتيح حلا سريعا لأدواء المجتمعات العربية. لقد فاز بأكبر عدد من المقاعد المستقلون والطائفيون فيما جاء على رأس الفائزين منذ انتخابات عام ١٩٤٩ حزب البعث وهو جماعة جديدة حاولت أن تتخطى

الانقسامات العرقية والدينية من خلال طروحات تدور حول اقتصاد على الطريقة الشيوعية وسياسة موالية للاتحاد السوفييتي.

وكما قدر (للدبلوماسي الأمريكي) هندرسون وصحبه أن يشهدوا فظائع الستالينية، أصبح هذا الجيل الجديد من موظفي السلك الدبلوماسي الأمريكي شاهدا علي ظاهرة جديدة ومؤلمة لم يكن ليفهمها سوى قلة من الأمريكيين .

لقد كان «كون» وزملاؤه شهودا على نضالات سوريا ومن ثم اخفاقها في أن تخلص نفسها من التركة الثقيلة التي تخلفت عن تاريخ الاستعمار العثماني والاوربي على السواء، وهو تاريخ كانت الدولة الصهيونية الجديدة تقف دائما شاهدا عليه على مسافة أقل من ساعة بالسيارة من دمشق - قامت وهي تتألف الى حد كبير من مهاجرين أوروبيين جاءوا بأساليب غربية تتحدى بعنف الثقافة العربية - الإسلامية الأصيلة بدلا من أن تتواءم معها. و لم يكن هؤلاء المهاجرون اليهود بحاجة الى مدارس تبشيرية ولا آلات طباعة لكي تعلمهم كيف تكون الوطنية أو القومية. ثم زادت جراحات الجالية الامريكية الوافدة الى سوريا عندما استطاع الاسرائيليون بسرعة ويسر أن يقيموا دولة على غرار الأسس اللبرالية الغربية، بينما عجز عن ذلك عرب سوريا برغم أكثر من

قرن من المساعدات التى تلقوها من المبشرين البروتستانت. وألقت هذه الحقيقة بظلالها على الدبلوماسيين الأمريكيين وبعضهم كان ينحدر من عائلات تبشيرية . وكانوا يتفاعلون بدورهم مع جالية الوافدين...

★★★

كانت اسرائيل هى أبرز الأسباب لا لمعاناة سوريا السياسية، فحسب ، بل لكراهية السوريين التى أضمروها لأمريكا .. كراهية شديدة لأنها كانت مستجدة وغير متوقعة ثم أنها كانت قد بدأت تدفع السوريين نحو السوفييت ، عدو أمريكا رقم واحد ..

ولم تكن تلك كراهية عمياء فقد كان الدبلوماسيون يعرفون ما لم يكن يعرفه الأمريكيون الآخرون: إن الاسرائيليين ليسوا كما يتصورهم الأمريكى العادى فرسانا فى دروع متألقة ولا كان السوريون من فصيلة الوحوش مثلا، كان ألفرد ليروى اثرتون (السفير فيما بعد فى مصر) دبلوماسيا شابا بسوريا فى الخمسينات على نحو ما كان «كون» واجلتون وستولفوز، ولكنه لاحظ أن الكيبوتسات (المزارع الجماعية) الاسرائيلية التى يطلق عليها النار الجنود السوريون من مرتفعات الجولان، لم تكن بالضحايا البريئة على نحو ما صورته أجهزة الاعلام الامريكية

يقول : صحيح أنهم كانوا مزارعين اسرائيليين لكنهم لم يكونوا مجرد مزارعين عاديين.. لقد كانوا من الفئة شبه العسكرية ولم يكن وجودهم مقصورا على أرض اسرائيلية بل على خط الهدنة حيث كانوا يعمدون الى استفزاز السوريين. ولهذا طرحت وجهة النظر السورية لدى عودتى الى واشنطن. وشعرت فى ذلك الوقت بالتعاطف مع العرب مدركا أن للاسرائليين كثرة من المتعاطفين وإنهم أقدر على أن يدبروا أمورهم بأنفسهم .

بيد أن الحياة اليومية في سوريا كانت بدورها درسا حول ما يمكن أن يساعد به الطابع القومى - الوطنى فى زيادة الاحوال تفاقما . وهنا نعود الى كارلتون كون.. يقول: ثمة عقدة نفسية كانت خليقة بالسوريين . أتذكر استعراضا عسكريا خرجت فيه دبابة عن مسارها فقتلت واحدا من المشاهدين . ولأنه تصادف وجود سائح امريكى فى المنطقة يحمل كاميرا تصوير فما كان منهم إلا أن اعتقلوه .. والحق أن لكل من السوريين والاسرائيليين القدرة على تصور وقوع الظلم . ويحتاج الأمر الى أن يخترعوا درجات جديدة علي مقياس «رختر» لقياس الاهتزازات العاطفية عند الشعوب السامية فى الشرق الاوسط .

يواصل «كون» الحديث قائلا :

أتذكر حفل استقبال فى دمشق ظل فيه صحفى سورى يلقى على مسامعى محاضرة حول أمريكا وكيف أنها تعمل على نشر سرطان يأكل قلب العالم العربى.. ويومها انفجرت مجيبا : إن اسرائيل جاءت لتبقى لأنه ما من طرف خارج الشرق الأوسط عازم على التخلص منها . وأنتم أيها القوم لا تملكون لا العزم ولا الارادة على أن تفعلوا ذلك بأنفسكم. ساعتها رمقتنى نظرات المستعربين الآخرين فى القاعة متهامسين : لقد تهاوى «كون» . لأننى فقدت هدوئى . وساعتها عرفت أننى لم أقدم حقيقة على الخطوة الأخيرة التى تجعل منى مستعربا حقيقيا وهو ما كنت جديرا أن أكونه نظرا للخلفية التى عاشها والدى .

من ناحية أخرى ذكر «كون» فى حديث منشور آخر أن اسرائيل تخرب الجو أمام الدبلوماسيين الأمريكيين فى المنطقة . وقال أن من الوضوح بمكان فى أعين المتفاعلين مع الحقائق أن انشاء اسرائيل ربما كان أخطر العوامل المنفردة التى أضرت بسياسة أمريكا ومصالحها فى الخارج منذ أحداث الحرب العالمية الثانية وأن لهذا العامل آثاره على المدى البعيد .

«إن ما تفعله اسرائيل بالنسبة لصداقيتنا ولمركزنا لا فى دول العالم العربى وحده بل فى كل أنحاء العالم الثالث لأمر فى غاية الوضوح لكل من ينظر إليه ويمعن فيه التفكير» .

وقال «كون» كذلك : «ثمة أجزاء من الشرق أردت أن أزورها خلال فترة خدمتى» . وعليه فقد حزم «كون» متاعه فى صيف ١٩٥٦ فى سيارته الفورد «الستيشن واجون» وسافر بها برا الى العراق ثم إيران وأفغانستان وباكستان «الى حيث مركزى الجديد فى نيودلهى» ويومها قال : «لقد اضطررنا الى تغيير ١٣ إطارا معطوبا فى السيارة طوال رحلتنا» لكنه ما لبث أن عاد فى عام ١٩٦٣ الى الشرق الأوسط بوصفه قنصل الولايات المتحدة فى مدينة «تبريز» شمال غربى إيران . وهو يصف الأمر بقوله : «كان ذلك رائعا . تبريز كانت فى أوج ٨٠٠ سنة من الانحدار» .

ثم عاد «كون» الى العالم العربى ليخدم فى المغرب . وبعد تقاعده مضى جانبا من وقته لتحرير مذكرات «دانييل بليس» مؤسس جامعة بيروت الأمريكية ولأن «كون» لم يتقن العربية قط بل وأمضى ردحا طويلا من خدمته خارج العالم العربى فهو معروف بأنه «مستعرب» الشرق الأدنى أو «مشد» وهو أقرب الفصائل الى المستعرب الحقيقى . بل ان «كون» يعرف هذه الفئة «مشد» بأنها أفضل مكتب بالخارجية الأمريكية ذلك لأن المسئولين فى مكتب شرق أوروبا لم يقدر لهم التعامل مع أى شغب فى عام ١٩٨٩ ولم يقتل بينهم سفير . أما موظفو الشرق الأدنى فهم

يعرفون معنى اطلاق الرصاص أو معنى التعرض لحمى الصحافة والاعلام .

كل هذه الطروحات تساق عفو الخاطر بغير مرارة أو سوء قصد . إن «الدبلوماسى كون» يدرك أنه أنجز خدمة ناجحة فى السلك الدبلوماسى الأمريكى . وهو يلحظ زائره من مسافة متباعدة وبنفس مطمئنة كما لو كان يفحصه بمنظار مكبر ويفسر الأمر بقوله : إن حياته خارج الوطن وهبته قدرا من الحكمة مما حصنه ضد «ادعاء الثقافة» وتعاطى السياسات المحلية فى أمريكا . وتلك متوالية مترابطة الحلقات يعدها «كون» نعمة يشكر ربه عليها .

«تالكوت ويليامز سيل» شخصية أخرى ما زالت موضع ترحيب، شأنه شأن معاصريه من رفاق الصبا من أمثال بيل ستولفوز وآرثر كلوز ، وقد يضاف اليهم جورج بوش أيضا برغم أنه صوت ضد بوش فى الانتخابات الرئاسية حتى رغم اتفاقه بشكل عام مع الرئيس السابق فى سياسته الشرق أوسطية . إلا أن سيل - كما يعمد بنفسه الى التوضيح «ليس رجل البعد الواحد فى أى قضية». إن بيت سيل فى منطقة واشنطن تتجلى فيه الآثار المادية التى تنبئ عن حياة أمضاها فى العالم العربى : سجاجيد شرقية ومنمنمات وصور محفورة عن الأراضى المقدسة وكتب

قديمة عن الشرق الأوسط . وهو يقول : إننى أقرأ كثيرا من الكتابات الجديدة عن المنطقة ولكن احيانا أعود الى الكتب القديمة مثل كتاب چورچ أنطونيوس بعنوان «يقظة العرب» . وعندما يبلغه زائره (مؤلف الكتاب) أنه بسبيل وضع كتاب عن «المستعربين» إذا بالسيد سيل وهو سيد مهذب مولود فى بيروت عام ١٩٢١ يبتسم بعمق ويرد بتوجيه سؤال : هل قرأت «شواطىء الحب البرية ؟» .

هذا العمل من تأليف «بفرلى بلانش» ، عبارة عن كتاب خامل الذكر حول أربع نساء من العصر الفيكتورى فى انجلترا يحاولن - كما قد نقول - وضع شخصياتهن فى بيئات فريدة وغريبة كمن يبحثن كما يقول الكتاب المذكور عن ذلك الذى تلاشى من الغرب .. ذلك الذى يشدهن اليه فى باطن اللاشعور . ذلك الجو الشرقى من الاستغراق فى التأمل .. من الاستبطان .. فى كينونة الأشياء وكيفيتها حيث تصل الأشياء إلى جوهرها فإذا به حالة من السكون اللذيذ اقرب الى الشهوة .. وأبعد تماما عما يعرفه الغرب. لكن صاحبنا «سيل» ليس من أهل الترف اللذيذ. وبرغم ان خدمته كانت عاصفة فى بعض الأحيان أوصلته بعد ترك السلك الدبلوماسى الى صدامات عنيفة مع الجماعات الموالية لاسرائيل ، إلا أنه وصل فيما يبدو الى حالة الجوهر والكيف الخاصة به رغم

أنه ينكر بشدة أنه رجل رومانسي بل يفضل أن يصف نفسه بأنه : «برجماتي، واقعي وصاحب قضية ويقول : إن الزخارف التي تزين بيتي من صنع زوجتي .. ولا يكاد يهمني جمع التحف الشرقية.. وعندما كانت تذهب الى السوق في الشرق.. كنت أقبع كرياضي- في ملعب التنس .

الخلفية العائلية للسيد «سيل» تبدو وكأنها تاريخ الحركة البشرية البروتستانتية في العالم : جده الأعلى لأبيه كان رئيسا لكلية أمهرست حينا كان دانييل بليس تلميذا بها. وجده الأعلى لأمه كان من أوائل المبشرين في تركيا والعراق، هذا الجد بالذات، ويليام فردريك ويليامز المولود في عام ١٨١٩ - عام ابحار أول مبشرين الى الشرق الاوسط. اصبح أخوه ويليز ويليامز مبشرا في الصين، وهو الذي عمل بفضل اتقانه الصينية واليابانية مترجما للكومودور «بيري» الذي فتح اليابان أمام التجارة في عام ١٨٥٢. ويفسر «سيل» الأمر فيقول : لقد تعهد جدي الأعلى بأن ينذر ولديه لخدمة الرب فذهب أولهما الى الصين واتجه الآخر الى الشرق الأوسط .

علي أن «سيل» بل وكل مستعرب من أبناء جيله يشعر بقرابة دم تربطه مع موظفي شئون الصين.. في الخارجية الأمريكية -

هؤلاء المبشرون البروتستانت وأخلافهم الدبلوماسيون فى الصين، الذين تعرضوا لنقد عنيف، شأنهم شأن المستعربين فى عقد الخمسينات . وفى هذا يقول «سيل» : نحن جزء من نفس شجرة العائلة . وفى رأيه أن موظفى شئون الصين وقعوا فريسة بين براثن المكارثية فيما وقع المستعربون بين مخالب اللوبى الجديد الموالى لاسرائيل . وفيما كانوا يتهمون موظفى الصين بأنهم أضاعوا الصين لصالح الشيوعيين فقد الصقوا بالمستعربين صفة معاداة السامية. ويتساءل صديق للدبلوماسى «سيل» من ضيع الصين ؟ ومن عارض قيام اسرائيل ؟ أنه نفس الاتهام فى الحالتين أن كل مافعله موظفو شئون الصين أنهم كانوا يبلغون عن حقيقة ما يجرى : طغمة شيانج كاى شيك كانت فاسدة وماوتسى تونج كان فى طريقه للاستيلاء على الصين. وكذلك فعلنا – أبلغنا عما كان يجرى حقا وصدقا فى الشرق الأوسط (جورج بوش، الذى كان أكبر دبلوماسى أمريكى بالصين فى السبعينات يمكن اعتباره من متأخرى اختصاصى الصين. لكن لأن بوش لم يتعلم الصينية قط فقد يوصف على نحو أدق بأنه من النوع ذي الاهتمام الصينى وقد يفسر هذا تدليله للنظام الشيوعى إبان فترة رئاسته).

وصل ويليامز فردريك ويليامز، جد «سيل الأعلى إلى سوريا فى عام ١٨٤٩ فى سن الثلاثين، وفى عام ١٨٥١ انتقل الي

الموصل حيث تمكن بعد سنتين من ذلك التاريخ من انقاذ حياة الحاخام شوليوم رئيس الطائفة اليهودية الذى اعتقله المسئولون العثمانيون بتهم فظيعة . الأمريكيون فى الشرق الأوسط كانوا متعاطفين بعامة مع يهود المشرق ، سواء كان هؤلاء الأمريكيون من المبشرين امثال صاحبنا ويليامز أو من الباحثين - المغامرين مثل «كون» الابن.. بعد ذلك انتقل المبشر ويليامز الى ماردين قرب حدود سوريا - تركيا حاليا حيث تمكن من حيازة بعض العاديات الاشورية التى لا تقدر بثمن بعد اكتشافها فى حفريات نينوى القديمة. وقد توفى ويليامز فى جنوبى تركيا عام ١٨٧١ بعد أن عاشر أربع زوجات على التوالى وماتت كل منهن بعد المرض فى الشرق الاوسط وعادت إحدى بناته الى نيو انجلند حيث تزوجت قسيسا هو ويليامز شامبرز - جد الدبلوماسى «سيل». وقد غير شامبرز مذهبه بإلحاح من زوجته وتخرج فى جامعة برنستون ثم توجه كمبشر الى شرقى تركيا ناسجا على منوال حميه المبشر ويليامز .

شامبرز هذا كان شاهد عيان على مذبحة الأرمن الجماعية. وقد كتب نداء مؤثرا الى الرئيس الأمريكى ويلسون يحث فيه على انتهاج سياسة اكثر فعالية لأمريكا فى المنطقة . وكان شامبرز

ايضا على معرفة وثيقة بالضابط البريطاني شارلس دوتي ابن أخ دوتي (رائد الاستعراب) وسميه أيضا وكان الصديق المفضل للمستشرقة «جرتود بل» التى عملت فى العراق .

وقد ولدت أم الدبلوماسى «سيل» فى «أرضروم» فى جنوب شرقى تركيا حيث مقر ابيها. وعندما كانت تمضى دراستها العليا فى الشئون الاسلامية فى جامعة كولومبيا بنيويورك التقت بوالد «سيل» لورنز سيل، الذى كان بدوره ابنا لكاهن.. وانتقل الزوجان الى بيروت عام ١٩١٩ حيث حصل والد «سيل» على وظيفة استاذ علم النفس والفلسفة بالجامعة الأمريكية في بيروت .

وقد نشأ «سيل» فى بيروت فى العشرينات وهو يبادر الى القول : «كانت نشأتى فى لبنان أمريكية الفين فى المائة ولقد قاومت بعنف تعلم العربية فى طفولتى ثم تعلمتها مثل أى موظف آخر بالسلك الدبلوماسى». وبخلاف ذلك فإن ذكرياته تشع عاطفة نحو بيروت الغافية والمسالمة وإذ كان يحف به الخدم من الأرمن وهم لاجئون من الاضطهاد التركى. ثم يقول : لقد تغيرت الاوضاع. إن اسرائيل هى واحد من العوامل التى أدت الى تسييس لبنان .

عندما عاد «سيل» إلى منطقة اسلافه فى نيو انجلند درس فى معاهد نورثاستون وماساشوستس وكانتون – نيويورك قبل أن

يتوجه ليدرس فى اكاديمية «ديرفيلد» وكلية «أمهرست» لم يكن فكرة العودة ثانية الى الشرق الاوسط تخطر فى باله - عودة يكرس فيها حياته وعمله على نحو ما فعل أبوه وجده وجد ابيه. إلا أن الحرب العالمية الثانية جاءت لتشهد «سيل» وقد تحولت به الاقدار للخدمة في ايران قبيل زحف ستالين على تلك المنطقة . وقد ساعد لوى هندرسون - الدبلوماسى الامريكى علي الحيلولة دون اتمامه) وبعد أن انخرط سيل فى السلك الدبلوماسى - الامريكي - ارسلوه الى المانيا المحتلة حيث كان «جون ماكلوى» مفوضا ساميا. كان ماكلوى من الحكماء من امثال هندرسون وماكلوى وجورج كينان وتشارلس بوهلن وعندما جسروا على أن يتناولوا فى تقاريرهم الجوانب السلبية من الواقع الروسى ، فقد استهدفت نفس السهام طائفة المستعربين - من الدبلوماسيين الامريكيين - من أبناء جيله لانهم جسروا على أن يتناولوا فى تقاريرهم الجوانب الايجابية من الشئون العربية .

يقول «سيل» : إنه تراوده مشاعر مختلطة إزاء خدمته فى المانيا بعد الحرب نظرا لما فعله النازى فى اليهود «ولقد اتجهت الى الشئون العربية أساسا إذ كان ثمة عدد ضخم من المواطنين الامريكيين المتحدثين بالألمانية ولذلك كان الشرق الاوسط فرصة

سانحة لمستقبل مرموق. لكن فى ضوء تاريخ عائلى أحسب أن علاقتى بالعرب علاقة متوازنة ولقد فقدنا فى امريكا ميزة الاسرة الممتدة الى بطون وفروع - لكن العرب لايزالون يحتفظون بهذه الميزة على مدى أجيال .

إن «سيل» ليس المستعرب الوحيد من جيله ممن خدموا شبابا فى السلك الدبلوماسى فى المانيا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية نفس التجربة خاضها رفيقان له - هما «باركر هارت» و «الفرد ليروى اثرتون» وكلاهما أصبح فى المستقبل مساعدا لوزير الخارجية الامريكية لشئون الشرق الاوسط فضلا عن أفراد آخرين من المستعربين وجميعهم يدعو أن هذا النشاط شحذ إحساسهم بمعاناة اليهود وشجعهم علي الاهتمام بالنزاع العربى - الاسرائيلي يقول قائلهم : فى المانيا أصبح واضحا أن الشرق الاوسط سيكون ساحة العمل الفعال فى المستقبل .. ولهذا اردت أن أذهب الى هناك ! إما حقيقة أن كلا منهم طلب انتدابه للعمل فى العالم العربى وليس فى اسرائيل فتفسرها مقتضيات المهنة إذ كانوا ينظرون الى اسرائيل منذ مولدها على أنها طريق مسدود لأفراد السلك الدبلوماسى، فلماذا يتعين مثلا على الدبلوماسى أن يتعلم العبرية التى لا تفيد إلا فى بلد واحد بينما لو تمكنت من

العربية فلسوف تفتح أمامك أبواب أكثر من عشرين قطرا ؟ مع هذا كله فلا يزال الأمر جديرا بالملاحظة أن يطلب «سيل» وزملاؤه بعد معايشة التجربة فى المانيا - بعد هتلر - ومازال رماد اليهود ساخنا ، الالتحاق بوظائف السلك الدبلوماسى فى العالم العربى خلال السنوات الأولى من الصراع العربى - الاسرائيلى.

فى عام ١٩٥٢ غادر سيل المانيا عائدا إلى مدارج صباه فى الشرق الأوسط ولم يكن قد رآها منذ الثلاثينيات قبيل التحاقه بأكاديمية ديرفيلدز وهناك وجد كل شئ حميما ومألوفاً. أول موقع له كان فى عمان فى الأردن حيث تسنى له رغم تواضع مركزه الدبلوماسى أن يتمتع بعلاقات خاصة مع نصف مجلس الوزراء إذ كان نصف الوزراء تلاميذ سابقين لوالده فى الجامعة الأمريكية فى بيروت، على أن سيل لم يتلفت إلى الوراء قط . فبعد أن تعلم العربية على يد مدرس فلسطينى وجد نفسه يمضى السنوات الثلاثين التالية بوصفه دبلوماسيا أمريكيا فى العالم العربى دون انقطاع ، اللهم باستثناء مهمة هنا أو مأمورية هناك بوزارة الخارجية الأمريكية حيث كان عمله يدور فى معظمه على العلاقات العربية - الأمريكية وإن كان قد عمل مساعدا أقدم لوزير الخارجية للشئون الأفريقية .

على طول هذه المسيرة اكتسب سيل ما يمكن اعتباره أراء المستعربين التقليدية . اكتسب إعجابا بمستعربى الماضى من البريطانيين وشعر أن إزاحة الاسرائيليين للفلسطينيين العرب - من فلسطين هى المشكلة المحورية فى الشرق الأوسط ، وهى المسئولة إلى حد كبير عما يستبد بالمنطقة من عنف وزعزعة للاستقرار . يتكلم سيل متدفقا عن أحداث أكتوبر ١٩٧٣ عندما كان سفيرا فى تونس ، يومها أرسل برقية إلى وزير خارجيته هنرى كيسنجر ينصحه فيها أن يرسل أسلحة للدفاع عن اسرائيل بعد أن باغتها هجوم مصر وسوريا .

ورغم أن كيسنجر وجه اليه اللوم على ذلك ، إلا أن كيسنجر كان أول من يعرف مقدرة سيل ومهارته كاختصاصى فى الشئون العربية ومن ثم أوفده كمبعوث خاص إلى لبنان عام ١٩٧٦ بعد اغتيال السفير الأمريكى فرانسيس ميلوى - وفى بيروت عمل سيل جاهدا لتدبير الإجلاء دون ضجة كبيرة للدبلوماسيين الأمريكيين وعائلاتهم وسط احتدام الحرب الأهلية، بيد أنه تعرض للنقد بغير حق إذ استخدم فى هذه العملية رجال أمن من منظمة التحرير الفلسطينية ويفسر هذا بقوله: استخدمت عناصر منظمة التحرير لأنها ببساطة كانت تسيطر على المنطقة التى تعين علينا اجتيازها .

وعندما كان سيل سفيرا لدى سوريا فى عام ١٩٨١ كانت برقياته الدبلوماسية، وبعضها رآه البعض معززا للإجراءات السورية تسبب التوتر العصبى لدى فرانسيس فوكوياما المفكر الأمريكى المعاصر وكان وقتها ضمن هيكل موظفى الخارجية الأمريكية فإذا به يكتب على هوامش تلك البرقيات تالكوت سيل هو السفير السورى فى واشنطن وليس السفير الأمريكى فى سوريا لكن الأمر كان من وجهة نظر سيل «إننى كنت أنحنى إلى الوراء كى أثبت أننى لست متحيزا بحكم الأمر الواقع». لكن عندما حل صيف ١٩٨١ كان سيل قد طفح به الكيل إزاء سياسة ادارة ريجان الجديدة ووزير خارجيته الكسندر هيج التى قامت على التأييد البالغ لاسرائيل ولم يعرض عليه القوم ترقية فما كان منه إلا أن عمد فى ٣١ أغسطس إلى استدعاء مراسلى جريدة - واشنطن بوست - ووكالة أسوشيتدبرس - إلى مكتب السفير فى دمشق ليعلن خبر اعتزاله السلك الدبلوماسى وإذ أخلد إلى كرسيه الوثير صرح السفير (الأمريكى) «سيل» أن عملية كامب ديفيد قد وصلت منتهاها وأنه ينبغى متابعة بذل جهود لإقرار السلام ضمن إطار مختلف . ودعا الولايات المتحدة إلى المبادرة فورا الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية وانتقد بألسنة حادة

رئيس الوزراء الاسرائيلى مناحم بيجن وكذلك المستوطنات المزروعة فى الضفة الغربية. ويصف صامويل لويس وكان وقتها سفيرا لأمريكا فى اسرائيل هذا التصرف الذى أقدم عليه زميله سيل بأنه تصرف «مهين» .

وفى مايو ١٩٨٢ ، وبعد أن أصبح «سيل» مواطنا عاديا خاطب الرابطة الوطنية للعرب الامريكيين قائلا : سيكون من واجبنا ان نقنع اسرائيل بأن القدس الشريف لا يمكن أن تظل مقاليدها الى الأبد بين أصغر الأديان وأقلها شأنا وهى الأديان التى جعلتها مدينة مقدسة.. واستخدم «سيل» عبارات كانت خليقة لتحقيق المصالح القومية للولايات المتحدة ، وفى اواخر تلك السنة كان سيل يتحدث امام رابطة خريجى كلية امهرست فانتقد وزير دفاع اسرائيل وقتها ايريل شارون الذى رأى فيه سيل عنصرا لا يفترق عن افراد قوات العاصفة النازية .

ولك أن تتوقع ان سيل لم تكن علاقاته سهلة مع اليهود الامريكيين وهو يتذكر مناسبة دعيت فيها مجموعة من مستعربى الخارجية الامريكية الى عشاء يهودى لجمع التبرعات وفى نهاية الامسية احسسنا - معشر المستعربين - جميعا ونحن جلوس وحدنا فى طاولتنا الخلفية ان القوم غير مستريحين لوجودنا وما كنا نحن من جانبنا بمستريحين ... كان أمرا مخجلا !

ويعترف «سيل» لمحدثه قائلا : لك أن تظنني مبالغا فى التخصص في الشرق الأوسط. والحاصل أن إحدى بناته واصلت تقاليد الأسرة فقد درست العربية فى أمهرست ثم فى الجامعة الامريكية بالقاهرة وانتقلت بعدها للتدريس فى عمان وهى تعمل معاونة ضمن هيئة موظفى الملكة نور بالأردن .

على أن «شغف» هواة مراقبة الطيور بالعرب على حد تعبير - السياسى البريطانى - كروسمان لايتعين بالضرورة ترجمته إلى علاقة شائكة مع اسرائيل فكما أن العالم يتسع لطوائف متنوعة من البشر ، هناك أيضا أنواع مختلفة من المولعين بمراقبة الطيور.

ها هو «ريتشارد اندلاند» يحدق فيك بنفس النظرة المتباعدة النافذة على نحو ما يتصف به «سيل» و «كون» . ولد فى ولاية أوماها عام ١٩٣٠ لكن عندما التحق بهارفارد لم يعد إلى مسقط رأسه فى الغرب الامريكى الأوسط. قادته الدرجة التى نالها من هارفارد إلى دراسات عليا في جامعة ستانفورد ومن ثم إلى حلقة دراسية عقدت حول مصر بلغ من قوة تأثيرها عليه أن رتب لكى يمضى سنة كاملة فى منحة دراسية بالقاهرة، يقول : ما أن حططت رحالى فى مصر - منتصف الخمسينات - حتى صرت على الفور مولعا بالعرب ودنياهم ، أدركت أننى حللت فى المكان

الذى سأجد فيه الترحيب باستمرار . نحن معشر الأمريكان جئنا بالتعليم والطب إلى سوريا – الشام – وإلى الخليج العربى ، ولقد شعرت أننا نجلب الشئ نفسه إلى مصر .

اهتم اندلاند فى مصر بدائرة الاستعلامات الامريكية المنبثقة عن الخارجية الامريكية مع اقتصار عملها على وسائل الإعلام والعلاقات الثقافية . التحق بالدائرة المذكورة فأرسلوه إلى بيروت ليتعلم العربية عام ١٩٥٧ وكانت الخارجية الامريكية قد أنشأت فى ذلك الوقت معهدا فى بيروت لتدريس العربية دون أن يرتبط رسميا بجامعتها الأمريكية وإن كان جزءاً لا يتجزأ من عالم الإغتراب والوافدين ★ . ومع ذلك يقول اندلاند : «كانت الجامعة الامريكية تقدم لنا المحاضرات وتقيم الحفلات الموسيقية وكان طلابها يستخدمون مكتبتنا كما كنا نستخدم مكتبتهم، كان لدينا الكثير مما نؤديه معا» .وكانت السنة التى أمضاها اندلاند وسط ذلك الجو المفعم بالاستعراب الأمريكى هى التى أقنعته بأن نوازعه الأولى نحو الولع بالعرب كانت صحيحة .. كان لهم وكانوا له أيضا . فمن عام ١٩٥٨ حين أصبح مسئولا صحفيا وثقافيا فى

★ يقصد معهد «شملان» لتعليم العربية فى «سوق الغرب» قرب بيروت حيث كان يدرس الدبلوماسيون وعناصر المخابرات الأمريكية «المترجم» .

سفارة أمريكا بتونس وحتى عام ١٩٩٢ حين تقاعد من السلك الدبلوماسى لم يخدم «اندلاند» سوى فى مجال الشئون العربية باستثناء وحيد يتمثل فى ١٨ شهرا أمضاها فى سايجون خلال حرب فيتنام، وفى هذا يقول «آندلاند»: إن لى من سنوات الخبرة المعاشة فى العالم العربى ما يفوق أى مستعرب آخر فى السلك الدبلوماسى الأمريكى .

وتلك حقيقة يؤكدها اندلاند وهو يستعرض قصة حياته بلهجة سريعة ورتيبة :

سنة ٦٢ إلى سنة ٦٤ فى الاسكندرية ،٦٦ و ٦٧ فى الجزائر رغم ١٤ شهرا قضيتها فى الرباط، ٦٧ إلى ٦٩ فى واشنطن وسنة ٧٠ عودة إلى بيروت و ٧١ فى الكويت ومن ٧٢ إلى ٧٥ فى الأردن ثم ٧٦ و ٧٧ فى الكويت والبحرين وقطر ثم ٧٩ إلى ٨٣ فى دمشق أجل كنت عضو مجلس إدارة المدرسة الامريكية فى سوريا وكانت المدرسة تقع بجوار ثكنات للجيش قصفها المتطرفون ، وإذ تجولت فى المدرسة بعد ذلك وجدت أشلاء بشرية عند الباب ، لكن كان لدينا برنامج ثقافى فعال أوفدنا ٥ آلاف طالب سورى للدراسة فى أمريكا وقامت مكتبتنا فى دمشق بمهمات جليلة .

أندلاند وزوجته جوان عقدا زواجهما فى القاهرة، وولد طفلهما الأول فى بيروت والثانى فى تونس والثالث فى الاسكندرية . كان

آخر موقع خدمته فى تونس حيث كان قد بدأ أولى درجات السلك الدبلوماسى منذ عقود مضت من الزمن وخلال تلك الفترة قام بعدة زيارات إلى اسرائيل وأقصى ما يسوؤه فى هذا الصدد يعبر عنه بقوله : يستبد بالاسرائيليين وسواس وهاجس الأمن بصورة لم أفهمها على الإطلاق .. ومن المؤكد أننى عارضت هذا كما عارضت ذلك العنصر المؤيد لاسرائيل فى سياستنا لكن كنت لا أشعر بأى غضاضة إذ أشرحه لمعارفى من العرب، ولو كنا نؤمن كما أؤمن بأن أبرز ما ترمز إليه أمريكا يمكن أن يؤدى إلى العالم الذى نرنو اليه جميعا فلن تثور أمامك يوما مشكلة استيعاب التفاصيل ، والفيصل فى هذا أن تعرف «من» أنت .. وأنك أمريكى فى الأساس .. فلا أنت عربى ولا أنت اسرائيلى أيضا .

«أندلاند» طويل القامة نحيل مثل - زميله السفير - «سيل» . وقد أصبح جواب آفاق فى سنوات خدمته الأخيرة ، وقبل أن يتقاعد فى واشنطن كان يقضى كل عطلة نهاية الأسبوع ماشيا يجوس خلال القرى ومضارب البدو فى أرياف تونس وقد أنس إلى الناس ونعم بما يحفل به المكان من حيوان ونبات، وفى هذا المقام يقول : كما نستطيع أن نتصور .. أنا رجل أحب العالم العربى وقد نعمت بحياة طيبة هناك .

هكذا كان أمره على هذه البساطة والتعقيد أيضا .

لم تكن جميع الأيدى العربية المحنكة على حد تعبير الخارجية الامريكية من فئة مراقبى الطيور بل كان بعضهم أقرب إلى النوع التحليلى مثل لوى هندرسون ولقد كان «ريتشارد بوردو باركر» من ذلك النمط - التحليلى من المستعربين .

هناك فى الخارجية الأمريكية من يتذكر - تالكوت سيل - وريتشارد (ديك) باركر ولو بقدر من الود المحدود فيقول إن الرجلين كانا متماثلين حتى فى الشكل والمظهر .. على أن هذا التماثل اقتصر على المظهر دون سائر الخصائص والصفات ؛ فبينما ولد سيل ونشأ بالعالم العربى بين أسرة انغمست فى أعمال التبشير ولد ديك باركر لأب عسكرى كان يعمل فى الفيلبين عام ١٩٢٣ . وبعد أشهر قليلة نقلوا أباه إلى الولايات المتحدة فاستقرت العائلة فى ولاية كانساس وعلى خلاف أسرة سيل وأضرابه من المستعربين الآخرين لم تكن أسرة باركر من براهمة نيوانجلند الميسورين .. افتقرت العائلة إلى وفرة المال بل والى الصلات الاجتماعية بما يتيح لها أن ترسل فتاها «ديك» إلى معهد تعليمى من طراز رفيع فأرسلوه إلى جامعة ولاية كانساس ليدرس الهندسة. وفى عام ١٩٣٤ التحق باركر بسلاح مشاة الجيش

ليخدم آمرا لفصيلة خلال الحرب العالمية الثانية. وفي معارك غابات «الأردين» في أواخر عام ١٩٤٣ وقع باركر أسيرا في قبضة النازيين الذين نقلوه مع أسرى أمريكيين آخرين في شاحنات مبردة ومحكمة الإقفال بغير طعام إلى معسكر للأسرى في غربي بولندا. وإذا كانت الحرب تؤذن بنهايتها جاء تحريره على يد الجيش الروسي الأحمر . وكانت تلك ضربة موجعة .. كما قد نقول إذ نقله السوفييت بدورهم في ظروف لا تكاد تختلف عن ظروف الألمان إلى أوديسا على البحر الأسود . وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، تم إطلاق سراح باركر من الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٤٥ .

وعندما جاء الربيع، ورغم أن الطقس كان لايزال باردا في الساحل الشمالي من البحر الأسود، أبحرت سفينة باركر جنوبا حيث طرأت نسمة دافئة على برودة الهواء. وبغير انتظار وبعد ثلاث سنوات من كآبة الاحباط والوحشة إذ بباركر يطالع أسوار القسطنطينية (اسطنبول) ، يرى القباب والمآذن .. «أشياء لم أكن قد رأيتها من قبل بل لم أكن أعرف أن ثمة أشياء كهذه عاشت واستمرت رغم توالي السنين» . هكذا قدر له بعد ثلاث سنوات وللمرة الأولى أن يرى أضواء المدينة. لكن الذي لايزال يتذكره عن

اسطنبول هو الدفء إذ كانت السنوات الثلاث التى أمضاها – فى أوديسا مسلسلا لا ينقطع من الرعشة تحت قارس الزمهرير بيد أن السفينة واصلت إبحارها تجاه الجنوب . وفى بورسعيد عند مدخل قناة السويس أتاه الربيع الطلق مشويا بدفء البحر الأبيض المتوسط .. ساعتها شعر باركر بمعنى الحرية لأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية و«منحوا كلا منا مائتى دولار وسمحوا لنا بمغادرة السفينة كى نستمتع بالمدينة » . وعندما سرحوه من الجيش عام ١٩٤٧ عاد إلى كانساس بهدف وحيد هو أن يتخرج من الجامعة .

فى عام ١٩٤٩ التحق ريتشارد باركر بالسلك الدبلوماسى فى الولايات المتحدة، فى تلك اللحظة كانت الخارجية قد شرعت فى الاستجابة لواقع ما بعد الحرب العالمية الثانية حيث وجدت نفسها بإزاء عالم معقد ومتغاير من شعوب وجماعات لغوية متباينة ، وقدر للولايات المتحدة أن تتنافس على مواقع النفوذ مع الاتحاد السوفييتى بوصفها قوة عسكرية واقتصادية : مثل هذا الواقع كان يتطلب سلوكا دبلوماسيا محترفا بحق إذ لم يعد كافيا، على حد تعبير أحد مسئولى السلك الدبلوماسى، الاقتصار على أندية الصفوة التى تطرح أفرادا من عشاق الموسيقى والمرح ومن ذوى

الدماء الزرقاء يعيشون ويعملون كأنهم هواة اكتسبوا الفرنسية والألمانية على مستوى تلاميذ المدارس دون أن يعرفوا شيئا عن لغات مثل الأوردية أو العربية : نحن بحاجة إلى اختصاصيين حقيقيين .

هذا الإدراك للحقيقة نجمت عنه نتيجة مقصودة وأخرى غير مقصودة تمثلت فى فرصة سانحة أتيحت لخيرة أبناء الصفوة ذوى الدم الأزرق حيث الصفوة هم أبناء المبشرين فى لبنان من أمثال سيل وتولفوز الذين كانوا يتفاخرون بصرف النظر عن معرفتهم الفعلية بالعربية بما كان لديهم من مخزون المعارف والخبرات الموروثة فيما يتعلق بالشرق الأوسط مما كان يشكل الركيزة الواضحة للخبرة بالمنطقة، أما النتيجة المقصودة فإنها أتاحت الفرصة أيضا لعناصر أقل تواضعا فى المحتد ولكن لا تقل كفاءة واستحقاقا ومنها ديك باركر.

كان باركر قد استظهر الألمانية من أيام معسكر أسرى للحرب مدللا بذلك على قدرة فى الإلمام باللغات لم يكن يعرف قط إنه يمتكلها ، وبعد جولة وظيفية اجبارية بوصفه من شباب السلك الدبلوماسى فى استراليا عينوا باركر فى مدينة القدس المقسمة فى عام ١٩٥١ و «عشت وزوجتى عند بوابة مندلبوم حيث المعبر

بين شطرى القدس الأردنى والاسرائيلى وهناك استحضرت مدرسا خصوصيا لتعليمى العربية .. كان تعليم العربية بصورة نظامية فى مراحله الأولى فى تلك الفترة وحتى عام ١٩٥٠ لم تكن الخارجية الأمريكية قد رصدت اعتمادات يؤبه لها لتدرس اللغات الشرقية الفريدة التى مالبثت أن أصبحت أمرا حيويا فى حقبة التنافس الدولى مع السوفييت » .

ألم يسبق لكل من ويليام هودجسون فى عشرينات القرن الماضى ومن بعده رايموند هير فى عشرينات القرن الحالى أن يسافر بالضرورة إلى الخارج من أجل تعلم اللغة العربية؟ وعندما التحق شاب أمريكى اسمه هيرمان إيلتس بالسلك الدبلوماسى عام ١٩٤٧ كان الموقع الوحيد فى عموم أمريكا الذى يتيح تعلم العربية هو كلية ديفنتى فى هارفارد . يقول باركر : كنت قد تعلمت المبادئ على يد اسكتلندى من نوعية المبشرين وبعدها عقدت الخارجية امتحانا لى فى إجادة اللغات وكان عبارة عن سؤالهم إياى أن أعد بالعربية من واحد إلى عشرة وبعد العد الصحيح قاموا بتدشينى بوصفى مستعربا (!) على أن الموقف تغير جذريا فى سنوات قليلة إذ أنشأت الخارجية الأمريكية معهدها المدنى لتعليم اللغة العربية فى بيروت متأثرة ولا ريب بقربه من جوار

الجامعة الامريكية وإلى ذلك المكان اتجه باركر بعد سنتين قضاهما فى القدس .

عندما غادر باركر القدس إلى بيروت كانت آراؤه فى طريقها إلى التبلور تماما فيما يخص النزاع العربى - الاسرائيلى ، وعلى خلاف سيل لم تكن عائلة باركر تستند إلى خلفية تشمل عناصر شرق أوسطية ، لكن تجربته أثناء الحرب العالمية أتاحت له أن يتعاطف مع اليهود لدرجة لم يكن ليصل إليها زميله سيل «برغم أننى نجوت من فظائع الهولوكوست إلا أن اقتيادى أسيرا للألمان فى عربة صندوق فى عز الشتاء جعلنى أكثر حساسية من الامريكى العادى إزاء ما عايشه اليهود. وعندما عرفت فى استراليا أن وزارة الخارجية تزمع إرسالى إلى الشرق الأوسط سارعت مهتاجا بإبلاغ القنصل الإسرائيلى فأمدنى بأول قائمة قراءات وأول دروس عن سياسات الشرق الأوسط، هكذا ذهبت إلى القدس وأنا فى صف اسرائيل » .

لكن أفكاره ما لبثت أن اعتراها التغيير على نحو ما يحدث للمرء إذ يتعرض لمعايشة الواقع وهو يقيم فى مكان ما مقارنا بمجرد القراءات التى يكون قد حصلها أو الزيارات المختصرة التى يكون قد قام بها ولندع باركر نفسه يفسر الأمر بهذه

العبارات : « بالتدريج .. وربما من غير وعى أو قصد لم يعد العرب بنظرى كائنات تجريدية بل أصبحوا بشرا حقيقيين وبعضهم أضحى من أصدقائنا ورغم أننى لا أتصور أن ساورتنى أوهام بشأنهم ، فإننى تفهمت عن حق أسباب السياسة التى ينطلقون منها وكانت أسبابا أكثر اقناعا من أسباب الاسرائيليين . ولا أتصور أن هذا حدث لمجرد أن تعلمت اللغة العربية بدل العبرية فاللغة ما هى إلا أداة لاتصالات أكثر تفصيلا بل إن الإقامة فى مكان ما أهم لبصيرة المرء من معرفة لغته» . وما يحدثك باركر فى هذا إلا عن معرفة وبصيرة والمهم أنه واصل مسيرته ليصبح أول اختصاصى فى شئون الحقبة الجديدة للشرق الأوسط : أول مستعرب بالخارجية الامريكية يحصل على معدل ٤ درجات من مجموع ٥ درجات فى نظام اختبارات الخارجية الامريكية الذى أخذوا به فى الخمسينات .

باركر أيضا على حق حين يلمح إلى أن العرب أكثر جاذبية من الاسرائيليين فها هو كروسمان يذكر فى مؤلفه «مهمة فى فلسطين» كيف بدا يهود فلسطين قبل قيام اسرائيل متوترين، بورجوازيين تراهم بحق من صميم أهل شرق أوروبا أو حتى من الألمان . بيد أن الأمر مضى إلى أعمق من ذلك وعلى نحو ما يعبر موظف

بريطاني كان يعمل في أردن ما بعد الحرب العالمية الأولى : إن سنوات التهذيب والشمائل العربية تفسد علينا ماهو مألوف في العالم الغربي من خشونة وفظاظة، وهكذا كان يهود فلسطين إذ ينتمون إلى مجتمع مستوطنين خشن ودينامي لا يعوزه أن يشمل أكثر من قلة من العناصر المثقفة والمتوترة والغريبة الأطوار يتجسد فيه عالم الغرب بقدر من التشفي . على أن كروسمان يصف حوارا في القدس حول موضوع: لماذا لا يملك الانجليزى سوى أن يكون مؤيدا للعرب :

«قال الكولونيل إن الأمر يرجع إلى معاداة السامية ، لكن ضابطا قال : إن هذا كان حقيقيا قبل مرحلة هتلر وقبل أن يعرف أى إنجليزى ما معنى معاداة السامية . ورد ضابط آخر أن الأمر ليس على هذا النحو ففى أثناء ثورة العرب على الأتراك، وإذ كان رجالنا يطلق عليهم الرصاص من خلف وهم يسبغون حمايتهم على اليهود كان معظمهم يحبون العرب، فالعربى المخضرم قد يطلق عليك النار فى الليل فإن جئت للتحقيق فى الصباح دعاك إلى فنجان قهوة . ثم خلصوا إلى أن ما يجعل الشرطى مواليا للعرب إنما هو شمائل العرب أنفسهم .. وهنا قال ضابط شاب : لكن أيضا لأن العربى أقل فى المستوى على نحو ما وإذا كان متعلما وتساوى معك كما يتساوى اليهودى فقد لاتنحاز إليه كما تفعل الآن » .

وفيما كان باركر ينتقل جيئة وذهابا إلى اسرائيل عن طريق بوابة مندلبوم كان يسلم باضطراد بذلك التباين الصارخ بين المجتمع الاسرائيلى وسائر أنحاء الشرق الأوسط ولكن لم يكن هذا حال زملائه من وزارة الخارجية المقيمين فى دمشق وسائر العواصم العربية .

«ألفرد ليروى أثرتون» شاهد اسرائيل لأول مرة فى صيف عام ١٩٥٥ بعد أن كان قد أمضى فى سوريا ثلاث سنوات على التوالى . ويومها قال نفسه : يا ألهى كم هم متعمقون ومتحمسون هؤلاء الا سرائيليون لاتستطيع الدخول فى حوار معهم دون أن يعترى أوصالك الجفاف . وثمة مستعرب آخر من جيله هو مايكل ستيرنر رأى اسرائيل لأول مرة في عام ١٩٥٩ بعد ما يقرب من عقد من الزمن فى الدنيا العربية حيث كان يعمل فى شركة أرامكو للنفط وبعدها فى الخارجية الأمريكية ... وقال فى انطباعاته :

«على نقيض العالم العربى، كانت الحياة الاسرائيلية تكتنفها موجة من الفكر والحركة. نحن فجأة بعد أن ننزع اللوحات العربية من سياراتنا ماركة موريس مينور المكشوفة، فى منطقة الأرض الحرام الفاصلة بين لبنان واسرائيل فإذا بنا نغوص بغتة فى مجتمع بدا كل من فيه يتجادل حول مستقبل الاشتراكية. كانت تلك مرحلة الاندفاعة المثالية فى اسرائيل قبل أن ينسدل عليها

ستار التشاؤم . لكن يا ساتر ! كم كان الطعام فظيعا : سلسلة لاتنقطع من المأكولات التى بالغوا فى طهوها على الطريقة الألمانية». على أن ستيرنر هذا كان قادرا على أن يعود للاسترخاء والراحة بعودته إلى حيث كان العرب وكان فى هذا يشابه أثرتون ويماثل باركر ومن قبلهم تالكوت سيل .. الاسرائيليون كانوا قوما يسهل تقديرهم ولكن يصعب التعامل معهم ومشكلتهم أنهم يعاملونك كما لو كنت واحدا من أقرب أفراد العائلة دون أن يراعوا أصول اللياقة والمسافة المريحة التى عادة ما ينعم بها الغرباء ، فضلا عن ذلك كانوا أندادا لك سواء بسواء ثم كان الأدهى والأنكى أن لم يسمحوا لك أن تنسى ذلك لحظة من اللحظات .

بعد أن اتقن باركر العربية فى بيروت بدأت الحياة الدبلوماسية للرجل على غرار حياة زميليه ريتشارد اندلاند وتالكوت سيل : عمان، مكتب اسرائيل والأردن فى الخارجية ، مكتب ليبيا ثم عودة إلى بيروت ثم القاهرة ثم مكتب شئون مصر فى واشنطن فالرباط . وفى عام ١٩٦٠ كان باركر قد أكمل مأموريته فى مكتب ليبيا فى واشنطن وسنحت أمامه وقتها فرصة تعلم العبرية وفى هذا يقول باركر : رفضت، إذ كان يمكن لهذا أن يخلف أثرا معاكسا على سيرتى المهنية بوصفى مستعربا وأنا معترف بذلك

فقد خلفت ورائى هناك إلى العالم العربى كثيرا من الولاءات المحلية .

هذه المحليات .. أو .. العمالات :، بدأت فى الحرب العالمية الأولى حين تبنى الوكلاء السياسيون البريطانيون - وهم عناصر المخابرات وقتها - قضية القبيلة العربية التى انتدب العميل الإنجليزى أو العميلة الانجليزية للعمل معها ،لكن معناها لدى وزارة الخارجية الأمريكية فيما بعد الحرب الثانية أصبح يعنى التعاطف مع أحد جوانب القضية ومع البشر المرتبطين بها بسبب عدم التعرض للجانب الآخر .. وقد حدث هذا فى مواقع شتى من المعمورة : مثلا الدبلوماسيون فى نيودلهى كانوا أحيانا يميلون مع الهند وضد باكستان فيما كان المحتمل أن يميل المقيمون منهم فى إسلام أباد مع باكستان ضد الهند .. هذه المتوالية أصبحت متفشية بالذات فى الشرق الأوسط بحكم عوامل رياضية بحتة: فاللغة العربية ومعها الصينية واليابانية والكورية لغات مصنفة فى السلك الخارجى على أنها لغات - فائقة الصعوبة - وبرغم أن الفارسية تستخدم الحرف العربى إلا أنها عضو فى عائلة اللغات الهندو - أوروبية وليس المجموعة الأفرو - سامية مما يجعل الفارسية أقرب إلى الانجليزية ومن ثم أسهل على نحو ما فى التعليم . والمهم أن تعلم العربية كان من ثم يستغرق سنوات . وإذ

توظف الخارجية هذا الاستثمار فى فرد ما فإنها تطلب استخدام تلك المهارات فى الميدان .. بينما لا تنفع الصينية إلا فى قلة من البلدان الأجنبية وفيما لا تصلح الكورية إلا فى شمال وجنوب كوريا ولا تستخدم اليابانية إلا فى اليابان فإن هناك أكثر من ٢٤ سفارة وقنصلية أمريكية فى العالم العربى وهى تكفى كى تستغرق تاريخ خدمة الأفراد الدبلوماسيين ، وعليه ففيما قد يمضى «العنصر » الصينى جزءا من تدرجه الوظيفى فى الشئون المتصلة بالصين فإن بوسع العنصر المستعرب أن يمضى كل سنوات نضوجه واكتماله فى العالم العربى ، وفى مثل هذه الظروف تتأثر بالطبع آراؤه بصدد المسألة العربية - الاسرائيلية .

فى أواخر الستينات كان «باركر» قد اكتسب سمعة بوصفه «رجل الولاءات المحلية» .. يقول : بعد حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧ - التى خسرتها مصر - خضت بمفردى معركة فى وزارة الخارجية الأمريكية لكى يأخذ القوم الرئيس المصرى جمال عبد الناصر على محمل الجد .. ولقد أصبح السفير باركر واحدا من أصدقاء عبد الناصر القلائل فى واشنطن ، وهكذا فعندما أصبح جوزيف سيسكو مساعدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى فى عام ١٩٦٩ وشرع فى عملية تطهير جزئية لشبكة قدامى المستعربين ، كان «ديك باركر» على رأس الضحايا ، نقلوه من

، إدارة الشئون المصرية قلب النشاط العربي - الاسرائيلي إلى المغرب على أطراف سياسات العالم العربي والشرق الأوسط . يقول باركر : «كنت أضمر كراهية شخصية لسيسكو» ، ويضيف إنه أمضى السنوات الأربع نائبا لرئيس البعثة في سفارة أمريكا بالمغرب في ظروف محفوفة بالضجر والسأم من الناحية السياسية.

بعد ذلك أصبح باركر سفيرا لأمريكا في الجزائر ثم سفيرها لدى لبنان عام ١٩٧٧ أي بعد عام من قيام «سيل» بإخلاء السفارة - كان الموقف الأمني في بيروت قد تحسن قليلا ويقول باركر : شعرت بأقسى الإهانة بفعل الغطرسة الاسرائيلية وبسبب تجاهل السيادة اللبنانية ولم يكن ثمة خيار واسع بين الاسرائيليين والسوريين. ويوضح باركر أن مناحيم بيجن رئيس وزراء اسرائيل أحرجه عندما رفض اتفاقا حول تحركات للقوات في جنوب لبنان ، لذلك فأنت تطالع في بيت باركر في ضاحية جورجتاون، واشنطن حوائط مكتبته الخاصة التي لم تقتصر على معروضات الخط العربي بل تعرض أيضا صورا كاريكاتورية لها دلالاتها .

أنهى الدبلوماسي الأمريكي - باركر - مدة خدمته سفيرا لبلاده في الرباط التي أعلنته في عام ١٩٧٩ شخصا غير مرغوب به .. بعد أن ثبت أنه كتب تقارير حول المعارضة للحكم المغربي .

وباركر يصف نفسه بأنه عضو في جماعة من أهل النخبة - الأمريكية - الذين فقدوا حظوتهم عند أصحاب العروش العربية، ومن الأسباب الأخرى التي حملت صاحب العرش المغربي على كراهية باركر أنه كان الدبلوماسي المكلف بإبلاغ شاه إيران - السابق - وقد كان صديقا للرباط ، بأن ليس بوسعه القدوم إلى أمريكا - عقب الثورة الإيرانية - حين كان الشاه وقتها في المغرب . ويصف السفير باركر مهمته تلك بأنه - تلقى التعليمات من واشنطن - بأن أعرض على الشاه بيتا - أو وطنا - في باراجواي أو جنوب أفريقيا .. ويجدر بي أن أقول أنه تلقى الأنباء كرجل.

السفير - السابق - باركر شديد الانتقاد للرئيس الأمريكي كارتر لأنه - لم يغلق سفارة أمريكا في ايران عام ١٩٧٨ ويفي بعهودنا لصديقنا - نفس الشاه الذي سبق وأن أعاده لوي هندرسون إلى عرشه منذ ربع قرن، باركر ينظر - كما ينظر - أستاذهم هندرسون إلى مصالح أمريكا نظرة حازمة مجردة من العواطف ، وهو يتصور أن أمريكا كان ينبغي لها أن تعامل الاسرائيليين بمزيد من القسوة والحزم. على مدى ما انصرم من عقود بل وتعامل صدام حسين بقدر أكبر من تلك القسوة والحزم. بهذا ينحو - باركر - بمزيد من اللائمة على رفاقه وأصدقائه من المستعربين الذين خدموا في العراق في الثمانينات ، وفي هذا

يقول قائلهم : باركر رجل من الصعب فهمه .. ثمة جانب مستقر في شخصيته يجلب له عداوة أصدقائه وعداوة الاسرائيليين على السواء .

السفير باركر متقاعد الآن ولكنه يمارس الآن ما سبق ورفضه في عام ١٩٦٠ : أنه يتعلم العبرية وهو يتدارس أحداث حرب الأيام الستة قائلا : لقد أصبت بالإحباط إزاء عجزي عن قراءة مذكرات اسحق رابين في نصها الأصلي .. وأيا ما كان الأمر فذلك هو المبرر الذي يعطيه تفسيرا لأحدث ما أقدم على تعلمه .

«جوزيف سيسكو» أصبح في عام ١٩٦٩ أول رئيس من غير المستعربين لإدارة الشرق الأوسط في الخارجية الأمريكية كمساعد للوزير . وهو يزعم أن بوسعه أن يحدد ما يزيد على عشرين نمطا من أنماط هؤلاء المستعربين .. ثم يستدرك موضحا أنه يبالغ فيما يقول وقد انحنى باتجاه زائره بزاوية حادة مضيفا : لكن صدقني . ليس هناك نمط ثابت للمستعرب في كل حال . ثم يورد على ذلك مثلا هو «الفرد أثرتون» الذي لا يصنف لا ضمن مراقبي الطيور - «المحايدون» على حد تعبير السياسي البريطاني كروسمان - ولا هو نسخة مطبوعة من لوي هندرسون - المستغرق في الأمر إلى حدود التقمص .

«الفرد روى أثرتون » فصيلة نادرة من اختصاصيى الشرق الأدنى زائدا المستعرب : هو المخضرم الذى تطور ليصبح من المحدثين ، وليثبت أنه واحد من أنجح جيل الاختصاصيين فى الشرق الأوسط وأوسعهم نفوذا وتأثيرا ، هو رجل يمكن أن يؤثر على التاريخ بفضل تطوره الشخصى فى إطار المسألة العربية - الاسرائيلية : بدأ أثرتون فى سوريا فى الخمسينات وتشكلت لديه نفس الانطباعات التى تتولد لدى الدبلوماسيين الامريكيين هناك عن العرب والاسرائيليين بيد أن آراء أثرتون ظلت فى حال من التطور وإن كان يصعب بيان السبب الذى دفع إلى هذا التطور، وبينما أمضى أثرتون ردحا طويلا من خدمته خارج المدار العربى فقد كان هذا أيضا حال دبلوماسيين آخرين ممن لم ترق آراؤهم إلى آراء أثرتون . وربما يكمن جواب مثل هذا السؤال فى خبايا الشخصية بأكثر مما يدخل فى باب تجربة بعينها هنا أو هناك .

«السفير ألفرد روى أثرتون» يخلق فى نفسك ذات الانطباع، الذى يولده فى خاطرك - السفراء أيضا - بيل ستولفوز وكارلتون كون وتالكوت سيل وريتشارد اندلاند وديك باركر : سيد مهذب ومتميز ؛ فى إهابه فتوة وفى وجدانه فيض من ذكريات يعشقها عن أيامه الخوالى فى وطن العرب. لكن بدلا من الطنافس الشرقية

ولوحات الخط العربى والمحفورات العتيقة للأرض المقدسة تزين جدران مكتبه، فأنت تجد صورا فوتوغرافية ممهورة بتوقيع أصحابها ومهداة إلى أثرتون : مناحيم بيجن وأنور السادات وهنرى كيسنجر يشكرونه على جهوده ويحمدون صداقته وغداة وفاة بيجن فى عام ١٩٩٢ أخلد أثرتون إلى مكتبه متأملا : كان قد عرف بيجن جيدا وتفاوض معه، وهنا يدلى بملاحظاته قائلا : سوف ينصفه التاريخ فعندما أعطى سيناء وأبرم السلام مع مصر، تعين على بيجن أن يتخذ خيارات صعبة .. وحكيمة كان معناه التخلى عن أشياء ظل يحارب من أجلها طوال حياته .

ولد ألفرد أثرتون عام ١٩٢١ فى بتسبورج وترعرع فى سبرنجفيلد بولاية ماساشوسيتس حيث كان أبوه مهندسا ، ويصف أسرته بأنها كانت أسرة متماسكة من الطبقة الوسطى ثم يتساءل : أتريد أن تعرف شيئا عن معاداة السامية ؟ طيب : عندما انتقلت أسرة يهودية إلى منطقتنا ولا تنس أن تلك كانت فترة أمريكا المستغرقة فى المسيحية فى الثلاثينات كنت ترى بغض اليهود حقيقة نابضة ماثلة أمام عينيك على نحو أسوأ من مواقف معاداة اسرائيل التى تبناها بعض من عرفت من الدبلوماسيين الأمريكيين .

في سبرنجفيلد درس أثرتون في مدارس الحكومة ولدى حصوله على الثانوية اتخذ والده قرارا جاء على غرار أفضل ما يتخذه الآباء من قرارات مما أدى إلى تغيير حياة ابنه : «تصور أبى أننى لم أكن مستعدا بعد من الناحية الوجدانية للالتحاق بالجامعة إذ كنت وقتها أفتقر إلى النضج والثقة في النفس ، وعليه فقد أرسلنى سنة إضافية إلى ثانوية ملحقة بأكاديمية أكستر » ، ذلك المعهد الذى أنشئ عام ١٧٨١ وكانت «مؤسسة فيليب أكستر» جزءا من نفس النخبة التى انتمى إليها مؤسسو اكاديميات متميزة أخرى مثل اندوفر وديرفيلد . ولما كانت موارد الأسرة محدودة فقد تعين على الفتى أثرتون أن يخدم جرسونا على الموائد ليدبر مصاريف الدراسة بيد أن الأشهر العشرة التى أمضاها في المدرسة أوصلته إلى جامعة هارفارد بل وسعت مداركه إذ عرضته للتعامل مع نوعيات شتى من البشر وبلغ الأمر بالفتى أثرتون إلى حد أن قام برحلة على الدراجة سنة ١٩٣٨ إلى المانيا حيث كان يعيش في بيوت الشباب ويقول لن أنسى ما حييت الشعار المعلق على باب : شبيبة هتلر : خودن فيربوتسن .. أى ممنوع لليهود . لكنها كانت التجربة التى زادتنى نضوجا وحولت المجردات عندى إلى أرض الواقع المعاش وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية قطع

أثرتون دراسته ليخدم فى وحدة لمدفعية الميدان . وكما فعل زميله باركر خدم في مناطق الغابات ، على أن صدور قانون المجندين أتاح له معاودة دراسته في هارفارد بعد الحرب والحصول على البكالوريوس ودراسة الألمانية حيث كانت المانيا والسياسة الدولية قد ملكت عليه العقل والوجدان .

فى تلك الأيام كانت كليات القمة تعمل بوصفها مزارع استنبات عناصر السلك الدبلوماسى فى أمريكا وفى ربيع ١٩٤٧ اجتاز أثرتون امتحان الخارجية وعينوه فى قنصلية أمريكا فى شتوتجارت بألمانيا وكان عمله عبارة عن استجواب الناجين من معسكرات الاعتقال النازية ومن سواهم الذين شردتهم ويلات الحرب وتقدموا للحصول على تأشيرات دخول للولايات المتحدة .. فى ذلك الوقت سافر دبلوماسى يهودى زميل هو سيمور ماكس فنجر إلى أمريكا ليشهد احتفالا بإنشاء اسرائيل . « وعاد ماكس إلى المانيا فيما يكاد يخنقه التأثر من التجربة ولم أكن قد عانيت فيه من قبل كل هذا الحماس العاطفى وظلت المسألة محفورة فى ذاكرتى» . وبعد ثلاث سنوات فى شتوتجارت انتقل أثرتون وزوجته «بيتى» إلى بون حيث كان چون ماكلوى قد وصل مفوضا ساميا لتنظيم انتقال المانيا الغربية المحتلة إلى وضع الاستقلال التام.

وبدأ الأمر فى بون وكان الدبلوماسي الأمريكى الشاب يرى الشرق الأوسط كلما تطلع فى كل زاوية وكل مسار : كانت - لجنة التوزيع المشتركة - وهى منظمة يهودية تساعد على إرسال الناجين من معسكرات الاعتقال إلى اسرائيل ، وكان أثرتون على صداقة حميمة مع زميله بيتر ميل بالسفارة البريطانية الذى كان منقولا لتوه إلى بون من دمشق ويومها قال له ميل : إن الشرق الأوسط هو المحور القادم الذى تصنع فيه منجزات الخدمة الدبلوماسية ، وعليه جاء أول أبريل عام ١٩٥٢ وبعد ما يقرب من خمس سنوات كاملة فى ألمانيا ليشهد أثرتون وهو يملأ بطاقة يسميها الدبلوماسيون - بطاقة كذبة إبريل - مؤداها : أنت تذكر المواقع الدبلوماسية الثلاثة التى تود الخدمة فيها فى انحاء العالم - ولن تحصل عادة على أى منها بيد أن أثرتون كان سعيد الحظ إذ طلب دمشق وبيروت وعمان .. فكان أن فاز بدمشق .

وقبل أن يشد الرحال إلى هناك انخرط فى دورة دراسية عن منطقة الشرق الأوسط فى المعهد الدبلوماسى . وكان أستاذه أدوار رايت الذى يتذكره أثرتون بأنه كان من أهل التبشير ؛ مؤيدا للعرب ومعاديا لاسرائيل ، وفى وجه الدعوة المذهبية التى كان يطرحها رايت دخلت آراء أثرتون الموالية لاسرائيل فى طور كمون

كالبيات الشتوى . ثم كان أن أمضى السنوات الأربع التالية من حياته فى دمشق حتى عام ١٩٥٦ . «واستقر فى ذهنى أنا وزملائى العاملين فى سوريا فى ذلك الوقت خيبة أمل جماعية كلما اتضح أن حكومتنا كانت تنحاز إلى صف اسرائيل - ذلك العنصر الدخيل على الشرق الأوسط . كانوا قد علمونى أن أرى أن العرب هم الضحايا البريئة لمشكلة أوروبا مع اليهود .. وبسبب الوضع السياسى فى سوريا الخمسينات كان قد نشأ تيار عربى كامن تحت السطح من معاداة السامية، وكان الدبلوماسيون الأمريكيون يتعاطفون مع ذلك التيار وإن كان زملائى أقرب إلى تأييد العرب منهم إلى البغض المبيت لليهود ولم يكن ذلك هو نمط معاداة السامية زمان .. فى ماساشوسيتس فى أمريكا حين انتقلت إلى منطقة الجوار عائلة يهودية».

السفير الأمريكى فى سوريا كان فى ذلك الوقت «جيمس موس» وكان بدوره مستعربا ذا باع فكرى طويل فى مجالى اللغة والثقافة على السواء ، لكن كان يراوده شعور بخيبة الأمل بالنسبة للسياسة الأمريكية.. بل وبالنسبة للعرب أيضا ذات يوم دخل أثرتون «الشاب» بعصبية مكتب السفير ليطلب منه إسداء نصيحة مهنية : كان أثرتون قد أدرك أن الوقت قد حان لكى يدرس العربية كى يصبح مستعربا بحق فما كان من السفير موس إلا أن قال :

يا فتى .. لقد درست العربية واتقنتها وخدمت فى العالم العربى .. ثم خلصت إلى أن العربية لغة تفتح بابا يفضى إلى حجرة .. فارغة خذ نصيحتى وتعلم الفرنسية بدلا منها (!) .

وهذا عين ما فعله أثرتون تماما ، أنه يعرب عن «ندمه» لأنه لم يتعلم العربية ولكنه فى هذا إنما يجامل أصدقاءه العرب لا أكثر ولا أقل ، بل هو يعلم أنه لو كان قد تعلم العربية لما أحرز ما أحرزه من تقدم فى السلك الوظيفى ، إن أثرتون بدأ يكتسب دون أن يدرى تلك الخاصية المهنية الكاملة التى تميزت بها حقبة كيسنجر : أن تكون قد حصلت على خبرة وطيدة بالشرق الأوسط لكن دون أن توسم بتلك المجموعة من المعتقدات التى تدرجك فى سلك المستعربين تلك الفئة التى كان علما عليها رجال من أمثال سيل وستوبلفوز وباركر .

الى حلب فى الشمال نقلوا أثرتون من دمشق عام ١٩٥٦ حيث كلف مع زميله كارلتون كون بتأسيس قنصلية مؤقتة فى غرفة بفندق البارون القديم. على أن تواضع الظروف فى حلب اضطر عقيلة أثرتون للبقاء فى دمشق - كانت كريمتهما تدرس فى الكلية الأمريكية فى بيروت - وفى مقهى فى حمص كان يجلس فيه أثرتون فى طريقه إلى دمشق من حلب لزيارة زوجته ، علم أثرتون

بهجوم اسرائيل على مصر فى أكتوبر عام ١٩٥٦ . كانت الأزمة المتكاثفة التى أثارها تأميم جمال عبد الناصر قناة السويس، فضلا عن الهجمات التى كان يشنها الفدائيون الفلسطينيون من الأراضى المصرية على اسرائيل قد تصاعدت لتصل إلى حرب كبرى. أما بريطانيا العظمى وفرنسا ، وقد استبد بهما الغضب بسبب تأميم القناة فقد انضمتا بدورهما إلى اسرائيل لشن هجوم ثلاثي على شبه جزيرة سيناء المصرية .. يقول أثرتون : كنت فى غاية الانتقاد لاسرائيل في تلك اللحظة ، ولحسن حظى كان هذا موقف الرئيس أيزنهاور الذى أوقف المعونات الاقتصادية الى اسرائيل وكان على وشك إجبار الدولة اليهودية قسرا على الانسحاب من المنطقة التى استولت عليها فى سيناء ، كنا معشر الأمريكيين فى وضع طيب إزاء أصدقائنا العرب فى سوريا. ولم تكن هذه الوشيجة السيكلوچية بين العرب من أهل البلاد وبين الأمريكيين لتقتصر على سوريا ففى مصر خلال حرب ١٩٥٦ تحدثت زوجة دبلوماسى أمريكية عن الجنود المصريين الذين كانوا يحاربون الاسرائيليين فقالت : « إننا فخورون بهم » .

فى أول يناير ١٩٥٧ .. افتتح «آلفرد أثرتون» رسميا أول قنصلية أمريكية فى حلب واستطاع يومها أن يرفع علم الأشرطة

والنجوم على المبنى ويشرع فى تعيين موظفين سوريين محليين ، كان زميله الدبلوماسى «كون» قد غادر لتوه بالسيارة فى طريقه إلى موقعه الجديد فى الهند .. لكن شهر العسل الثانى هذا بين أمريكا وسوريا جاء موجزا فما لبث أن انهار فى العام الذى تلا عندما قام الرئيس الأمريكى ايزنهاور بإرسال قوات مشاة الأسطول الأمريكى (المارينز) إلى سواحل لبنان لدعم حكم كميل شمعون المسيحى المارونى. يومها أدى نزول المارينز إلى البر اللبنانى إلى مظاهرات معادية لأمريكا قامت خارج قنصليتها فى حلب ، وقد عمد الرئيس الأمريكى بمساعدة جوهرية من الدبلوماسى المخضرم «لوى هندرسون» إلى صياغة «حلف بغداد» بوصفه حلفا مناهضا للسوفييت شمل كلا من تركيا وإيران وباكستان ونظام الهاشميين الموالى للغرب فى العراق . بعد ذلك وقع فى العراق انقلاب عسكرى عام ١٩٥٨ أطاح بالملكية التى كانت قد أنشأتها «جرترود بل» وزملاؤها البريطانيون بعد الحرب العالمية الأولى . ودون سابق إنذار إذا بالشعوب العربية فى العراق وسوريا ومصر تدخل مرحلة راديكالية مما جعل «أثرتون» وزملاءه الدبلوماسيين فى حال من الانتقاد المرير لسياسة الحكومة الأمريكية التى يمثلونها ، شعرنا أن وجود اسرائيل بات يحول بين

العرب تماما وبين أن يظلوا معادين للسوفييت. إن «أثرتون» يتذكر زيارة من جانب الكولونيل «ويليام أدى » وزوجته «ماري» وكانا ضيفين على بيته في دمشق ، وإذا كان الكولونيل ينتمي إلى أوساط مبشرين وكان أيضا عم «أرثر كلوز» سفير أمريكا وقتئذ بالسعودية – فقد كان معارضا لاستخدام مشاة المارينز لإنقاذ حكومة مسيحية مارونية في لبنان حتى ولو كانت موالية لأمريكا .

الكولونيل «أدى» كما يقول «فيليب بارام» كان صديقا عظيما وشخصيا للعرب.. ولطالما كان معبرا عن وجهات نظرهم .. وخاصة آراء ابن سعود .. ولو بقدر مقلق من الصراحة والبلاغة ، وكان الكولونيل «أدى» قد استقال من وزارة الخارجية في عام ١٩٤٧ احتجاجا على سياسة الرئيس الأمريكي ترومان المؤيدة لاسرائيل في فلسطين . وقد توفي عام ١٩٦٢ ، وبناء على طلبه دفنوه في لبنان وقد نقشوا على مثواه شاهدا يقول : «مارينز الولايات المتحدة» .

بيد أن «أثرتون» لم يكن راضيا كل الرضا عن بيئة التحزب أو التحيز التي كان يعيش وسطها وكأنها امتداد لمؤسسة التبشير الثقافي المنعزلة والمتماسكة في بيروت ، ويوم عمل «أثرتون» بوصفه ضابط الاتصال المسئول عن تنظيم مؤتمر اقليمي لسفراء

امريكا بالمنطقة فى دمشق .. شهد «أثرتون» كيف عومل «أدوارد لوسون» سفير أمريكا فى اسرائيل ، من جانب زملائه السفراء الأمريكيين ، معاملة العدو لا أكثر ولا أقل، ولم يشفع له أنه كان سفيرا لأمريكا .. بقدر ما كانت مشكلته أنه معين لدى اسرائيل ، وبعد المؤتمر طلب «أثرتون» من رئيسه السفير «موس» أن يسمح له ببضعة أيام إجازة يقضيها وزوجته فى اسرائيل و.. «حذرنى السفير موس » بأننى لو ذهبت فقد يعلن السوريون أننى شخص غير مرغوب فيه لكن «أثرتون» ذهب على أى حال .. «وعندما عدنا لم نلق ، للغرابة ، أى نتائج وخيمة من جانب السوريين بل وجدناهم شغوفين للغاية بمعرفة انطباعاتى عن اسرائيل » .

يخلص السفير (السابق) أثرتون من ذكرياته عن سوريا بهذه العبارات : ثمة شيئان أتذكرهما : المستعربون الأمريكيون الذين يخدمون فى اسرائيل والدبلوماسيون الأمريكيون من اليهود العاملين فى أى مكان من الشرق الأوسط : فى تلك الآونة بدأت أتساءل عما إذا كنا – معشر الامريكيين – قد أصبحنا جزءا من المعركة الدائرة .

فى عام ١٩٥٩ – بعد ١٢ سنة قضاها فى الخارج – السبع الأخيرة منها فى سوريا – عاد «أثرتون» إلى واشنطن ليعمل فى

مكتب شئون العراق والأردن بوزارة الخارجية. وكان رئيسه هو «ويليام ليكلاند» وهو مستعرب قديم من أشد المؤيدين للقومية العربية وجمال عبد الناصر وحكم الأغلبية من أهل السنة. ولأن «أثرتون» لم يكن قد تعلم العربية ، «كان واضحا أننى لم أكن عضوا فى نادى المستعربين» وعليه فبعد فترة عمل موجزة مع «ليكلاند» نقلوه من الشئون العربية إلى الشعبة اليونانية - التركية بالوزارة .

«هكذا تحولت من كونى شخصية كبيرة فى حلب الصغيرة إلى حيث أسندوا لى عملا بيروقراطيا رتيبا فى مكاتب الخارجية . وكان درسا يلقنك كيف تعيد تكييف صورتك عن الذات . ولقد تعلمت فى تلك الأثناء كيف أن واشنطن لاتستطيع أن تفهمك وأنت بعيد خارج الحدود .. تماما كما أنك لاتستطيع فهمها إذ أنت من وراء البحار » .

وكان تكليفا جديدا لم يكن بوسع كل دبلوماسى أن يقوم به . فإذا كان بمقدور معظم المستعربين أن يتعاملوا مع العرب من منطلق مواقعهم الرفيعة فى السفارة فلم يكن بوسعهم أن يتعاملوا مع أندادهم الأمريكان وسط بيئة التنافس المحتدم فى وزارة الخارجية ، لكن تكوين شخصية الدبلوماسى وسمعته إنما كان

يتم وسط تلك الممرات المنعزلة الخانقة للأنفاس ، بعد سنتين أمضاهما فى واشنطن ، أخذ «أثرتون» إجازة دراسية لتعلم الاقتصاد فى جامعة كاليفورنيا فى «بيركل»» ثم أصبح مسئولا اقتصاديا فى قنصلية أمريكا فى كلكتا بالهند، وكانت تلك خطوة فرعية من حيث تدرجه الوظيفى ، لكنها كافية، مع تجربة مكتب اليونان وتركيا لكى تحقق توازنا صحيا مع جانب المستعرب فى حياته المهنية .

عاد «أثرتون» إلى واشنطن ثانية فى عام ١٩٦٥ وكان على رأس مكتب الشرق الأدنى السفير «رايموند هير» الذى عمل دبلوماسيا شابا فى القاهرة أثناء الحرب العالمية الثانية، وها هو ذا قد أصبح مساعدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى وعمل «أثرتون» مباشرة مع مساعد هير، وهو نائبه «هاريسون سيمز» وكان المكتب فى تلك الفترة عبارة عن ماكينة استعراب فعالة التروس إذ كان يعمل بوصفه قطب التوازن البيروقراطى إزاء جهاز متزايد الخطورة والحذق يتمثل فى اللوبى اليهودى ويقول المشايعون لمكتب الشرق الأدنى إنه كان الموقع الوحيد فى واشنطن الذى يجد فيه العرب من يسمعهم بأذن صاغية ومنصفة أيضا ، فضلا عن كونه المكان الذى لم يكن للإسرائيليين أو

مؤيديهم موضع قدم عند الباب، وكان من المسئوليات التى أسندت إلى «أثرتون» مسئولية التعامل مع وكالات الإغاثة العاملة فى الشرق الأوسط. يومها لاحظ أنه فيما كانت منظمات مثل «كير» وغيرها من الجماعات العاملة مع العرب تحظى من جانب مكتب الشرق الأدنى بكل صنوف الدعم الدبلوماسى والتعبوى ، كانت المنظمات الغوثية اليهودية المتنوعة العاملة فى اسرائيل تلقى معاملة المواطن من الدرجة الثانية بل لا يعترف المكتب بوجودها . وكان الأمر فى غاية الاستفزاز . وهكذا .. قرر أثرتون أن يغير قواعد اللعبة ، وأن يسلك فى ذلك طريقته التى عرف بها من الهدوء بغير انفعال .

وكانت طريقته هذه التى لم تتعد إلى استعداء الآخرين بالإدارة هى التى دللت على مهاراته المكتبية المتميزة التى لم تفت ملاحظتها على رؤسائه ولا على اللوبى اليهودى ذاته، الذى شرع «أثرتون» فى إقامة علاقات معه ، وبهدوء أيضا ، هكذا جاءت كوامن التعاطف بين «أثرتون» واليهود وقد كانت مستترة أثناء حقبته السورية، لكى توازن تعاطفاته المؤيدة للعرب ، ويلاحظ زميل للسفير «أثرتون» أن روى «كان من التوازن والإنصاف بمكان ، ولم يفصح قط عن آرائه ولست بقادر حتى يومنا هذا أن أصف لك ماهية تلك الآراء» .

ثم شاء القدر، بعد ذلك الانقلاب الصغير الذى قام به «أثرتون» مع وكالات الإغاثة أن أعيد تنظيم وزارة الخارجية الأمريكية لينتهى الأمر بصاحبنا «أثرتون» مديرا للشئون العربية - اليهودية، ثم جاءت حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ - ومعها انطلق «أثرتون» من خمول الذكر ليصبح معروفا ومرموقا .

تجدر ملاحظة أنه فيما كانت هناك جوامع مشتركة بين رجال من طراز «كون» و «سيل» و «باركر» و «اندلاند» و «أثرتون» إلا أن ثمة قواسم فاصلة بينهم أيضا مثلا، «كون» و «أثرتون» لم يقدر لهما يوما إجادة اللغة العربية، و «باركر» لم يقدر له أن يدرس فى إحدى كليات القمة .. وهكذا ، فإن التعميم فى الحكم على هؤلاء المستعربين أمر سهل ميسور .. بشرط واحد .. ألا تكون قد التقيت بواحد منهم هنا .. أو هناك .

الفصل السابع

لا وقت للراحة

لم يشهد السلك الدبلوماسى الأمريكى يوما - لحظة واحدة من الراحة أو الفتور. هكذا يقول رجل باسم فى غاية الرضا. على عينيه نظارات نصفية ويعلو هامته شعر فى لون الفضة.. وقد جلس يحتسى قهوته «الكابوتشينو» فى أحد مقاهى شارع فيافينيتو فى روما إنه «ت. كلوفيريوس» سفير سابق لدى البحرين ويعمل مديرا عاما لقوة المراقبة فى سيناء التى تتخذ مقرها فى العاصمة الإيطالية، يبدو محدثنا وكأنه لم يترك شيئا إلا وقام به خلال خدمته الدبلوماسية: فى السعودية تعلم فن تحنيط الجثث. يقول «ليس ثمة تحنيط هناك، فالمسلمون يدفنون موتاهم خلال أربع وعشرين ساعة. لكن طبيبا لبنانيا كان يجربه على جثث الأجانب. وقد ساعدته فى ذلك يوما وأتذكر أن وضعنا جثة أمريكى فى فريزر مقصفنا الذى لم يكن فارغا بحال من الأحوال» بل أتى

حين من الدهر ليشهد الدبلوماسي «كلوفيريوس» مشاركا في تحقيق جريمة قتل اتهمت فيها امرأة أمريكية وعشيقها بتدبير قتل الزوج. وما كان من «كلوفيريوس» - وقد كان يعتقد بإدانة المرأة - إلا أن دبر لإخراجها من البلاد.

ولم تكن تلك هي المغامرات الوحيدة التي أقدم على خوضها السفير «كلوفيريوس».

لقد ولد في بوسطن عام ١٩٣٤.. منحدرا من صلب عالم جغرافي هولندي ومتخذا اسمه أيضا. ونشأ وسط عائلة من ضباط البحرية المحترفين. وبسبب ضعف النظر لم يتمكن من الالتحاق بالأكاديمية البحرية الأمريكية في «أنابوليس» حيث ذهب أفراد آخرون من أسرته. لكن بعد التخرج في جامعة «نورث وسترن» دخل مدرسة مرشحي الضباط التي أوصلته إلى دائرة استخبارات البحرية في واشنطن حيث تعين عليه الاختيار بين عدة لغات فريدة كي يتعلمها. «التقطت روزنامة وقرأت فيها أن هناك عشرين بلدا وأكثر تتحدث العربية. وعليه فقد وضعت العربية خيارا ثالثا بعد الروسية والصينية». واختارته البحرية لدرس العربية ثم أرسلته إلى كاليفورنيا بعد عام من التعلم. وبعدها أوفدوه سنتين في وظيفة تصنت لمخابرات البحرية في قبرص تخللتها رحلات إلى لبنان وسوريا ومصر.

ترك «كلوفيريوس» البحرية عام ١٩٦٢. وأمضى عاما يفكر فى الانغماس فى عالم التجارة والأعمال أو الصحافة. وأخيرا حصل على منحة دفاع قومية لدراسة شئون الشرق الأوسط بجامعة أنديانا.. ولم يطل به الوقت إلا وأصبحت فيتنام قضية ساخنة فى حرم الجامعة. «كانت فترة كئيبة بالنسبة لنا - معشر الدارسين بالجامعة ممن لهم علاقات مع الجيش». وما كان منه إلا أن التحق بالسلك الدبلوماسى فى عام ١٩٦٧ رغبة منه فى مفارقة عالم الجامعة ودوائر يسار المثقفين مع العودة إلى الخدمة الحكومية. وفى أول يونيو ١٩٦٧ أبحر على متن حاملة الطائرات الأمريكية «انديندنس» فى طريقه إلى العربية السعودية.

فى ميناء لشبونة، تلقى «كلوفيريوس» أنباء الهجوم الاسرائيلى المباغت على مصر نذيرا بحرب الأيام الستة. وكانت السفينة قد بلغت «نابولى» فيما كانت سفارات أمريكا تغلق أبوابها فى كل أنحاء العالم العربى. بيد أن السفارة فى «جدة» كانت لاتزال مفتوحة لتصريف الأعمال. وطار «كلوفيريوس» من «نابولى» إلى «اسطنبول» ومنها إلى «جدة» حيث التقى مع «تالكوت سيل» الذى كان نائبا لرئيس البعثة ثم السفير «هيرمان إيلتس» المسئول عن إبقاء السفارة مفتوحة الأبواب. «هيرمان إيلتس»، قدر له، ومعه

السفير «روى أثرتون» أن يكونا الوحيدين من أهل الاستعراب ممن سمح لهم أن يدخلوا ضمن «شلة» كيسنجر المقربة إليه. وعلى غرار «أثرتون» كان «إيلتس» يعد مستعربا غير تقليدى، بمعنى المستعرب الذى لايبدو أن يضمر آراء مؤيدة للعرب. رجل طويل القامة .. من أهل الصنعة ودود.. لايفارق الغليون أصابعه. مسرءوسو «إيلتس» كانوا مولعين بالإشارة إليه على أنه «هيرمان سليل الألمان» فى إشارة إلى أرومته الألمانية وسلوكياته المنتمية إلى عالم المحافظين. إن «إيلتس» يشع من كل جوانحه بالحكمة والخبرة: «حكيم» ينحدر من أوساط الناس يصفه «ديفيد لونج» وهو دبلوماسى آخر كان يخدم فى «جدة» فى ذلك الوقت بأنه يعمل ١٨ ساعة يوميا. وسبعة أيام بلا انقطاع فى الأسبوع، من ناحية أخرى، يلاحظ عضو فى مجلس الأمن الأمريكى القومى بأن «هيرمان إيلتس» واحد من أقدر كاتبى البرقيات الدبلوماسية فى الخارجية الأمريكية.. بفضل ما أوتى من عقلية ثاقبة وفكر منضبط.

ولد السفير هيرمان فردريك إيلتس عام ١٩٢٢ فى بلدة من أعمال سكسونيا الدنيا، وكان والده هو القنصل الألمانى العام فى القدس واسطنبول. وإذ بدأ الكساد الاقتصادى عام ١٩٢٦ يمزق

أوصال النسيج الاجتماعى والاقتصادى فى ألمانيا نقل الأب عائلته إلى «سكرانتون» فى ولاية بنسلفانيا الامريكية حيث وجد له أقرباؤه عملا فى السكة الحديد المحلية، إن غصة لاتزال فى حلق السفير «هيرمان» إذ يتحدث عن والده الذى كان يراه عاملا مرهقا مكدودا فى السكة الحديد.. والذى كان لايفتأ يلهب خيال ابنه بأحاديثه قبل النوم عن حياة رغدة ومغامرة فى السلك الدبلوماسى «لقد ضحى أبى بكل شىء كيما يتيح لى الفرصة فى أمريكا.. ومات عندما كنت فى «فردان» أشارك فى الحرب العالمية الثانية

★★★

ومن يوم تخرجه فى جامعة بنسلفانيا كان الفتى يعرف أنه سيكون دبلوماسيا. فى يوم من الأيام كان قد سمع عن كلية «فلتشر» للحقوق والدبلوماسية لكنه كان بحاجة إلى وظيفة يدفع منها مصاريف الدراسة. وشاء الحظ أن يبادر هالفورد هوسكنز «أستاذ الدراسات الشرق أوسطية إلى إتاحة فرصة عمل للفتى إيلتس يدرس فيها المركز القانونى للسودان المصرى - الإنجليزى. فى تلك الأيام حاول إيلتس أن يرفض قائلا إن اهتمامه متجه صوب الشئون الأوروبية لكن الأستاذ أجابه بقوله: أيها الفتى إن أردت عملا هنا... فأحرى بك أن تقبل ما نقدمه.. وعندما التحق

إلفتى بالجيش عام ١٩٤٢ كان اهتمامه بالشرق الأوسط قد ازداد اتقادا.

★★★

وجد نفسه فى نورماندى عام ١٩٤٤ وبعد إصابة فى الركبة أوصلته معرفته كملازم شاب بالألمانية إلى وظيفة فى المخابرات الحربية يتقصى فيها أثر مستندات النازى قبل أن يبادر القادة الهاربون إلى إعدامها أو قبل أن يصل الحلفاء الآخرون إلى وضع اليد عليها. وبعد الحرب استطاع هيرمان إيلتس أن يعوض ما فاته فالتحق بالسلك الدبلوماسى عام ١٩٤٧. على أننى أصبحت مستعربا بالصدفة، لم يكن تعلم اللغات قد تطور إلى ما أصبح عليه الآن. وكانت الساحة لا تحوى سوى القلة لدرجة أن معارفى المحدودة باللغة العربية وبأحوال المنطقة أهلتنى لوصف «الخبير» ومن ثم وضعونى فى وظائف من عاصمة لأخرى: طهران، جدة، عدن.. وبغداد.

فى عام ١٩٦٤ شغر منصب نائب رئيس البعثة الدبلوماسية الأمريكية فى تل أبيب وناور إيلتس للحصول عليه ولم يكن قد تخلى قط عن رغبته فى أن يصبح دبلوماسيا أمريكيا فى أوروبا وكأنما كان يشعر أنه بهذا يقترب من الدائرة التى كان قد بدأ بها

والده الدبلوماسى الأوروبى. وكان يتصور أن من شأن منصب فى إسرائيل أن يوصله إلى اختتام ناجح لسيرة المستعرب ويشكل من ثم خطوة وسيطة باتجاه أوروبا. ثم أن إيلتس كان يشعر بقدر من عدم الارتياح إزاء صفة مستعرب التى لصقت به وإزاء تلك النوعية من الدبلوماسيين الذين يشغفون بالولاء للثقافات المحلية وقد كتب عليه العمل معهم جنبا إلى جنب. لكن يشاء سوء طالعه أن يكون لدى أفريل هاريمان وكيل الخارجية أفكار مغايرة بالنسبة لمستقبل هيرمان إيلتس.

كان عقد استئجار القاعدة الأمريكية فى ليبيا على وشك الانتهاء، ولم يكن هاريمان واثقا فى السفير الأمريكى فى ليبيا وكان يريد عنصرا مقتدرا فى سفارته فى طرابلس يرقب تطور المفاوضات مع حكومة الملك إدريس السنوسى. وشرح هيرمان لوكيل الوزارة أهمية أن يخدم عنصر مستعرب فى إسرائيل لكى يكون مطلعا على ما يدور فى الجانب الآخر. لكن التمساح العجوز تظاهر إنه لايحسن الاستماع وإنما خفض هاريمان رأسه قائلا: إيلتس سوف تذهب إلى طرابلس.

★★★

وفى عام ١٩٦٥ كوفىء إيلتس على حسن إنجازه فى ليبيا بأن بعثوه سفيرا فى السعودية فى سن مبكرة نسبيا - الثالثة

والأربعين – وعاود وكيل الوزارة وقتها إلقاء محاضرة حازمة على مسامعه حيث قال: أرأيت لو كنت قد وافقت على طلب إرسالك إلى إسرائيل.. لما أصبحت الآن سفيرا.

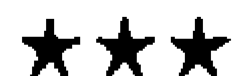
يقول جون كينيث جالبريت أستاذ الاقتصاد فى هارفارد وقد خدم بدوره سفيرا بالهند: أن تكون سفيرا أشبه بأن تكون طيارا: فترات طويلة من السأم وفترات موجزة من الإثارة وقت الأزمات.

وهكذا وفى أوائل يونيو ١٩٦٧ وقبيل وصول «كلوفيريوس» إلى جدة وبعد سنتين أمضاهما هيرمان إيلتس فى عمله كسفير بها واجه واحدة من تلك الأزمات الكبرى:

إندلع القتال فى سيناء ومرتفعات الجولان وكان الفلسطينيون فى أجهزة الإعلام (السعودية) قد أمعنوا فى تبشير الجماهير بوعود الانتصار ثم جاءت أنباء الهزائم العربية تتساقط كالصواعق على الرءوس. وشعر العسكريون بأن هناك من تخلى عنهم فقالوا إنهم لن يظلوا على علاقتهم بالأمريكان. وسارعت أرامكو إلى إجلاء مستخدميها وتلقى إيلتس برقية من واشنطن توصيه بأن يعمل بدوره على إجلاء موظفيه لكن إيلتس رفض طلب واشنطن بإغلاق السفارة.

يقول كلوفيريوس الذى وصل إلى جدة لحظة وصول الأزمة إلى نقطة الغليان كان الفرنسيون يهمسون فى الاذان بضرورة طرد

الأمريكان واعدين بأنهم سوف يديرون أرامكو من بعدهم. كانت أزمة الشرق الأوسط بالنسبة للفرنسيين عبارة عن فرصة تجارية جديدة. على أن إيلتس يتذكر أن أرامكو لم تكن هى المشكلة بل «كانت القضية الحقيقية هى المساعدات العسكرية. كان الفرنسيون على استعداد لتوقيع عقد كبير يشمل ناقلات الجنود المدرعة وكان رحيلنا جديرا بأن يفتح أمامهم الأبواب ليتولوا بدلا منا أمر العلاقات العسكرية».



ثم أن الأمر زاد خطورة بما يتجاوز مجرد المخاوف من الخسارة لصالح الفرنسيين. فكما أن سوريا الكبرى كانت محورا للعلاقات العربية الأمريكية فى مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية كانت السعودية فى الموقع نفسه فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية. رأى فينا أهلها شركاء فى أمور النفط والتجارة تماما كما سبق. ورأى فينا أهل الشام شركاء فى أمور التربية والتعليم. كانت العلاقة قد بدأت رسميا فى فبراير من عام ١٩٤٦ باجتماع الملك عبدالعزيز مع الرئيس روزفلت الذى كان المترجم فيه هو الكولونيل وليام إدى. وفى الخمسينات توازى دور أرامكو مع دور جامعة بيروت الأمريكية السابق بوصفها ضابط الإيقاع المستتر للعلاقات

العربية - الأمريكية حيث حل محل المبشرين رجال خشنون غلاظ جاءوا من تكساس وأوكلاهوما يمضغون التبغ فى أشداقهم ويصنفون بأنهم أهم أمريكيين فى الشرق الأوسط.

★★★

ولم يكن يرمز إلى هذه العلاقة بصورة أكثر بلاغة ودرامية بأكثر من خط التابلاين، تلك الأنابيب العملاقة من الأسمنت التى يجاورها طريق وقد نقلت النفط باتجاه الغرب من حقول الظهران عند الخليج عبر شمال الجزيرة العربية وحتى البحر المتوسط والبحر الأحمر وهو ما يصفه «أرنست لاثام» الذى كان من معاونى السفير إيلتس بأنه واحد من شرايين حياة الوجود الأمريكى فى الشرق الأوسط.

هذا الوجود، أو تلك الامبراطورية، كان لها أيضا جانبها الرومانسى الذى امتد حتى عقد السبعينات، أى الفترة التى انفجرت فيها أسعار البترول مما جعل السدنة الغربيين يترنحون من هول الموقف. وهنا يسترسل ديفيد لونج فى ذكرياته عن الجزيرة العربية بقوله: إنها كانت فى تلك الأيام الخوالى شيئا عظيما: كانت كيانا أصيلا.. مجتمعا تقليديا دون زخارف أو تزويق لايحمل على كاهله طبقات التمدين التى وضعها العرب فى مجتمعات مصر أو بلاد الشام.

ولقد قيض لكل من «كلوفيريوس» ومعه «لاثام» وموظف آخر من معاونى السفير إيلتس هو «جراهام فولر» أن يعايشوا هذا المجتمع الأصيل بغير تزويق عندما انطلقوا بصحبة حارس من أهل المنطقة مسلح بمسدس عيار ٣٨ مم وسيف ذهبى المقبض فى رحلة طافوا بها الجزء الشمالى من البلاد.

يتذكر «لاثام» قائلا: هذه هى بلاد العرب على فطرتها.. وكما عرفها رواد رحالة مستشرقون من أمثال تشارلس دوتى حيث ترى الرجال وقد تخلل لحاهم الخضاب وأطلت من عيونهم نظرات كالشرر، وحيث يمكن أن تتعرف على واحة اجتاحتها الملاريا من واقع البشرة التى اسودت حيث يكون السكان السود قد اكتسبوا حصانة ذاتية ضد الملاريا، فإن مالت سيارتك إلى واحة قوامها من الأهالى السود فما عليك إلا أن تغادرها لفورك قبل أن تجتاحك أسراب البعوض عند حلول الظلام. ثم يتذكر «لاثام» و«كلوفيريوس» واحة من هذا القبيل صادف فيها عددا من المدرسين الفلسطينيين ويقول: كنا أول قوم من عالم الحضارة يأتون اليهم على مدار عدة أشهر. جلسنا معا نحتسى الشاى ووضعوا بيننا إناء ضخما من فخار يحوى أقراص الكينين وتجاذبنا لساعات أطرافا من أحاديث قبل أن يسدل الظلام

الستور. ثم يضيف «لاثام»: أدركنا كم أن هناك عوامل مشتركة وكثيرة تجمع بيننا وبين هؤلاء الفلسطينيين.

في يوم آخر ضل «لاثام» و«فوللر» بعض الطريق فوجدا نفسيهما وقد تجولت بهما السيارة في ضواحي المدينة المنورة ولها قداسة مكة حيث لايجوز لغير مسلم أن يدخلها وكان على اللاندروفر أن تستدير ١٨٠ درجة عند محطة بترول كي تسارع بالخروج من المدينة.

كان الدبلوماسيون الثلاثة لا ينعمون في واقع الأمر بريعان الشباب بل كانوا يحاولون أيضا التعلق بأذيال حقبة كاملة من الزمن، حيث كان الدبلوماسيون الأمريكيون روادا يديرون على قلتهم سفارة صغيرة بشارع فلسطين في جدة بدلا من جموع البيروقراطيين العاملين في مجمع السفارة في الرياض.

ويفسر «لاثام» الأمر بقوله فيما كان القوم في أرامكو يعدون بالمئات كنا نحن لانعدو العشرات. كنا مجرد فتات على كعكة عالمهم النفطي الحافل. وكان لأرامكو مكتبتها الشرق أوسطية ومكتبها للمعلومات الذي كنا نغشاه كي نستقي ما نبغيه – في أعقاب حرب ٦٧ انتهت خدمة لاثام في الشرق الأوسط ونقلوه ليكون من أوائل المختصين بشئون البلقان.



«سينشيا بارنوم» استشارية دولية فى نيويورك نشأت فى السعودية إذ كانت ابنة ممثل شركة الطيران العالمية الأمريكية الذى يعمل مع الخطوط السعودية تقول: لم يكن ثمة ود مفقود بين الأمريكيين من جماعة النفط والتجارة ومواطنيهم من جماعة السفارة – السلك الدبلوماسى – كما يسمونهم فى جدة بل كانت كل من الجماعتين مقسمة بدورها إلى معسكرين مختلفين: الذين ينعمون بصداقات عديدة بين العرب والذين يقبعون فى بيوتهم يحتسون الخمر ويسخطون على هؤلاء التاعسين من أهل البوادى والقفار. ثم تقول إن الثغرة الواسعة بين الثقافتين الأمريكية والعربية جعلت من الصعب بناء جسور إنسانية بين الطرفين فأنت تخاطر فى ذلك بأن تقع بين المطرقة هنا والسندان هناك. ولن يكون بوسعك أن ترضى أيا من الطرفين. لهذا اختار الكثير نعمة التطرف المطلق: إما أن يكره العرب من ناحية وإما أن ينحاز إلى جانبهم بشكل تام. من ناحية أخرى كان الشعور المحلى بالمنطقة تجاه العلماء والخبراء بالذات شعورا مختلطا. لقد انقضت سنوات حتى عام ١٩٨٠ حين كان «ديفيد لونج» يدير برنامجا للماجستير مخصصا للأمير بندر بن سلطان وقدموه يومها إلى (ولى العهد) فهد بن عبدالعزيز.. ويتذكر لونج كيف كانت عبارات تقديمه

بوصفه مستعربا عبارات مفعمة بالمبالغة والسرف فى الاطناب يومها لمعت عيون فهد وتمتم بآيات من القرآن الكريم فحواها «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً».

★★★

على أن هيرمان إيلتس استطاع الإبقاء على مجمل تلك العلاقة بين الرياض وواشنطن خلال فترة حرجة للغاية ولو كان قد أصغى إلى تعليمات واشنطن لتصدعت العلاقة من أساسها على نحو ما حدث للعلاقات الأمريكية - السورية.

ولم يكن إيلتس لينطلق من دوافع مهنية بحتة بقدر ما كان يصدر أيضا عن مطلق المصلحة الأمريكية بألا تخسر ميزة تجارية كان من الصعب كسبها ولصالح دولة غربية منافسة. وليس صدفة أن استطاع إيلتس دون تقديم أى تنازلات إبقاء السفارة مفتوحة فى جدة بمعاونة نائبه سيل وغيره من المساعدين. وكان النصف الثانى من عام ١٩٦٧ فى أعقاب حرب الأيام الستة مرحلة مشوبة بتوتر شديد إذ كان يمكن أن تتصدع العلاقة الأمريكية - السعودية فى أى وقت. هناك أمضى كلوفيريوس تلك الأشهر بوصفه الموظف الأمريكى الوحيد فى الرياض يقوم بكل شىء ابتداء من المهام القنصلية الاعتيادية إلى المساومة على استئجار

البيوت استعدادا ليوم الانتقال من ميناء جدة على البحر الأحمر إلي العاصمة الصحراوية - الرياض. حيث لم يكن مسموحا من قبل بالإقامة للدبلوماسيين الأجانب.

وإذا أعجب إيلتس بجهود كلوفيريوس البالغ وقتها الثالثة والثلاثين قال له «لا بأس عليك: سأجد لك وظيفة مرموقة فور أن تنجز هذه المهمة». كان إيلتس قد درج على تبنى تشجيع الدبلوماسيين من الشباب الذين يحترمهم. منهم مثلا «ويليام روخ» الذى تبناه إيلتس بعد تكليفه بافتتاح أول مكتب صحفى وثقافى أمريكى فى الرياض فأصبح فيما بعد سفيرا باليمن ثم سفيرا فى الإمارات العربية المتحدة وذلك إنجاز يتحقق لموظف فى هيئة الاستعلامات الأمريكية وليس موظفا فى الخارجية حيث الهيئة دائرة منفصلة وحيث كان من الصعب حتى على أنبغ موظفيها أن يكون من موظفى الخارجية أو من السفراء. ومن صنائع إيلتس أيضا «دانييل كورتزر» وهو يهودى أصولى وكان نائبا لعميد جامعة يشيفا فى نيويورك وأوصى إيلتس بتعيينه مسئولا سياسيا بسفارة أمريكا فى القاهرة عام ١٩٧٩ عقب توقيع اتفاقات كامب ديفيد للسلام ويقول: «ربما كان المصريون غير مستريحين لفكرة وجود دبلوماسى يهودى. لكن.. اللعنة! لقد كانت السفارة سفارتنا

بمعنى أن ليس لأحد حق التدخل فى شئونها» وبهذا أصبح «كورتزر» أول يهودى أمريكى يخدم فى إحدى سفارات الولايات المتحدة فى بلد عربى كبير بل كان يأمر بطعام الكوشير اليهودى فيأتيه حسب الطلب إلى حيث يقيم. وفى هذا يقول أحد المستعربين: هناك نوعان من اليهود الأمريكيين ممن عملوا فى شئون الشرق الأوسط بالحكومة الأمريكية: الذين كنا نثق فى أنهم لن يسربوا - الأسرار - إلى الاسرائيليين . والذين كنا لا نثق فيهم: كورتزر كان من النوع الأول.

حرص إيلتس أيضا على أن يجد وظيفة مرموقة لمساعده الآخر «كوفيريوس» عندما حان نقله إلى موقع جديد وكان ذلك فى اسرائيل، حيث المكان الذى سبق وأراد إيلتس نفسه أن يعمل فيه ولم يستطع، بسبب افريل هاريمان.. وفى هذا يقول «كلوفيريوس»: ذكر لى إيلتس أنه ينبغى لى أن أرى كلا الجانبين وألا أعير أى التفات لسخافة العداء للسامية التى كنت قد سمعتها من آخرين كانوا يعملون فى السفارة.

عرضوا على الدبلوماسى الأمريكى «كلوفيريوس» العمل فى سفارة أمريكا فى إسرائيل، وهو يتذكر هذا العرض فيقول «كان العرف الدارج يحكم عليك ألا تتاح لك العودة إلى العالم العربى

بعد خدمة تقضيها فى إسرائيل. وعليه فقد تلقيت أخبار العرض الجديد بقدر كبير من التوجس والمخاوف والفضول». على أن كلوفيريوس إنما كان يقتحم مجالا جديدا فلم يسبق لأى مستعرب من قبل أن خدم فى إسرائيل. وكان الأمر يتطلب قدرا غير عادى من التحوط والحذر. كان عليه مثلا أن يروى أكاذيب بيضاء لأصدقائه من عرب الجزيرة حول موقعه الوظيفي الجديد، وعندما جاء الحمالون لنقل أمتعته أبلغوهم بأن يضعوا على الصناديق ملصقا يقول «الجهة المقصودة قبرص» وكان الترتيب أن يعاد تغليف وتعبئة الأمتعة لترسل من قبرص إلى إسرائيل وفى ٤ يوليو ١٩٦٩ وبعد بضعة أيام من التخلى عن حياته التى أمضاها كمستعرب فى العربية السعودية وصل «كلوفيريوس» إلى تل أبيب حيث شرع لفوره فى دراسة العبرية. «وكان لدى الاسرائيليين مقدار من الفضول والتشكك يفوق ما كان عندى. ولقد تعرفت إلى أصدقاء كثيرين فى مجتمع الأثريين المحلى بفضل الصور التى كنت أقتنيها للمواقع النبطية فى السعودية حيث لم يكن باستطاعة الاسرائيليين الذهاب إليها. وكان رد فعلى المبدئى تجاه إسرائيل إيجابيا إذ كان أداؤها أفضل قليل عما هو. الآن كنت متزوجا ولى طفل واحد فى عام ١٩٦٩ ووجدنا فى تل أبيب خدمات ومرافق

طيبة من حيث السكن والمدارس وكان ذلك فى أعقاب نشوة انتصار حرب ١٩٦٧ حيث كان الاسرائيليون بانتظار مكالمة هاتفية لصنع السلام من الملك حسين».

بعد ذلك استطاع دبلوماسيون أمريكيون كثيرون النسج على منوال كلوفيريوس.. «توماس بكرنج» مثلا انتقل من كونه سفيرا لدى الأردن ليصبح سفيرا فى اسرائيل. «ريتشارد فيتس» و«نيكولاس فيلوتس» تحركا فى الاتجاه المضاد: من مساعد رئيس البعثة فى السفارة بتل أبيب إلى سفير بالأردن. بيد أنه كلما تحرك الفرد إلى أعلى زاد ابتعاده عن معطيات الواقع المحلى فيما تقل قدرته على التنقل والترحال. ومن ثم فتجربة أن تكون سفيرا أمريكيا فى بلد عربى كالأردن ليست مغايرة كثيرا عن أن تكون سفيرا أمريكيا فى إسرائيل. ذلك لأن تقنيات الدبلوماسية متماثلة بقدر تماثل سيارات الليموزين الفارهة أيضا . لكن كلوفيريوس كان فى ذلك الوقت من شباب الدبلوماسيين الذين كتب عليهم الانتقال من دقائق الحياة فى العربية السعودية إلى دقائق الحياة فى اسرائيل. أول مهمة اسندوها إليه كانت فى المجال الاقتصادى ليعالج أمر التبرعات الخيرية الأمريكية التى انتقلت بعد الاستيلاء على الضفة الغربية من مقرها فى عمان الأردنية إلى تل أبيب بما

يكفل مواصلة تقديم خدماتها الإنسانية للفلسطينيين. وكانت تشمل مؤسسات كير والغوث الكاثوليكى والخدمة اللوثرية العالمية. وكان التعامل مع الاسرائيليين بمثابة صدمة انتابت تلك المؤسسات الخيرية حيث اتصف الاسرائيلون بمزيد من الكفاءة وقليل من أدب السلوك وكثير من الطلبات بأكثر مما كان عليه نظراؤهم العرب. لكن الأمر بالنسبة إلى «كلوفيريوس» انطوى على إمكانات النفاذ بالبصيرة، لا إلى جوهر سلطات الاحتلال الاسرائيلى فحسب، بل إلى ردود فعل العاملين فى تلك المؤسسات المسيحية الغوثية إزاء اليهود المتشددين، إذ كانت همزة الوصل لكل من المؤسسات الخيرية والدبلوماسى كلوفيريوس هى وزارة الرعاية الاجتماعية فى إسرائيل وكانت فى تلك الفترة بيد الحزب الوطنى الدينى.

يقول «كلوفيريوس»: «فى تلك الفترة كانت إسرائيل تتخير أفضل عناصرها لتضعهم فى مواقع الحكم العسكرى للضفة الغربية أملا فى كسب قلوب العرب وعقولهم لدرجة يمكن معها القول إن فى المراحل الأولى من الاحتلال كان يمكن لجيش الدفاع الإسرائيلى أن يكسب فى انتخابات شعبية بالضفة الغربية. لكن ما لبث النقاب أن انكشف عن واقع السيطرة الاستعمارية والفساد الذى يرافقها وجاء ذلك بالتدريج».

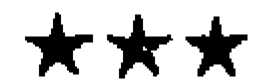
«عندما غادرت إسرائيل عام ١٩٧٢ كنت قد بدأت أشهد فسادا هائلا ضاربا أطنابه في صفوف المؤسسة المدنية العسكرية الاسرائيلية بالضفة الغربية. وكان ذلك على شكل عمليات الإذلال والإرهاب الجسدى فضلا عن الرشاوى الصغيرة مما تعين على العرب أن يدفعوها للموظفين الاسرائيليين. وما أن جاء الليكود - بيجن إلي السلطة عام ١٩٧٧ حتى عمدوا إلى تشجيع هذا الإذلال لكرامة البشر فوضعوا فى الضفة الغربية أخبث عناصر اليهود العراقيين ومن سواهم من يهود الشرق - سفارديم من أجل اضطهاد العرب. ومن الأسباب غير المذاعة عن بقاء اسحق رابين وزيرا للدفاع حتى أواخر الثمانينات أنه كان يريد استعادة نزاهة جيش الدفاع الاسرائيلى فى الضفة الغربية».

يتحدث السفير «كلوفيريوس» عن إسرائيل بنفس الطريقة التى يتناول بها أفضل المستعربين حديثهم عن الأقطار العربية، لا من منطلق المشجع وحسب، بل من منطلق المطلع على بواطن الأمور. يعرف القاموس المستخدم وظلال المعانى المطروحة والتناقضات الحاصلة والجوانب الإيجابية والحماقات المدمرة للذات. وعندما تصغى إليه فأنت تدرك مكمن سوء الفهم تجاه إسرائيل الذى يسسم به المستعربون من أصحاب المبشرين ألا وهو العجز عن

إدراك حقيقة الآخر: بمعنى أنه بقدر ما أن سوريا أو الجزيرة العربية تشكل عوالم أكثر تعقدا واكتمالا مما توحى به الصور النمطية المنطبعة عنها بالأسود والأبيض.. فكذلك الأمر مع إسرائيل. وكما أن للمستعربين أصدقاء حميمين ومعارف مقربين طوال العمر فى العالم العربى ويشكلون عنصرا إنسانيا حساسا قلما تأخذه فى الاعتبار آليات السياسة الواقعية، فإن للدبلوماسيين الذين خدموا فى إسرائيل أصدقاء ومعارف هناك. على أن المستعربين أشبه بالرحالة - المكتشفين ويعنيهم الحرص على الواقع المشاهد بالتجربة العملية وهم لا يقبلون بوجود شىء إلا إذا تيسرت لهم مشاهدته وسماعه بل ومعايشته شخصيا كما قد نقول.

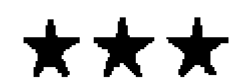
«المستعربون فى معظم الحالات ليسوا متحيزين ضد إسرائيل من منطلق مشاعر عاطفية عميقة بل لأنهم لم يتعرضوا للتجربة ببساطة» . إن كلوفيريوس يعنى بهذه العبارات أنهم لم يقدر لهم قط العيش فى إسرائيل وفى هذا يقول أيضا صمويل لويس سفير أمريكا فى إسرائيل بين عامى ١٩٧٧ و١٩٨٥ «المستعربون ثم الدبلوماسيون الأمريكيون العاملون فى اسرائيل يأتون من نسقين مختلفين تماما من أنساق التجربة الشخصية: فالمستعربون

استقوا أصدقاءهم وتجاربهم من واقع العالم العربى أما الدبلوماسيون الأمريكيون فى تل أبيب فهم اختصاصيون فى الشئون السوفيتية أو الآسيوية أو أمريكا اللاتينية وكانوا ينشدون العمل خارج مناطق اختصاصهم. لهذا حرصت أنا وروى أثرتون على الإلحاح على مباشرة عملية تخصيب متبادل بين الطرفين فى أواخر السبعينات فى محاولة لاستخدام المستعربين فى إسرائيل وبالعكس».



وإذا كان كلوفيريوس رائدا فى هذا المجال فقد عمد إلى استخدام الحقيبة الدبلوماسية لإرسال نسخ من كتاب عاموس ألون بعنوان «الاسرائيليون المؤسسون والأبناء» إلى الأصدقاء الدبلوماسيين فى كل أنحاء العالم العربى وكتاب - ألون - المنشور لأول مرة عام ١٩٧١ عبارة عن دراسة سيكولوجية بليغة لأول جيلين فى إسرائيل. ويقف الكتاب شاهدا علي وجود مؤسسة حزب العمل الليبرالية وينزع إلى التهكم على حقيقة الطابع اليهودى الشرقى لاسرائيل التى طفت على السطح أكثر وأكثر مع انصرام السبعينات مما يجعله دليلا لما أصبح يعرف باسم إسرائيل الجميلة. إن مناحم بيجين الذى تولى فيما بعد رئاسة

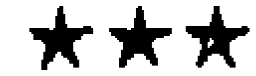
الوزارة وهو زعيم منظمة الأرجون السرية - الإرهابية - لايظهر اسمه فى فهرست اسماء الأعلام بالكتاب، من هنا يكتب ألون عن إسرائيل بغير الليكود وبغير المستوطنين من الجناح اليمينى - المتعصب - وأيضا بغير السفارديم - اليهود الشرقيين - تلك إذن إسرائيل التى يمكن أن يهضمها على الأقل كثير من المستعربين. وبالمناسبة فقد ذكر «ناتانيل هوويل» وهو مستعرب وكان سفيرا لأمريكا فى الكويت وقت الغزو العراقى أنه وجد إسرائيل فعالة نابضة بالحياة عندما زارها لأول مرة عام ١٩٧١ حيث «وجدت حساسية وقيادة عالمية الاتجاه على نحو لم اكتشفه فى السنوات اللاحقة».



والحاصل أن كثيرا من المستعربين الأمريكيين باتوا أخيرا فى السبعينات وبكل معانى الكلمة على مشارف الراحة النفسية إزاء الحقيقة القائلة بدولة يهودية. لكن جاء انتخاب بيجن لرئاسة الوزارة فى مايو ١٩٧٧ ليطوح بهم بعيدا إلى روح الخمسينات بمعنى السخط على تقسيم فلسطين. وقد صدق تالكوت سيل فى إحساسه بأن سياسات الليكود تتنافى أخلاقيا مع مصالح إسرائيل فى الأجل الطويل. ولقد جاء بيجن ليتبع سياسات

متشددة وبرغم أنه كان يوحى بدرجة من الاحترام فإن الدبلوماسيين وجدوا أنه من الصعب التعامل معه على أساس شخصى ثم أنه كان يمثل فى عيون الكثيرين الصورة النمطية السلبية عن اليهودى الأوروبى المثير للمتاعب، وإذ قدر للدبلوماسى كلوفيريوس أن يشهد تدهور المجتمع الاسرائيلى فى ظل الليكود فهو يتكلم بحمية صديق حقيقى لما يسميه إسرائيل الجميلة حين يقول:

«إنهم يعطون لمناحم بيجن أكثر مما يستحق عن كامب ديفيد وما كان لمعاهدة سلام أن تتم بين مصر وإسرائيل لولا وجود نماذج من حزب العمل من أمثال موشى ديان وعيزر وايزمان واهارون باراك ممن أسدوا النصيحة إلى بيجن وهم الذين ظلوا يضغطون صوب ابرام الاتفاق. على أن بيجن كان من التعقل إلى حد إدراك أن ليس فى صفوف الليكود موهبة يعتد بها . وهكذا كان اتجاهه لطلب المساعدة من حزب العمل. أما أريل شارون فقد ظل يوزع الاتهامات بغير أساس حول انتهاكات مصر للمعاهدة (مع إسرائيل).



إن «عاموس ألون» الكاتب المثقف والجنرال شارون بطل الحرب الذى تحول إلى سياسى من الجناح اليمينى هما بمثابة

طرفى حركة البندول التى تتحول على إيقاعها العواصف التى يسجلها المستعربون تجاه السياسات الاسرائيلية. إن السفيرة ابريل جلاسبى إذ كانت مستشارا سياسيا ونائبا لرئيس البعثة فى دمشق عام ١٩٨٢ هتفت فى مكتبها أمام كاتب هذه السطور قائلة: أوه! عاموس ألون: لله دره من رجل !

وهكذا فما عليك إلا أن تذكر اسم عاموس ألون إلا وتنطلق قلائد المديح من أفواه المستعربين فإن ذكرت شارون فلن يقتصر الأمر على السفير سيل وسط مسئولى إدارة الشرق الأدنى فى الخارجية الأمريكية ممن يجدون وزير الدفاع الإسرائيلى السابق فظا غليظا، كارلون كون يقول: عندما يتحدث شارون ويبتسم فهو أشبه بجورنج - زعيم النازى المقيت - أما لوشيوس باتل السفير السابق لدى مصر ومساعد وزير الخارجية للشرق الأدنى ورئيس معهد الشرق الأوسط فى واشنطن فيقول: إن شارون واحد من أفسد وأخبث الشخصيات فى هذا القرن.

الجنرال إيريل شارون بجرمه المكتنز وسلوكه الأشبه بوغد من الطراز التقليدى يتحمل وزر خطايا لا يستهان بها: بعضها معروف أكثر من سواه: فى منتصف الخمسينات. قاد عددا من أسوأ الغارات تعصبا لأرهاب المدنيين الفلسطينيين فى قطاع غزة.

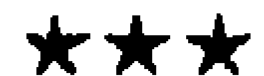
وفى عام ١٩٨٢ كان من شأن سياساته أن سمحت لوحدات الميليشيا المارونية باقتحام مخيمى صبرا وشاتيلا فى بيروت حيث ارتكبت عناصر الميليشيات مذبحة. وخلال توليه وزارة الدفاع الإسرائيلية فى أوائل الثمانينات كانت معاملته للسكان البدو المحليين عارية من اللياقة والكرامة. يتذكر أحد الدبلوماسيين الأمريكيين لقاء مع شارون فى إسرائيل حيث وقف شارون على رأس الرجل منتقدا السياسة الأمريكية بألسنة حداد متناسيا حقيقة أن أمريكا كانت تحول بلايين الدولارات نقدا وعدا إلى البلاد من أجل تعويم اقتصاده النيوستالينى. يقول الدبلوماسى الأمريكى: كان يوما قائظا وكان قميص شارون قد انفتح إلى أسفل من فرط بدانته وكان بوسعك أن تلمح العرق يتصبب فوق كرشه ليشكل بركة صغيرة فوق الأرض.

كان شارون يكره الدبلوماسيين الأمريكيين كراهية التحريم. ولم لا يفعل وقد كان مبغضا كذلك للدبلوماسيين الإسرائيليين؟ رأى فيهم حفنة من المأفونين المستعدين لإعادة تسليم أرض إسرائيل لمجرد إنشاء علاقات دبلوماسية مع المزيد من البلدان. لكن يظل من المشكوك فيه بكل مقياس حتى فى ظل خيال موغل فى التصور - التطرق إلى ايريل شارون بوصفه واحدا من أقسى

وأسوأ شخصيات العقد الأخير ناهيك عن القرن بأكمله وذلك فى ضوء ما شهده العالم فى السنوات الأخيرة من شخصيات رجال من طراز نيكولاى شاوسيسكو فى رومانيا وآية الله الخمينى فى إيران وصدام حسين فى العراق وبول موت فى كمبوديا ومنجستو هايلا مريام فى إثيوبيا المسئول عن تشريد ملايين من البشر من ديار آبائهم ناهيك عن مسئوليته عن المجاعة التى راح ضحيتها الملايين. ثم هناك بارونات الحرب فى الصومال والصرب ممن جعلوا الملايين يتضورون جوعا بل وأقاموا لهم معسكرات اعتقال بكل معنى معسكرات الاعتقال، إن المبالغات التى اكتنفت اريل شارون والتى ظل يرددها بغير انقطاع المستعربون - الأمريكيون - حول ذلك الجنرال الإسرائيلى الشديد البدانة والوقاحة، الداهية اللامع فى أمور التكتيك أليست تقود إلى طرح سؤال لامناص من طرحه: أهو شارون ذاته الذى يكرهون؟ أم شارون هذا مجرد ذريعة تريحهم ويتعللون بها للتنفيس عن بغضهم الذى يضمرون لاسرائيل؟ .

وهل اسرائيل مقبولة لديهم عندما تكون كاملة الأوصاف من الناحية الأخلاقية؟ إن السفير كلوفيريوس سوف يجيب على ذلك بانه ينبغى لزملائه أن يدركوا الظلال الرمادية الفارقة بين اسرائيل

الجميلة عند المثقف «ألون» وتلك التى يراها شارون. لكن الأمر الذى لا يخفى بحال هو أنه فيما يعكف قدامى المستعربين على الإسهام أمام زائرهم فى شرح التعقيدات الرهيبة التى ينطوى عليها تفسير الواقع العربى وهم يمضون ساعات فى ذلك ولكنهم لايكادون يأبهون بأن يروا إسرائيل من خلال صورة نمطية سلبية شديدة التبسيط.



يقول كلوفيريوس إن ذروة خدمته الدبلوماسية فى اسرائيل كانت عندما سألته جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل إذا التقته فى مكتبها إبان حفل استقبال: كيف ترى اسرائيل العالم العربى خارج حدودها؟ قلت لها «إن الاسرائيليين كانوا على قدر من السذاجة والخطأ فيما يتعلق بكثير من الأشجار العربية المغروسة هنا أو هناك ولكن لديهم فكرة طيبة عن مجمل الغابة العربية التى يتعاملون معها. وقلت لها أيضا إن اسرائيل ساذجة فى تصوراتها عن المشاعر الحقيقية الكامنة فى نفوس عرب إسرائيل وكذلك أهل الضفة الغربية».

ومن عجب أن خدمة كلوفيريوس فى إسرائيل فى أعقاب خدمته بالسعودية أدت إلى دفع ترقيه الوظيفى بدرجة غير عادية

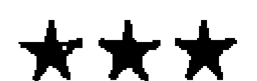
بدلا من إنهاء اختصاصه كواحد من المستعربين. وكما وجد أثرتون نفسه مسئولا عن مكتب الشئون العربية بالخارجية خلال حرب الشرق الأوسط عام ١٩٦٧ وجد كلوفيريوس نفسه مسئولا عن نفس المكتب في حرب ١٩٧٣. وعندما بدأ وزير الخارجية هنري كيسنجر رحلاته المكوكية في نهاية ذلك العام بدأ كلوفيريوس في البروز بوصفه كبير المسئولين عن الصياغة للاتفاقات المختلفة التي كانت مطروحة إذ كان زملاؤه يرون فيه ممثلا لطرفي النزاع. وفي عام ١٩٧٦ وقبل أقل من عشر سنوات على التحاقه بالسلك الدبلوماسي رشح كلوفيريوس سفيرا لدى البحرين وقلما شهد تاريخ الدبلوماسية الأمريكية موظفا ترقى من رتبة صغيرة ليصبح سفيرا في مثل هذا الوقت القصير.

عندما قرر السفير هيرمان إيلتس مقاومة اقتراح واشنطن بإجلاء موظفيه في سفارة أمريكا في جدة خلال حرب عام ١٩٦٧ أدى هذا إلى دفع تقدمه الوظيفي إلى الأمام في الأجل الطويل علي الأقل وهو في هذا يقول: قليل من الدفع يصلح الأمور .. يفيد ولن يضر في كل حال.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يتمرد فيها إيلتس على مسار التفكير السائد والطرح التقليدي: قبل اندلاع حرب ١٩٦٧ كان قد

أوصى ومعه سفير أمريكا فى ليبيا - فى ذلك الوقت «ديفيد نيوسوم» - بإرسال مدمرات بحرية أمريكية عبر مضايق تيران بمدافع مصوبة على طريقة كورفو - بمعنى غير متأهبة للانطلاق (نهجا على سابقة إرسال سفن حربية بريطانية فى مظاهرة بين ساحل كورفو اليونانى والبانيا ذات النظام الشيوعى تأييدا لليونان وترويعا لألبانيا). وكان القصد هو استعراض أمريكي للقوة أمام مصر وضد إغلاق خليج العقبة بوجه الملاحة الاسرائيلية ولتطمين الاسرائيليين بأن الولايات المتحدة عاقدة العزم على الوفاء بالتزاماتها تجاه أمنهم على نحو ما قطعته بعد حرب سيناء ١٩٥٦.. يقول إيلتس: المستعربون الآخرون كانوا ضد هذا الاقتراح وانطوى الأمر على ممارسة الولاءات المحلية من جديد.. بيد أن أفضل قوات عبدالناصر كانت وقتها متورطة فى اليمن ومن ثم فلم يكن للمصريين أن يقصفوا سفننا.

«كان الجيش المصرى يساند القوى الوطنية فى ثورة اليمن وقد واصلت الحرب الأهلية هناك من عام ١٩٦٢ إلى عام ١٩٦٩ ثم أن الاسرائيليين عندما يروننا جادين فى حمايتهم كان يمكن ألا يشعروا بضرورة شن هجوم إجهاضى مباغت على مصر على نحو ما فعلوا لفورهم».



هذا التفكير المستقل ربما يكون قد لعب دورا فى المنصب الذى أسند إلى إيلتس بعد وهو نائب قائد الكلية الحربية الأمريكية فى بنسلفانيا. وكان ذلك نوعا من المنفى الدبلوماسى وكان علي إيلتس أن يأوى إلى عزلته تلك إلى أن جاءت إحدى ليالى خريف عام ١٩٧٣ فى أعقاب حرب أكتوبر عندما تلقى مكالمة من جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى يأمره بالقدوم إلى واشنطن «لأن الوزير كيسنجر يريد أن يتكلم معك».

كان كيسنجر يستعد لأولى جولاته الدبلوماسية فى عواصم الشرق الأوسط وبدأ محادثة أيلتس بأن سأله عن الملك فيصل، عاهل السعودية قائلا: «سمعت أن فيصل معاد لليهود وأنا يهودى فقل لى كيف أتعامل معه؟» أجاب أيلتس قائلا لكيسنجر: «كل ما هنالك عليك أن تدع فيصل يتكلم ويتكلم ويتكلم وسوف يحاضرك عن المؤامرة الصهيونية وما إلى ذلك. وما عليك إلا أن تسمع بهدوء وأدب وبعد ذلك - كما شرح أيلتس - ستأتى لحظة يشير فيها فيصل إلى مسجل اللقاء بأن يغادر المكان فتلك هى نسخة الاجتماع التى سوف ترسل إلى منظمة التحرير الفلسطينية - وبعد ذلك يستطيع فيصل وكيسنجر أن يتحولا إلى الكلام الجاد والتعاون المفيد.

وقد لاحظ كيسنجر أن إيلتس كان من القلائل الذين أوصوا بكسر حصار عبدالناصر الذى فرضه على مضايق تيران فى عام ١٩٦٧. وإذ أومأ ايلتس موافقا عرض عليه كيسنجر أن يكون سفيرا فى مصر حيث كان متوقعا استئناف العلاقات الدبلوماسية فى غضون أيام بعد أن كانت قد قطعت عام ١٩٦٧. وعاد إيلتس إلى موقعه فى تلك الليلة لإعداد حقائبه. ولأن كيسنجر قام أيضا بتسريب الخبر بأن إيلتس سوف يصحبه على طائرته إلى الشرق الأوسط ثم يبقى فى القاهرة لتولى مسئولياته الجديدة فقد رتب إيلتس لشحن أمتعته فى وقت لاحق.

عمل «هيرمان إيلتس» سفيرا لأمريكا فى مصر فى الفترة بين عامى ١٩٧٤ حتى ١٩٧٩ ولم يقتصر الأمر على أنه كان من المقربين ضمن دائرة كيسنجر الضيقة من مستعربى الخارجية الأمريكية بالنسبة إلى سياسة كيسنجر بالشرق الأوسط ولا يشاركه فى ذلك سوى الفرد أثرتون بل أن إيلتس كان من المقربين إلى الرئيس جيمى كارتر أيضا.

شهد إيلتس وشارك فى عدد من الأحداث التاريخية: اتفاق سيناء لفصل القوات وقد لعبت فيها أمريكا دور السمسار بين مصر وإسرائيل بعد حرب ١٩٧٣ ثم زيارة الرئيس المصرى

السادات المفاجئة إلى القدس عام ١٩٧٧ وبعد ذلك اتفاق كامب ديفيد.

برهن إيلتس على أنه شديد المراس حقا. يقول أحد المشاركين في كامب ديفيد: إن إيلتس كان هو الذى يفسر شخصية السادات إلى كارتر وفانس وزير خارجيته وبريجنسكى مستشاره للأمن القومى. وإذا لم يكن أحد من هؤلاء يعرف كيف يفهم السادات كان إيلتس هو الذى يقول لهم متى يكون السادات جادا ومتى يكون منغمسا فى بلهوانات استعراضات مسرحية. ثم إن إيلتس كان حريصا على معاملة رئيس الوزراء بيجن باحترام محسوب كلما التقى به. كان يعرف أن وجود مستعرب سفيرا فى مصر قد يجعله محل شك فى أعين الاسرائيليين، لكنه اكتسب ثقة بيجن بل كان يرسل إليه باستمرار مذكرات مهذبة. وعندما توفيت زوجة بيجن كتب إليه رسالة شخصية ومطولة، كل ذلك رغم أن إيلتس على مستوى السياسة كان يكره مناحيم بيجن.

إن موقع «هيرمان إيلتس» فى التاريخ سيكون متصلا فى الأساس بسنوات خدمته فى مصر ، وتلك فرصة عمل يدين فيها إلى فراسة كل من سيسكو وكيسنجر بالنسبة له. ومن الواضح أن محور تقييم كيسنجر له هو قدرته على إبقاء سفارة أمريكا فى

جدة مفتوحة واستعداده لأن يعارض جميع زملائه فيوصى باستعراض عسكرى للقوة فى مضايق تيران. وهنا يتذكر جوزيف سيسكو قائلا: «هنرى وأنا رأينا أن إيلتس هو أفضل من صادفنا: كان متوازنا بأكثر من سائر المستعربين أما هنرى فقد رأى أنه لن يقامر به كما فعل بآخرين».

على أن المرء قد يشعر هنا بشىء آخر فى تقارب الرجلين دون أن يعترف به لا إيلتس ولا كيسنجر أيضا. فبرغم أن إيلتس ليس يهوديا مثل كيسنجر إلا أنه مثله ابن عائلة لاجئين ممن هربوا خشية الاضطراب السياسى فى المانيا. وعاش كلا الصبيين تجربة المهاجر إلى أمريكا فى نفس المرحلة تقريبا. والأهم أن كلا الرجلين احتفظ بين جوانحه الموروثة فيما يبدو وبصورة عميقة بما يشكل إطارا مرجعيا من تاريخ القرن التاسع عشر كى يفسر على أساسه ما تتكشف عنه حقائق الزمن الحالى.. يقول إيلتس: أنا أكن إعجابا شديدا لهنرى كيسنجر. كان العمل معه متعة فكرية، له ذهن لامع لا يلبث أن يقدح أفكارا. والأهم من ذلك أنه كان من أصحاب الرؤى النظرية يتطلع قدما إلى الطريق الذي ينبغى أن يسلكه. إن ما لا يدركه باستمرار المستعربون وغيرهم من أهل الاختصاص أن الجزء من العالم الذى ينتمون إليه لا يشكل سوى جانب من الصورة الأوسع فى مجملها وهم لم

يفهموا قط أن كيسنجر إنما كان يعمل على صعيد أوسع نطاقا بكثير بمعنى أنه كان يتعامل فى وقت واحد مع جميع أجزاء الكرة الأرضية.



بيد أن إيلتس خاض بالفعل مواجهات مع كيسنجر: «هنرى أستاذ فى فن رواية القصص مبتورة علي طريقة «ولا تقربوا الصلاة» وقد قدمت له استقالتى مرتين وأظن أننى واحد من سفراء قلائل ممن وقفوا بوجهه ولم يحنق علي ذلك بصورة ما بل بدا وكأنه يحترم هذا الموقف. وكنت من بين قلة من السفراء الذين لم يوجه اليهم انتقادا يوما من الأيام ★ .

★ فى أول مايو ١٩٩٢ منح هيرمان إيلتس كأس السلك الدبلوماسى وهو واحد من أرفع الأوسمة التى يمكن أن يحوزها دبلوماسى أمريكى. وتقول براءته: «هيرمان فردريك» إيلتس الجندى والدبلوماسى والمربى بدأ حياة مهنية طويلة ومتميزة ضابطا فى المخابرات العسكرية فى الحرب العالمية الثانية وأمضى ٣٢ عاما فى السلك الدبلوماسى توجت بتعيينه سفيرا لدى العربية السعودية ومصر، وكان المستعرب المتمكن فى الخارجية وبهذا كان ملهما لزملائه من أهل الاختصاص. وعندما تقاعد عام ١٩٧٩ أصبح أستاذا بارزا للعلاقات الدولية فى جامعة بوسطن حيث أنشأ مركز العلاقات الدولية ومن بعده قسما مستقلا للعلاقات الدولية.

إن قرار إرسال مستعرب مثل «كلوفيريوس» ليخدم فى إسرائيل ، وقرار استدعاء مستعرب آخر من نفس الطراز مثل «إيلتس» من المنفى الوظيفى تم اتخاذهم على أساس خلفية من التحولات الجوهرية التى طرأت على إدارة شئون الشرق الأدنى فى الخارجية الأمريكية ومن ثم على مجمل تاريخ المستعربين الأمريكان. ولأن هذه التحولات شكلت قوسا واسعا قبل أن تتجسد فى منعطف حاد فقد شملت تيارات متنافسة وعديدة كان من شأنها إخفاء ما كان يدور من وراء الستار لسنوات عدة فيما لاتزال تحمل مغزاها من حيث التحول المهم الذى طرأ على حياة الأفراد الذين تأثروا بها.

فحتى عام ١٩٦٩ يسهل إصدار تعميمات حول إدارة الشرق الأدنى، بل وعلى مجمل دوائر الاستعراب الأمريكية، لكن منذ ذلك الحين فصاعدا تغير المنظر الاستعرابى الشامل ليصبح غابة متشابكة الأغصان ومتداخلة الطيوف والألوان. أين هذا من الخطوط القليلة والواضحة فى الماضى؟ وقد شملت عناصر المبشرين ومراقبى الطيور وأنماط على شاكلة لوى هندرسون. لكن ظلت دوائر الجامعة الأمريكية فى بيروت استثناء شديد التميز وسط هذه العملية التى استجدت من التحديث الثقافى والسياسى.

إلا أن وزارة الخارجية تطورت بدورها بفعل عاملين نجمت عنهما سلسلة من التداعيات كان أولهما - ولعله الأقل إثارة - يتعلق بالإصلاحات التي طرأت داخل صفوف وزارة الخارجية نفسها وكانت جارية منذ عقد الخمسينات حيث جاءت الخارجية بالمزيد من العناصر من الأقليات والجماعات الإثنية وأبناء الطبقة الوسطى. أما العنصر الثاني والأهم فكان يتمثل في الفلسفة السياسية للرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون الذى تم انتخابه فى نوفمبر ١٩٦٨ والتي جاءت ترجمتها بمثابة ثورة من نوع ما فى إدارة شئون الشرق الأدنى.

الفصل الثامن

خبراء المنطقة .. ساخطون

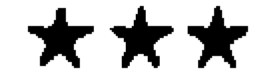
جاءت حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ بمثابة حدث زلزالى أدى إلى تغيير فى حدود الشرق الاوسط.. يقول المؤرخ السياسى «ويليام كوانت».. فى واقع الأمر فإن عملية السلام التى شهدتها السنوات الأخيرة قصد بها فى الأساس أن تعالج ما نتج عن أحداث ذلك الصراع، لكن فى عالم المناورات البيروقراطية فى واشنطن جاءت حرب الأيام الستة بنتائج شديدة الخلط والاضطراب.. شذرات متداخلة من التفاصيل التى لا توصل إلى صورة ذات معنى أو تأثير، وجاء الأمر بالنسبة لمستعربى وزارة الخارجية محاطا بغلالات من التوتر والغموض سواء فيما يتعلق بالتعبئة لتلك الحرب أو ما نتج عنها من عواقب..

فعندما عمد الزعيم المصرى جمال عبد الناصر لتصعيد التوتر فى الأسابيع السابقة على اندلاع المعارك سادت مناقشات

كثيرة في أروقة إدارة الشرق الأدنى وغيرها من أفرع الحكومة الأمريكية عما ينبغي القيام به وان لم تنشب معارك ضارية حول السياسات التى يتبعها الفرقاء.. وكما يلاحظ كوانت كان المستعربون والاسرائيليون كذلك يقفون فى نفس الجانب الذى يقول: إن على واشنطن أن تظل بعيدا عن هذا الصراع الذى بدأ يضطرم : كان المستعربون ينطلقون من فكرة أن من شأن حرب تقع أن تضعف على الأرجح من موقف اسرائيل، أما الاسرائيليون فكانوا ينطلقون عن الفكرة العكس وهى: إن بوسعهم أن يكسبوا الحرب إذا لم يتدخل أى طرف لمساعدة العرب.



الرئيس ليندون جونسون كان على غرار من سبقوه: دوايت أيزنهاور وجون كيندى، يحبذ بقاء الحالة الراهنة فى الشرق الأوسط، مزيج من التعاطف مع اسرائيل ولكن بدرجات متفاوتة ثم صداقة مع العرب والأهم من ذلك رغبة فى تفادى وقوع النزاع. ولأن جونسون كان رئيسا قليل الخبرة يفتقر إلى أى آراء ثابتة بشأن الشرق الاوسط فقد كان يتلقى المشورة عن الموضوع دون تمحيص أو رؤية وكثيرا ما كانت النصائح التى تسدى اليه متناقضة .



كان المستعمربون باستثناء هيرمان إيلتس وديفيد نيوسوم، يعارضون إرسال سفن أمريكية لكسر إغلاق جمال عبد الناصر لمضايق تيران، بيد أن مسئولين آخرين فى وزارة الخارجية من المقربين إلى وزيرها دين راسك كانوا يحبذون الفكرة إلا أن موقف الدوائر العسكرية الامريكية كان فاتراً إزاءها، وأدى فضلا عن غيره من الجدل السياسى الى عدم الحسم مما أعطى للاسرائيليين الثغرة الضيقة التى كانوا يحتاجون إليها لشن هجوم مباغت على مصر دون أن يشغلوا أنفسهم حتى بمعرفة رد فعل واشنطن، وبعد ما لا يزيد على ستة أيام من القتال لم تسقط فى يد اسرائيل سيناء فحسب بل استولت ايضا على مرتفعات الجولان السورية والضفة الغربية من الاردن ومدينة القدس بأكملها.

بالنسبة للمستعربين كانت تلك أنباء سيئة فقد تدعمت اسرائيل ولحقت المهانة بالدول العربية واغلقت سفارات امريكا فى الاقطار العربية مما اجبر اكثر من مستعرب على تغيير المسار الوظيفى، واحد منهم هو أندرو كيلجور ، وصف الحرب بأنها كارثة للسلك الدبلوماسى ، لكن انتصار اسرائيل فى معناه الاوسع ظل انتصارا للغرب على الاتحاد السوفييتى وعلى

سلاحه الأدنى مستوى وكما يقول المثل .. الهزيمة يتيمة وللنصر أكثر من والد.. فبدلا من أن يسود مناخ منذر بعواقب ساد شعور فى الإدارة الأمريكية بأن الأمور قد سارت على ما يرام من ناحية أخرى أصبح الشرق الأوسط بالنسبة لمن بقوا فى سلك الاستعراب فى مقدمة المسرح منطويا فى ذلك على تحد جديد وهو: حمل اسرائيل على مبادلة الأراضى مقابل السلام.. وأدى هذا إلى تخفيف الاكتئاب الذى شعر به كثير من المستعربين إزاء انتصار اسرائيل..

★★★

حرب الأيام الستة من منظور الماضى يمكن اعتبارها وكأنها هى التى مهدت المسرح كى تلعب عليه الشخصيات التى قدر لها أن تسيطر على مقاليد صنع السياسة بالشرق الأوسط حتى عقد الثمانينات ونتيجة لذلك فقد أفضت إلى تغيير وجه تيار الاستعراب الأمريكى. روى آثرتون مثلا، الذى تعين عليه أن يدير غرفة عمليات الخارجية الامريكية خلال حرب الأيام الستة بحكم كونه مديرا لمكتب الشئون العربية - الاسرائيلية فى إدارة الشرق الأدنى بالوزارة اعتاد النوم على أريكة والتعامل مع تفاصيل شتى من سير الحرب ما بين إجلاء الامريكيين فى الأقطار المتأثرة إلى

كتابة تقارير موقف استنادا إلى آخر برقيات المخابرات.. «هارولد سوندوز» كان أيضا مشاركا بعمق في الأمر بوصفه خبيرا في الشرق الأوسط بمجلس الأمن القومي.. أخيرا .. وليس بالتأكيد آخرا.. كان هناك الدكتور «جوزيف سيسكو» مساعد وزير الخارجية للمنظمات الدولية وكان مكتبه يتولى شئون الأمم المتحدة والوفد الأمريكي لديها ولما تولد عن حرب الأيام الستة كثير من النقاش والقرارات في الأمم المتحدة فقد تعين على سيسكو أن يحضر كثيرا من اجتماعات إدارة الأزمات التي شهدها الرئيس جونسون.

ولقد صعد نجم «سيسكو» خلال الازمة وغيره من عناصر الادارة الامريكية نظرا لندرة وجود العناصر الخبيرة بالشرق الأدنى بل كثيرا ما كان الصوت الوحيد من خبراء الشرق الأدنى في تلك المناقشات هو مساعد الوزير لشئون الشرق الادنى لوشيوس باتل الذي تقوضت سلطاته بواسطة وكيل الخارجية ايوجين روستو والسبب في هذا الضعف الذي اعترى دائرة الشرق الادنى وقت أزمة الحرب، على نحو ما يشرح مصدر مطلع، هو ذلك الاعتقاد الذي كان يساور كبار اعضاء حكومة جونسون بأن دائرة الشرق الادنى بالخارجية الامريكية كانت موالية للعرب أكثر من اللازم.

إن السفير لوشيوس باتل يرفض هذا التصور.

«لوشيوس باتل» يسمي نفسه أول مسئول من غير فصيلة المستعربين تولى منصب مساعد وزير الخارجية الامريكية لشئون الشرق الأدنى، وكان قد خلف في المنصب سلفه رايموند هير قبل أشهر قلائل من اندلاع حرب الأيام الستة. أما جانب التحيز الوحيد الذى يعتز «باتل» بالاعتراف به فهو انتماؤه الى الحزب الديمقراطى وقد كان صديقا شخصيا ومؤيدا للرؤساء كيندى وجونسون وللسياسى هيوبرت همفرى، من هنا فإن تحديد هوية «باتل» أمر لا غنى عنه لفهم الفكرة المنطبعة عن هوية المستعرب كما كانت سائدة فى أروقة الخارجية الامريكية. «لوشيوس باتل» يتكلم الفرنسية ولكنه لم يتعلم العربية قط وقد عينه الرئيس كيندى مساعدا لوزير الخارجية للشئون التربوية والثقافية، وبعد أن ثارت مشكلة فى كوبا سنة ١٩٦١ وفى أماكن أخرى كان المنصب التالى الذى اختاره باتل قائلا: لكننى لا استطيع حتى ملء الخريطة بأسماء أمريكا اللاتينية وهنا أجاب الرئيس كيندى بقول: أعرف ذلك.. لكنك الشخص الذى أريد. فى تلك الايام كان التركيز على صنائع أمريكا وحوارييها جنوب حدودها وليس فى بلاد العرب.. وكان كيندى يريد ان يزرع دائرة الموز - جمهوريات

أمريكا اللاتينية الصغيرة - بأفراد ممن ليسوا خبراء فيها. بيد أن القدر تدخل حيث قتل كيندى وجاء عام ١٩٦٤ مباشرة لتسوء العلاقات بين الولايات المتحدة ومصر. وهنا اوفد الرئيس جونسون «لوشيوس باتل» إلى مصر سفيرا لتلطيف جو العلاقات مع جمال عبد الناصر . هنالك استطاع باتل كما هو ذائع ومشهور ان ينشىء علاقة طيبة مع جمال عبد الناصر وهو يدلي بملاحظاته قائلا: كان عبد الناصر ذكيا لماحا لكن بغير ثقافة كان يفتقر تماما الى فلسفة سياسية - اقتصادية، والاشتراكية العربية عند عبد الناصر كانت عبارة عما يريد أن يفعله فى أى يوم من الايام.

وعندما أعاد جونسون باتل إلى واشنطن بعد ثلاث سنوات ليصبح مساعدا للوزير لشئون الشرق الادنى كان قد تولد عند باتل فى اقع الامر موقف أكثر تعاطفا إزاء النظام المصرى بأشد ما كان يساور المسئولين الآخرين فى الإدارة الأمريكية ، وعلى نحو ما يعبر أحد أصدقائه الاقربين أن عواطف باتل ضد اسرائيل معروفة للقاصى والدانى. وفى أعقاب حرب ١٩٦٧ حارب السفير باتل معركة لمنع إعطاء اسرائيل طائرات فانتوم «اف - ٤» قائلا إنهم ليسوا بحاجة إلى تلك الطائرات فأوضاعهم بدونها قوية للغاية.

هذا الموضوع ما لبث أن برز على السطح فى الحملة الانتخابية التى تنافس فيها هيوبرت همفرى وريتشارد نيكسون وكانت تلك أول مرة تصبح فيها مسألة بيع أسلحة الى الشرق الاوسط قضية من قضايا الانتخابات.

★★★

ومع حلول عام ١٩٦٨ كان السفير باتل يسدى مشورته إلى صديقه المرشح الرئاسى هيوبرت همفرى وكان «باركر هارت» قد اصبح مساعدا جديدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى، «هارت» هذا كان من المدرسة القديمة: عطوفا جم التهذيب ويراعى الشعرة فى آداب السلوك، يحمل الليسانس من دار تماوث والماجستير من هارفارد.. كان سفيرا فى السعودية فى أوائل الستينات إلى أن حل محله هيرمان إيلتس، كان يجيد الالمانية والعربية، وكان شأنه شأن غيره فى سلك المستعربين قد تعامل مع اللاجئين اليهود النازحين من أوروبا محاولين الدخول إلى الولايات المتحدة، ورغم أن تجربته مع اليهود لم تكن فى ألمانيا بل فى النمسا وكانت قبيل نشوب الحرب العالمية وليس بعد اندلاع الحرب ، إلا أن هارت إستطاع ان يعاين النازية فى فجاجتها الأولى فى النمسا ولم يقدر له أن ينسى هذه التجربة يوما من الايام.

وهارت مثل باتل لايضمر مشاعر مناهضة لليهود، إن ما يشعر به من تعاطف مع العرب لا يعدو كونه أحاسيس ليس إلا، وقصاراهما ان يضمنا ان موقف العرب امكن حسب الاصول تفسيره وفهمه فى أوساط واشنطن بل إذا امعنا النظر فى الامور لوجدنا أن باتل كان يؤيد علانية فى انتخابات نوفمبر ١٩٦٨ المرشح الذى كان يجهر أكثر من منافسه بتأييد اسرائيل وهو هوبرت همفرى الذى كان يبالغ فى مشاعره تجاه أزمة اليهود التاريخية بقدر ما كان يبالغ فى سائر مشاعره على الاطلاق.

كل هذا يؤثر كثيرا على سياق الاحداث، وإذا نظرنا اليه فى إطار ما جاء من بعد لرأينا أن كلا من لوشيوس «لوك» باتل وزميله باركر «بيت» هارت هما بالضرورة آخر من قام من المدرسة القديمة بترأس إدارة شئون الشرق الادنى بالخارجية الامريكية، وكل منهما كان يرى الادارة المذكورة من نفس منظور سلفهما لوى هندرسون وحدة محكمة الاغلاق على نخبة من أهل الاختصاص تعمل تماما خارج إطار الخطاب السياسى المحلى وتقصر نفسها على إجراء حسابات على البارد للمصالح الأمريكية فى العالم العربى.

وقد وقع عبء تغيير هذا التعريف لإدارة الشرق الادنى على عاتق ريتشارد نيكسون الذى هزم همفرى وانتخب رئيسا فى عام

١٩٦٨، وعلى كاهل هنرى كيسنجر مستشاره الجديد للأمن القومي الذى استولى ايضا فى موقع قيصر الشئون الخارجية.. أما ادوات هذا التغيير ممن كانوا مرءوسين للسفيرين باتل وهارت فقد كانوا رجال الصف الثاني - سيسكو وآثرتون على وجه الخصوص.

★★★

لم يكن ثمة ود مفقود بين ريتشارد نيكسون ووزارة الخارجية الامريكية. يقول بارى روبين فى كتابه بعنوان «أسرار الدولة: وزارة الخارجية والصراع على السياسة الخارجية»: إن نيكسون اصبح مشهورا شهرة عدو الشعب «الجار هيس» (الدبلوماسى الامريكى المتهم بالتجسس لحساب السوفيت عام ١٩٤٨) بمعنى كونه رمزا فى اعين الكثرة لعجز الدولة وعدم الولاء لها، بل إن نيكسون كان قد أبلغ الرئيس إيزينهاور أنه كان يلتقى مع بعض من ألمع عناصر السلك الدبلوماسى فى البلاد اثناء رحلاته - كنائب للرئيس - إلى الخارج فإذا بعدد كبير منهم لا يظهر أى إخلاص يذكر لأمريكا بل ويتبدى منه موقف الغريب عنها، والأدهى من ذلك ان نيكسون كان يرى ان هوى معظم افراد السلك الدبلوماسى كان يجنح نحو خصومه الديمقراطيين - ثم ان

نيكسون كان من مقاتلى الحرب الباردة وكان يرى الشرق الاوسط من ثم، لا من حيث كونه الشرق الاوسط بل من خلال الصراع العالمى الأشمل مع السوفييت، وهكذا كان يفعل فى هذه النقطة «لوى هندرسون». بيد أن حرب الأيام الستة التى سبقت ارتقاء نيكسون مقاليد السلطة كانت قد اعطت اسرائيل مزيدا من الاراضى ومن ثم قيمة استراتيجية أكبر مما كانت عليه يوما فى مرحلة هندرسون. فضلا عن ذلك كان السوفييت قد باتوا إلى غير ما رجعة فى عناق مع العرب مما جعل اسرائيل رصيدا ثمينا فى بورصة الحرب الباردة، وفيما كان لكل من نيكسون ومن قبله هندرسون علاقة بالغة العناء مع اليهود فإن اسبق ولاءات هندرسون كان لسلك الخدمة الدبلوماسية، وهو مؤسسة كانت تتعاطف بيروقراطيا مع العرب بحكم وجود عدد كبير من السفارات فى العالم العربى إلا أنها كانت مؤسسة ينظر إليها ريتشارد نيكسون بقدر كبير من التوجس والارتياب.

★★★

وقع أول اختيار لنيكسون لمنصب وزير الخارجية على «ويليام روجرز» وكان نائبا عاما أيام إيزنهاور، وكانت تعوزه سواء الخبرة فى السياسة الخارجية أو التمتع بشخصية حازمة وحادة، وكان

خيار نيكسون متعمدا إذ كان عاقدا العزم على تصريف السياسة الخارجية بنفسه وبمساعدة مجلس الأمن القومى الذى عمد إلي تدعيمه فوضع على رأسه هنرى كيسنجر اللاجىء اليهودى الالمانى الذى كان صنيعة جون ماكلوى، الرجل الذى جعلت منه سخرية القدر مسئولا عن منع الجيش الامريكى من قصف الخطوط الحديدية الموصلة الى معسكر اعتقال النازى فى اوشفيتز والذى كان قد حث الرئيس ترومان على عدم الاعتراف باسرائيل ذلك أن ماكلوى استخدم كيسنجر فى عام ١٩٥٦ وكان وقتها استاذا فى هارفارد لا يكاد يعرفه أحد لاجراء دراسة حول العلاقات الامريكية السوفييتية وبعدها حصل كيسنجر على وظيفة لدى المليونير نيلسون روكفلر الذى قدمه فيما بعد إلى رجال ريتشارد نيكسون.

وفيما عمدت الادارة السابقة فى البيت الابيض الى تحاشى نشوب النزاع فى الشرق الاوسط إلا ان نيكسون وكيسنجر كان من رأيهما أن توصيل الامور الى حافة المجابهة إنما ينطوى على سلسلة من الفرص التى تتيح إعادة ترتيب اجزاء اللغز المسمى بالصراع العربى الاسرائيلى بما يروق اكثر للولايات المتحدة ويستهويها. وكما يقول احد محللى الشرق الاوسط: «كيسنجر كان يكره مجرد فكرة مساعدة الاطراف على الخروج من الورطة»(!).

كيسنجر كان يقول اساسا: «لا تساعدهم على الخروج. بل اجعلهم يصلون الى حيث اليأس وبهذا يشعرون بمدى الاحتياج الينا». مع ذلك فقد جاءت اعقاب قتال ١٩٦٧ بحرب باردة من نوع ما بين الدول العربية واسرائيل حيث كانت اسرائيل ثملة بغرور فوزها فى حرب الأيام الستة فيما ظلت الدول العربية على رفضها القبول بوجود اسرائيل. هكذا بدأ الوضع فى المنطقة مجمدا، وعليه فقد شرع نيكسون وكيسنجر في معاملة المنطقة بإهمال محسوس. ثم أن يهود أمريكا وقد انتفضوا فخارا ونشاطا نتيجة لفوز اسرائيل جعلوا نيكسون ينظر الى مفاوضات الشرق الأوسط بوصفها ورقة خاسرة فى السياسة الداخلية فى امريكا، وعلى كل فقد تصل المنطقة يوما الى حال من الفوران المضطرم مما يعطى للرجلين القدرة على صياغة الواقع المحلى على صعيدها.

★★★

وزير الخارجية «ويليام روجرز» ما كان يكتفى بالانتظار كى يقع الفوران المرتقب. وإذ كان يملك فى يده اثنتين من أوراق اللعب على ساحة الشرق الاوسط فقد عقد عزمه على أن الدخول فى التجربة، الورقة الأولى تمثلت فى ان نيكسون وكيسنجر لم

يعيرا اهتماما كبيرا الى منطقة الشرق الاوسط بل تركاها ساحة تنشط فيها السياسة التقليدية للخارجية الامريكية ولم يكن قد اقدم كيسنجر بعد على تطويعها والحاقها بمجلس الامن القومي.

أما الورقة الثانية فكان اسمها «جوزيف سيسكو» الذى كان الوزير روجرز يعرفه ايام كان سيسكو يعمل مساعدا لوزير الخارجية المكلف بأنشطة الامم المتحدة ، وإذ كان روجرز عضوا مرتين في الوفد الامريكي لدى الجمعية العامة للأمم المتحدة فقد كان يعول على سيسكو التماسا لمشورة ولقد كان «جو سيسكو» هو الذى كتب قرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢» ★ فى اعقاب حرب ١٩٦٧ الذى دعا الى مبادلة الاراض بالسلام. هكذا كان سيسكو هو اول تعيين اجراه الوزير روجرز حيث نقله من الخمول النسبى فى شئون المنظمات الدولية ليصبح فى المركز الاكثر تألقا مساعدا للوزير لشئون الشرق الادنى فى مكان «باركر هارت»، وقد تبين ان هذه النقلة كانت ضربة معلم بحق حيث قدر لجوزيف سيسكو ان يكون انشط العناصر الوظيفية من بين مساعدى وزير الخارجية فى تاريخ الولايات المتحدة وقد لا يباريه فى ذلك سوى «لوى هندرسون». ولقد كانت فترة ولاية روجرز بالخارجية تتسم

★ هذه الرواية مخالفة للمتعارف عليه من أن القرار من صياغة الدبلوماسى البريطانى اللورد كارادون . «المترجم»

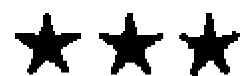
بحسن النية ثم تفتقر الى الفعالية ولو لم يفعل شيئا له قيمة لكفاه انه قام بتعيين «جو سيسكو» مساعدا للوزير للشرق الادنى وروى اثرتون نائبا لمساعد الوزير.

مع ذلك. فلم يكن الذى تدخل فى هذا الامر هو الوزير روجرز بشخصه بل هو التاريخ ايضا، يفسر ذلك ويليام كوانت بقوله: لقد اختير سيسكو بحكم الحاجة تحديدا الى عنصر ملم ببواطن الامور يتولى ادارة الشرق الادنى غداة حرب ١٩٦٧ عندما اصبح الشرق الاوسط فجأة قضية عالمية الابعاد.

آثرتون يقول: إن التحولات التى طرأت على الإدارة المذكورة حدثت عندما جاء سيسكو اليها اما هيرمان إيلتس فيرى ان سيسكو جاء الى إدارة الشرق الادنى بقدر كبير من التوازن كانت الحاجة ماسة إليه .

كان سيسكو مصداقا للقول الشعبى الدارج: «عليك أن تكسر البيضات لكى تصنع العجة». كان عنصرا فعالا، رغم أنه كان مكروها فى بعض الاحيان لانه حطم مستقبل افراد، ومن المثير ان عناصر السلك الامريكي الدبلوماسى لاتزال تحتفظ بأشرس الانتقادات بما يبلغ كراهية التحريم أو يكاد لرجال من طراز جوزيف سيسكو وهنرى كيسنجر وجيمس بيكر. ولقد كان كيسنجر وبيكر من الطراز الفعال لوزراء الخارجية لكنهما أساءا

معاملة هيئة السلك الدبلوماسي ، سيسكو بدوره، مثل كيسنجر وبيكر، فهم واستوعب ان بيروقراطية السلك الدبلوماسي مهما كانت موهبة العناصر لا تعدو كونها إدارة تنتظر صاحب اليد الخبيرة الذى يبادر الى التقاطها ثم يستخدمها لتحقيق غرض بعينه، غرضه هو شخصيا.



فى مقابلات شخصية مع مؤلف الكتاب توالت شكاوى اعضاء السلك الدبلوماسى بحق سيسكو، يقول «لوشيوس باتل»: «إن لى رأيا سلبيا للغاية حول الطريقة التى كان يعمل بها سيسكو». أما ريتشارد باركر فيقول «أنا اكره سيسكو شخصيا» فيما يقول جيمس اكنز وكان سفيرا فى السبعينات لدى السعودية: «سيسكو لم يكن يعرف حرف الالف من كوز الذرة عن الشرق الاوسط، لم يكن يدرى شيئا عن المنطقة ولا قرأ يوما كتابا حولها ولم يخدم فى الخارج قط. لكن كان بالطبع صديقا شخصيا لهنرى كيسنجر» و«نحن المستعربين رأينا فى هذه الرابطة الاساسية ودا عميقا تجاه دولة اسرائيل حيث كانا يتطلعان إلى انجاز ما تريد اسرائيل إنجازه» هكذا يقول اندرو كيلجور وكان سفيرا فى قطر وعباراته هذه مقتبسة من مقابلة حول تاريخه الشفوى اجراها

تشارلس ستبوارت كيندى فى ١٥ يونيه ١٩٨٨ تحت اشراف جمعية الدراسات الدبلوماسية وهو السفير الوحيد الذى تم الاتصال به لكنه رفض مقابلة مؤلف الكتاب، هناك ايضا من مستعربى السلك الدبلوماسى الامريكى من يقول: إن سيسكو وآثرتون كانا مجرد خادمين وضيعين يركضان فى ركاب كيسنجر أو يقول إن دعيت للعشاء فى بيت سيسكو فأحضر معك من يذوق لك الطعام.. فى حين يقول مستعرب ثالث: إن سيسكو لم يكن سوى شخص خسيس، لئيم.. خبيث.. وكذوب..

لكن كان لجوزيف سيسكو معجبوه ايضا ولو على استحياء..

يقول احد مؤرخى الشرق الاوسط: صحيح ان سيسكو لم يكن عارفا بالقضايا على نحو متخصص لكنه كان قادرا على تصريف الامور، ويقول هيوم هوران وكان سفيرا فى السودان ثم السعودية فى الثمانينات. كان مشاكسا له صوت جهورى والاهم من ذلك كان قادرا على ان يتذكر لفوره ما شاء من مستندات واحداث ، اما ايلتس فيتكلم وهو ينفض غليونه رافعا حاجبيه وكأنما بانتظار ان تسعفه العبارة المناسبة ويقول: سيسكو كان بمثابة مدير التشغيل البيروقراطى ، كان مدير الادارة الوحيد بالخارجية الذى استطاع ان يبعد المكتب عن كيسنجر ورجاله فى

مجلس الامن القومي.. ولهذا حاز احترام كيسنجر. وغنى عن البال أن سيسكو كان بحق مديرا للتشغيل من الطراز الجهم.. بصوته الحافل بالرنين وسلوكه غير الحافل بالآخرين ممن ارتقوا الى قمة مواقع السلك الدبلوماسى دون ان يخدم هو شخصيا فى الخارجية مرة واحدة ، ربما لم يكن يعرف الكثير عن العرب أو اليهود قدر معرفة زملائه الذين عاشوا بالشرق الاوسط وتكلموا لغاته لكن هذا لم يحل بين سيسكو وبين ان يكون فى جعبته كل الاجابات عن الاسئلة او ان يتظاهر بذلك، كان استاذا فى فن العضة السليمة حتى قبل ان يخترعوا هذا التعبير، بمعنى انه كان داهية سياسة يجيد فن الصفقات السياسية اكثر من كونه من شاكلة الدبلوماسيين، بل كان يستعد لخوض انتخابات للفوز بمنصب مقاطعة مونتجمرى من اعمال واشنطن حين اختاره روجرز مساعدا لوزير الخارجية، لم يكن ينهج انصاف الحلول بل كانت أراؤه وافكاره جد واضحة لا لبس فيها.. وما كان يفتقر اليه من حيث الفكر عمد الى تعويضه من خلال النشاط الوافر، يتذكر اثرتون قائلا: كان بوسع «جو» أن ينجز ورقة سياسات ويضعها بيد الوزير قبل ان يفرغ الآخرون بالمكتب من مجرد تدارس المسألة كان من الطراز المكتبى الحاد والفعال والمسئول ، وكان نيكسون

ومستشاروه يعرفون ذلك ولهذا السبب اختاروه إذ كانوا يريدون شخصا يحدث هزة في قوائم إدارة الشرق الادنى.. نيكسون كان يكن احتراما هائلا لسيسكو وكثيرا ما كان يقول له على الهاتف: إن هنرى كيسنجر أوغل فى التصرفات حتى انخلع انفه ولقد عرض نيكسون مرتين على سيسكو منصب السفير لدى الاتحاد السوفييتي ورفض صاحبنا العرض فلم يكن يريد ان ينغرس فى موسكو بينما تعكف أنت (نيكسون) وهنرى على عقد الصفقات السياسية من خلف ظهرى.

ولد جوزيف سيسكو عام ١٩١٩ فى شيكاغو وهو الجيل الاول لمهاجرين من ايطاليا إلى أمريكا فى فترة الكساد الاقتصادى الكبير لعائلة قوامها خمسة أبناء كان ابوهم يتقاضى سبعة دولارات اسبوعيا فى متجر للملابس، وفى الحرب العالمية الثانية عمل ملازما للمدفعية في غينيا الجديدة حيث اصيب بحالة من مرض الملاريا كانت قاسية الوطأة بل كانت تعاوده طيلة العمر، وأدى ذلك الى ان ظل يعانى من إعاقة جزئية سنوات قليلة، ويقول انا رجل لم احصل على اول عمل لى إلا بعد ان بلغت الثلاثين، ولم اكن من الميسورين ذوى السراويل الامريكية المخططة مثل المستعربين بل ذهبت الى المدارس الغلط وجئت من الجانب الغلط

فى طريق الحياة، مع ذلك فلم أبال وانغمست فى شغل من نار وهذا كل ما فى الامر.



تخرج سيسكو من كلية نوكس فى ولاية الينوى وحصل على الماجستير والدكتوراه فى العلاقات السوفييتية من جامعة شيكاغو ثم التحق بالسلك الخارجي فى الخمسينات واعجب به رؤساؤه لدرجة انه كلما اوشك على الابتعاث إلى الخارج - إلى بلجراد - فى أواخر الخمسينات ثم - فيتنام - فى أوائل الستينات كان الانتداب يلغى للإبقاء عليه عنصرا يحفز البيروقراطية على الحركة والنشاط وخاصة فى الامم المتحدة، ولم يمض عليه بعد دخول الخدمة الخارجية عشر سنوات إلا وقام وزير الخارجية «دين راسك» بترفيعه الى رتبة وزير مفوض.

لكن كان هناك ما يتجاوز ذلك - يقول هيوم هوران: «مع وجود سيسكو انصهرت السياسة الخارجية مع السياسات الداخلية فى الشرق الاوسط». ويضيف اثرتون على ذلك قوله: كان يتمتع بحنكة على المسرح السياسى الداخلى بأمريكا بشكل لا يبارى فى تاريخ وزارة الخارجية ولقد تعلمت من «جو» أن ليس بوسعك أن تضع السياسة بالنسبة للشرق الاوسط فى معزل بالتعقيم عن السياسات والحقائق الداخلية.

معنى هذا دون لف أو دوران ان العلاقة بين الرئيس الامريكى وبين الجالية اليهودية الامريكية باتت - مع سيسكو - أوسع وأعمق بأكثر مما عليه العلاقة بين المستعربين وبين الصلات التى أنشئوها من منطقة المشرق العربى.

فى ٧ نوفمبر ١٩٧١ كتب جوزيف كرافت مقالا فى مجلة نيويورك تايمز الاسبوعية عن المستعربين قال فيه ما أن تولى جوزيف سيسكو مقاليد وظيفته حتى انطلق فى تحطيم تركز المستعربين فى إدارة الشرق الادنى - المعنية بالشئون العربية اساسا - خذ روجر ديفيز مثلا وكان كما يصفه زميل له حكيم المستعربين فى ذلك الوقت.

لقد تلقى روجر ديفيز ركلة من سيسكو الى أعلى حيث خلع عليه رتبة فخيمة دون مسئوليات اللهم إلا عن اليونان وتركيا وقبرص، وفى مكان ديفيز - يضيف الصحفى كرافت - أتى سيسكو بالفريد اثرتون نائبا لمساعد الوزير، ذلك لان اثرتون مع إلمامه الواسع بشئون المنطقة فإنه لا يعرف اللغة العربية.

على أن السفير «لوشيوس باتل» ينعى على سيسكو مافعله مع روجر ديفيز ويصفه بأنه كان امرا سيئا وذلك «لان ديفز كان يعرف عن امور الشرق الاوسط بما يفوق معرفة سيسكو

ومعرفتى انا مجتمعين» ، حتى اثرتون نفسه وقد حل محل ديفيز يتذكر ان ديفيز كان من اصفى وألمع العقليات التى عرفتها وكان كبير نواب السفير باركر هارتِ ، وعندما تقرر احلال سيسكو محل باركر عمد ديفيز الى التماس النقل بغير ضجة موعزا الى موظفيه ان يظلوا على ولاء لجوزيف سيسكو، مع ذلك فما ان وصل سيسكو الى إدارة الشرق الادنى حتى قلب ظهر المجن للسفير ديفيز وكان دافعه الذى ساقه لهذا التصرف ما قاله من أنه كان بحاجة الى من يكتب بسرعة المذكرات السياسية.. فى غضون ساعات لا تزيد ولم يكن ذلك باستطاعة ديفيز لكنه كان باستطاعة روى أثرتون.



أدى قيام جوزيف سيسكو بنقل ديفيز إلى الشئون اليونانية التركية الى ترشيح ديفيز سفيرا لدى قبرص حيث اغتيل فى صيف ١٩٧٤ خلال احداث العنف التى صاحبت الاطاحة بحكومة الاسقف مكاريوس وما تلا ذلك من قيام تركيا بغزو الجزيرة.. ولقد كان روجر ديفيز موضع محبة زملائه المستعربين وكان جديرا بأن يظل حيا يرزق حتى الآن لو لم يعمد سيسكو الى إزاحته من الشئون العربية وربما تفسر هذه الحقيقة جانبا من العداوة التى يضمرها المستعربون تجاه جوزيف سيسكو.

على أن ديفيز لم يكن المستعرب الوحيد الذى أزاحه سيسكو لقد كتب كرافت فى مقالة التايمز السابقة الذكر يقول: إن أشد المستعربين انحيازا للعرب وهو السفير «ريتشارد باركر» نقلوه من مكتب الشئون المصرية إلى مكتب المغرب، والمستعرب الامريكى الذى اشتهر انه الأشد عداوة لاسرائيل وهو السفير « روبرت مون» نقلوه من مكتب اسرائيل الى مكتب تركيا ، اما مناصب السفارة التى اصبحت مفتوحة فى ليبيا والكويت وفى لبنان والاردن فقد عهدوا بها الى عناصر من غير المستعربين.

لكن الامر لم يكن تماما بهذه البساطة وهذا يفسر السبب في ان بعض المستعربين لايزالون بعد عشرين سنة من تلك الوقائع يتميزون غيظا عندما يرد ذكر مقالة كرافت: السفير ريتشارد «ديك» باركر مثلا كان قد خاض معركة الرجل الوحيد فى واشنطن لحمل أولى الامر هناك على ان يعاملوا مصر بصورة جادة برغم هزيمتها فى حرب ١٩٦٧، وأدى هذا إلى أن باركر قد وضع أصابعه العشرة فى الشق حين جاء سيسكو إلى إدارة الشرق - العربى - الادنى فى عام ١٩٦٩، ولم تكن المياه جارية بين سيسكو وباركر حيث يدعى الاخير ان ثمة كراهية بين الطرفين لا تتصل بالاختلافات السياسية، ولا أدى النقل الى مكتب

شئون المغرب إلى الاضرار بالتدرج الوظيفى لباركر الذى رشح في سنوات قلائل سفيرا بالجزائر وسفيرا فى لبنان وهو بلد له أهميته في اطار المشكلة العربية ـ الاسرائيلية ثم سفيرا لدى المغرب، مع ذلك فلا ريب ان وصول سيسكو جاء علامة عل تغيير الحرس العامل داخل إدارة الشرق الادنى بالخارجية الامريكية.. ويعترف السفير باتل فى هذا السياق قائلا: بالقطع حصل تنزيل درامى فى رتبة دبلوماسيين وخبراء وهذا التنزيل ساعد فى تحويل جيل مستعربى مابعد الحرب العالمية الثانية إلى ما أصبح يوصف بأنه خبراء المنطقة المهيضة رجال اضيروا باستمرار بسبب ولائهم للعلاقات العربية ـ الامريكية وذلك من اجل تلبية احتياجات تولدت جزئيا عن مقتضيات السياسة الداخلية الامريكية بكفالة الامان والضمان لاسرائيل.

★★★

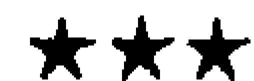
ومن المؤكد إن لم يكن ثمة مستعرب غص بالمرارة من التغييرات الوظيفية التى اجراها جوزيف سيسكو بأكثر من الدبلوماسى «أندرو كيلجور» ولد أندى كيلجور فى عام ١٩١٩ نفس سنة مولد سيسكو.. طويل القامة لطيف المعشر من اهالى جنوب الولايات المتحدة، وكان مولده فى بلدة صغيرة فى غرب

ولاية آلاباما حيث شب عن الطوق فى مزرعة يصغى إلى حكايات الرجال المسنين عن «شيلوه» و «شيكا موجا» وسائر معارك الحرب الاهلية الامريكية التى سبق وخاضوها . جاء كيلجور، كما جاء سيسكو، من اصول متواضعة وقد اشاروا إلى اصوله فى مقابلة ضمن برنامج التاريخ الدبلوماسى الشفوى بأنه من ارياف البروتستانت. ذهب للتحصيل فى دار صغيرة للمعلمين لا فى واحدة من كليات القمة وحارب معارك الباسفيكى فى الحرب الثانية. ومثل سائر المستعربين بدأ كيلجور أولى درجات السلم الدبلوماسى بالعمل مع اللاجئين فى ألمانيا بعد الحرب وتحت إدارة جون ماكلوى المفوض الامريكى السامى فى ذلك الوقت، ومثل ماكلوى وسيسكو كان لدى كيلجور إحساس حاد بأنه إنما جاء من الجانب الغلط من الطريق ، وفى هذا السياق يلاحظ كيلجور ان الذين يأتون للسلك الدبلوماسى من الخارج، بمعنى خارج عائلات مؤسسة الحكم والنفوذ ينعقد طموحهم فى ان يلتحقوا بصفوف تلك المؤسسة.

★★★

ومثل سيسكو ايضا جاء دخول كيلجور السلك الدبلوماسى فى عقد الخمسينات ضمن برنامج مبكر للاصلاح سعى الى ان يأتى

بعناصر من خلفيات اجتماعية متباينة الى صفوف السلك الدبلوماسى، وفى عام ١٩٥٥ تطوع كليجور ليتعلم اللغة العربية وظل طيلة ربع القرن الذى تلا ذلك وحتى اعتزاله الخدمة يخدم فى اقطار عربية وفى مواقع الشئون العربية داخل الخارجية الامريكية يقول: «كان معظمنا ـ معشر المستعربين – يشعر اننا من فصيلة شديدة الخصوصية، كنا فى الغالب الاعم من قدامى محاربى الحرب الثانية وكان فى هذا إحساس بيننا برفقة السلاح، أما تعلم العربية فأمره صعب وعليك أن تعمل ليلا ونهارا لاتقانها، وكذا نجمع بين المتعة وبين إحساس يكاد يكون مقلقا إزاء مصطلح مستعرب الذى يستخدمه الصهاينة فى واقع الامر كناية عن قولهم «احذر.. هذا الرجل» ثم أن السفير كيلجور يرى ان من الاهانة بمكان ان تصف موظفا لامعا فى السلك الدبلوماسى يتصف بجوانب متعددة ومتشابكة ربما من طرازه هو بأنه مع هذا البلد الاجنبى أو ضد ذاك البلد الاجنبى



مع أواخر الخمسينات وأوائل الستينات كان كيلجور قد سافر الى كل درب من دروب الضفة الغربية وكانت وقتها فى يد الاردن «ولا تكاد توجد قرية إلا وزرتها حيث وجدت الفلسطينيين قوما

فى غاية الجاذبية وهم أقرب نوعا ما إلى أهل الجنوب فى امريكا بمعنى التصاقهم الشديد بالعائلة، مجبولون على الكرم، فيهم كل ما تعلمته صبيا بالمزرعة فى آلاباما شدونى اليهم الى حد بعيد.. ثم ما هذا الاهتمام الهائل بالمأكل والطعام.. يا الله! أتظن اننا نأكل حقا فى بلدنا؟ ألا فاذهب الى هناك».

فى عام ١٩٦١، وبعد سنوات اربع بالاردن نقل كليجور الى مكتب شئون العراق بالخارجية ثم اوفد فى عام ١٩٦٥ الى سفارة امريكا فى بغداد.. إلا ان فوز اسرائيل فى حرب ١٩٦٧ جاء كارثة عليه شخصيا فقد أغلقت سفارات امريكية كثيرة فى العالم العربى ومن ثم نقلوا كيلجور الى دكا عاصمة بنجلاديش النائية حيث امضى ثلاث سنوات قبل ان يعود الى الوزارة ليعمل تحت رئاسة تالكوت سيل فى شعبة شمال الجزيرة العربية بإدارة الشرق الادنى، إن السفير «كيلجور» لا يزال يوجه اللوم حتى يومنا هذا الى وزير الخارجية الامريكية دين راسك الى اللوبى الاسرائيلى على اعداد العدة لشن حرب ١٩٦٧ فى مرحلة مبكرة ترجع الى عام ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤.

وبعد أن جاء سيسكو الى إدارة الشرق الادنى ارسلوا كيلجور فى عام ١٩٧٢ مستشارا سياسيا فى إيران.. وفى عام

١٩٧٤ تصور كيلجور أنه سوف يرشح سفيرا لدى البحرين عندما وجد نفسه بغتة وقد نقل نائبا للسفير فى نيوزيلندا، «وكان ذلك هو المنفى بكل المعانى وتصورت انه مادام بقى سيسكو هناك فلن أحصل يوما على منصب مرموق - فى العالم العربى - إذ كان يتربص بى الصهاينة فى ذلك الحين». إن السفير كيلجور يعتبر جوزيف سيسكو متعاطفا مع الصهاينة ويوجه اتهامه بأن سيسكو كان مندمجا فى اللعب مع السفارة الاسرائيلية.. سيسكو من جانبه حيرته هذه التهم ويقول: ماذا فى جعبته ضدى؟ لم أكد أتعاطى مع اى من شئون «أندى» كيلجور، بل أن تلك القرارات كانت تتخذها لجان شئون الموظفين.

عن كيسنجر يقول كيلجور: هنرى بالطبع لم يكن سوى طابور خامس فيما يتعلق بى. كان يعمل من اجل الاسرائيليين: كان الهدف الحقيقى الذى يقصده هنرى هو أن يبعد من الشرق الاوسط عناصر المستعربين الذين ليسوا على هوى الاسرائيليين ولم يكن هنرى ممعنا فى التستر بالسرية بل كان صهيونيا بغير مداراة.

ولم يكن سيسكو هو الوحيد الذى كانت تراوده شكوك فى مدى وجاهة ترقية كيلجور ، يقول مساعد آخر للوزير لشئون

الشـرق الادنى «إن ـ اندى ـ كـيلجـور يصـل الى حـد الخلط بين مواقفه المعادية لاسرائيل وبين معاداة السامية».. ويقول مساعد ثالث للوزير: «وصل كيلجور الى حد ان اصبح لديه نقاط معتمة فى الرؤية تجاه اسرائيل».

كيلجور استدعوه فى عام ١٩٧٧ من نيوزيلندا ليرشحوه سفيرا لدى قطر ويقول هيرمان إيلتس وهو يهز رأسه: «قطر كانت الموقع المثالى له فلم يكن مطلوبا كتابة تقارير ذات أهمية محورية ولا كان كيلجور من اصحاب الفكر أو التنظير».

بعد أسابيع من اعتزاله الخدمة الدبلوماسية فى عام ١٩٨٠ اصبح السفير كيلجور من عناصر اللوبى المؤيد للعرب متحدثا باسم القضايا العربية، وقد شهد اجتماعا فى عام ١٩٨٢ فى واشنطن عقدته لجنة الارض المقدسة وهى جماعة متحالفة مع لوبى ليبرتى المتطرف وقد نذرت نفسها لقضية تحرير الولايات المتحدة من سيطرة الصهيونية، ويومها قال كيلجور: ثمة شىء واحد أمارسه شخصيا وهو ألا ادع بيانا صهيونيا يصدر بغير دحض أو تفنيد، ثم فى اجتماع عقدته نفس الجماعة بعد عام كامل ذكر هذا السفير الامريكى السابق ان «مركزى كمسيحى وامريكى مهدد بفعل التصرفات الاسرائيلية».

وللسفير كيلجور تعليقات أخرى منقولة عن تقرير واشنطن عن شئون الشرق الاوسط يوليه ١٩٨٧ وفبراير ١٩٨٧ ومنها مايلى:

من الخطأ والانحراف ان تعمد عناصر متعصبة ضمن الاثنين ونصف بالمائة من سكاننا ممن هم يهود، إلى ارتهان الكونجرس لمصالحهم. إن على امريكا أن تنظر الى انتقال اسرائيل من مرحلة التسلل الى مرحلة توجيه السياسة الخارجية الامريكية بوصفه عملا اقترفته عقلية اجرامية كبرى.

على أن افضل مايعرف به كيلجور فى الثمانينات والتسعينات فى واشنطن انه رئيس تحرير «تقرير واشنطن عن شئون الشرق الاوسط» وهى مجلة شهرية تنشر مادة هى بكل مقياس من أشدها تأييدا للعرب ومناهضة لاسرائيل ، وفي عدد ابريل - مايو ١٩٩٢ اشارت مطبوعة كيلجور إلى ان الموساد - المخابرات الاسرائيلية - ربما تكون هى التى اطلقت النار على الرئيس جون كيندى:

«من اللافت للنظر أن نرى كيف يسارع الامريكيون الى اتهام المخابرات المركزية سى. آى. إيه. لكنهم قلما يشيرون الى امكانية تورط الموساد.. لكن النتيجة تمثلت فى وفاة رئيس كانت الحكومة الاسرائيلية تشعر نحوه بقلق عميق ومن ثم حل محله اشد الرؤساء تأييدا لاسرائيل على مر التاريخ».

فى نفس العدد يكتب كيلجور: أنه لو لم ينزح اليهود الى فلسطين لما تعيين على هتلر ان يقتلهم فبغير وعد بلفور عام ١٩١٧ هل كانت ألمانيا المهزومة سوف تتحول كى تنتقم من يهود أوروبا عام ١٩٣٣؟ إن مؤسسى اسرائيل استغلوا اسطورة نفوذ اليهود أو قوتهم لكى يستولدوا وعد بلفور وها هى اسرائيل الآن بعد خمسة وسبعين عاما من ذلك التاريخ تعيش على ميراث تلك الاسطورة بدعوى محرقة الاضطهاد فى أوروبا.

لم يكن كل المستعربين - فى الخارجية الامريكية - ساخطين على النظام الجديد الذى استحدثه جوزيف سيسكو على نحو ما كان السفير كيلجور ساخطا. رغم كل شىء فقد أضفى سيسكو قسمات جديدة على إدارة شئون الشرق الادنى فأصبحت بفضله تتمتع بالاهمية والبروز الاعلامى على نحو لم يسبق لها ان نعمت به من قبل. التقى سيسكو مع الرئيس نيكسون على فترات بأكثر مما كان متاحا فى السابق لسلفه في الادارة لوشيوس باتل أو باركر هارت بالنسبة للرئيس الاسبق جونسون.

وفى مؤلفه «عقد من القرارات السياسية الامريكية تجاه النزاع العربى - الاسرائيلى ١٩٦٧ - ١٩٧٦» يقول ويليام كوانت: «إن سيسكو كان داهية فى أمور السياسة البيروقراطية يعرف دخائل

الامور ودقائقها فى وزارة الخارجية، كان رجلا شديد الحمية متحدثا لبقا وأستاذا بارعا فى فن التكتيك فى حين كان ألفرد آثرتون، وقد عمل معه كمدير لمكتب شئون اسرائيل والدول العربية، ثم كنائب لمساعد الوزير، كان يكفل بوجوده الاستمرارية والخبرة والدراية المهنية، اثرتون كان يواريه سخونة سيسكو وقد شكل الرجلان ثنائيا شديد التكامل فى دوائر صنع السياسة للشرق الاوسط».

عمد سيسكو واثرتون إلى تقسيم الاخصائيين بالشئون العربية الى مجموعتين : من يمكن استغلال مهاراتهم فى إطار النظام الجديد بالوزارة ومن يمكن ان يثيروا المتاعب أو لا يستحقون عناء الابقاء عليهم فى الأساس، ولقد كانت مكانة روجر ديفيز العالية بين زملائه المستعربين تشكل تهديدا بما قد يجعله خصما صعب المراس في أمور السياسات ولذلك كان يتعين التخلص منه، ثم هناك رجال من طراز تالكوت سيل وبيل ستولفوز ومايكل ستيرنر وجيمس اكنز وديك باركر - كانوا فى عداد الكفاءات الواجب الابقاء عليها، فى حين ان اندى كليلجور لم يكن كذلك. سيل مثلا كان فى أيام سيسكو الاولى مديرا لمكتب شئون الاردن ولبنان وسوريا والعراق وهو موقع لا يستهان به بحال من

الاحوال، وفى عام ١٩٧٢ رقى إلى رتبة سفير واوفد إلى تونس أربع مرات وبعد اتمامه مأموريته هذه رشح سفيرا فى سوريا التى يقال إنها البلد العربى المحورى فى سياسات الشرق الاوسط. ويجدر القول بأن سيل لايزال يحتفظ بذكريات طيبة من أيام العمل مع سيسكو ومن بعده كيسنجر بعد أن أصبح الاخير وزيرا للخارجية فى عام ١٩٧٣.

مع هذا كله - وكما يعترف روى أثرتون - أنه فيما اصبح جميع هؤلاء الرجال سفراء فلم يرتق منهم احد ليصبح لا مساعدا للوزير لشئون الشرق الادنى - ولا حتى نائبا لمساعد الوزير بل ولم يتح لأى منهم أى اطلاع حقيقى على الشئون العربية - الاسرائيلية. يقول نيكولاس فيلوتس المساعد السابق لوزير الخارجية للشرق الأدنى وكان سفيرا لدى كل من الأردن ومصر : عمد سيسكو وأثرتون إلى إبقاء هؤلاء الرجال بعيدا عن السلطة والنفوذ طيلة وجودهما فى الإدارة ولمدة عشر سنوات أخرى . وإلا .. فمن الذى يشك مثلا فى كفاءة رجل من طراز تالكوت سيل الذى أنجز عملية كبرى تمثلت فى إجلاء الرعايا الأمريكيين من لبنان عام ١٩٧٦ ولا فى إحاطته بتخصصه المهنى خارج الحدود؟

لكن من يتصور أيضا أن مثل هذه النوعية من الرجال «سيل» مساعدا للوزير ومترددا على مقر الحكم فى «كابيتول هول» حيث يتعامل مع النواب وممثلى هذا اللوبى أو ذاك . ألم يكن معنى هذا استخداما مؤسفا لقدراته الواسعة ؟ ولقد كان سيسكو يعرف ذلك ولم يكن كيسنجر من ناحيته ليشك فى كفاءة سيل الميدانية وهو الذى انتقاه للمهمة الحساسة التى تعاون فيها سيل مع منظمة التحرير الفلسطينية وأمكنه إتمام الإجلاء الحثيث بغير ضجة للدبلوماسيين الأمريكيين وعائلاتهم من بيروت على مرحلتين بالبحر فى يونيو ويوليو من عام ١٩٧٦ .

★★★

يواصل السفير فليوتس مداخلته يقول : انت فى الخارج تتعامل مع أجانب ، ومنهم العرب لكنك . فى واشنطن عليك أن تتعامل من موقع مساعد وزير الخارجية مع أمريكيين آخرين . كذلك فالخارجية الأمريكية ليست بالخارجية البريطانية فهى تؤدى عملها فى إطار حقائق الديمقراطية الأمريكية حيث تجمعات اللوبى لا تشكل طفيليات على هامش السياسة بل هى من الأطراف المشروعة اللاعبة على مسرحها ، ومع الانفتاح الذى اتسم به مجتمعنا – الأمريكى – فى السبعينات زاد عدد

هؤلاء اللاعبين على الساحة وسط هذا المناخ يمكن أن تلقى على طاولة اللعب سنوات خدمتك الاثنتي عشرة مثلا التى امضيتها فى موريتانيا أو فى الكويت أو سوريا مع ذلك فقد لا تفوز بشىء ذى بال فأنت هنا فى واشنطن بإزاء قواعد جديدة تتطلب مهارات جديدة .

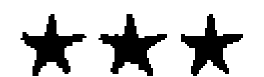
جوزيف سيسكو يعبر عن ذلك على نحو أكثر صراحة يقول : لم يكن لا باركر ولا سيل ولا ديفيز ناهيك بالتأكيد عن كيلجور ، يتمتع بقدرات الصياغة والتحرير ولا بحس تحليلى مرهف ولا إحاطة بالأمور بما يؤهله للتواصل مع الكونجرس . إنهم أفضل إذ يكونون سفراء خارج الحدود .

ليس معنى هذا أن سيسكو لم يكن ليحترم القنوات الدبلوماسية التى ورثها «لقد أمضيت خمس سنوات فى موقعى تلقيت فيها من المستعربين مشورات صريحة وبناءة ولم يعملوا يوما على أن يجعلونى أسيرا لأرائهم بل كانوا يطرحون الأمور بموضوعية ، ولست أتذكر حالة تعيين واحدة فى إدارة الشرق الأوسط الأدنى تمت على أساس سياسى غير مهنى بل اقتصر الأمر على الموظفين المحترفين ، ولكن لأن الإدارة كانت تستلم

دوما زمام المبادرات فلم يكن من محيص أن تصبح عرضة لسهام النقد المرير ولأن الجماعات الموالية لاسرائيل لا يمكنهم «شخصنة» خلافاتهم لا مع الرئيس ولا مع وزير الخارجية فكثيرا ماكانوا يجدون أن الأجدى لهم مهاجمة الدبلوماسيين المستعربين .

على أن سيسكو لا يلبث ان يقول : إن صفوف المستعربين كانت تسودها ولاءات مشدودة إلى أبعاد الواقع المحلى فى العالم العربى بأكثر مما كان سائدا بين ظهرانى غيرهم من الاختصاصيين . كانوا عازفين عن اتباع الأسلوب المباشر مع العرب يواجهونهم بحقائق الأمور بل كانوا يشعرون أن العنصر الثقافى السياسى الاقتصادى العربى لا ينال ما يستحقه من اهتمام ومكانة فى سياسة أمريكا .. ثم كان هناك على الخصوص مجموعة الخمسينات من الرجال الذين كانوا يتناوبون على المناصب الدبلوماسية فى كل قطر عربى دون أن يخدموا قط فى اسرائيل . لكن لم أكن أطلب منهم تفكيرا استراتيجيا فلم يكن ذلك عملهم فى أى حال .

وكان سيسكو يعنى بذلك أن مجرد معرفتهم بالعالم العربى بحكم اتساعها وعمقها ولحمتها وسداها فعلت فعلها فى تجميد قدرتهم على الفكر التحليلى بالنسبة لها .



بيد أن سيسكو نفسه كان يفتقر إلى تلك المعرفة العميقة وهكذا كان أثرتون ولو بدرجة أقل ، ويقول سيسكو إنهما بدلا من الالتصاق بالمنطقة بأى معنى حضارى أو حتى سياسى عام فقد انصب التصاقهما نحو تركيزهما على المشكلة : «عندما كلفت بالتعامل مع منطقة الشرق الأدنى أصبت بهذا المرض الذى لا شفاء منه : إن هذا الأمرلا بد من إيجاد حل له . هكذا أصبح النزاع العربى الاسرائيلى بالنسبة لهما بمثابة لعبة الشطرنج .. أو رقعة من الكلمات المقاطعة أو حتى مسألة فى الفيزياء لايستطيعان الفكاك منها إلا بعد أن يتوصلا إلى تصور المعادلة المكتملة التى تفضى لترتيب أجزاء اللغز فى وضعها السليم ، وفيما كان زملاؤهما المستعربون ينعمون بالسجاجيد الشرقية ويقتنون كتب الرحالة البريطانيين القدامى ، وقع سيسكو وأثرتون فى غرام الوثائق والمذكرات ، بل إنهما ومعهما هارولد سوندرز عضو مجلس الأمن القومى الأمريكى اصطنعوا تصنيفا جديدا لمعنى المستعرب : أن لا يكونوا مغرقين فى الأمر بوصفهم مستعربين قدر اغراقهم فى كونهم قائمين على تجهيز عملية السلام. وكانوا بذلك ارهاصا للمنعطفات الحادة التى سلكتها

سياسة واشنطن فى الثمانينات والتسعينات، وكان هارولد سوندر أول من استخدم مصطلح «عملية السلام» فيما كان جوزيف سيسكو هو أول من استخدم تعبير «دبلوماسية المكوك» .

★★★

يقول كوانت فى كتابه «عقد من القرارات» : إن أثرتون كان النظير المثالى لجوزيف سيسكو الشديد التقلب . وكما يتذكر زميل لهما كان روى لطيف المعشر لين الجانب لا يتسم بعقلية استراتيجية وإن كان يتمتع بقدر كبير من حسن التقدير الكامن وراء دماثته . على أن روى كان على نحو ما موظفا بيروقراطيا بغير ملامح دقيقا وهيابا فى بعض الأحيان ، ومن عجب أنه شارك بعمق فى جميع المفاوضات المشهورة فى السبعينات دون ان يترك أى بصمة خاصة على مجريات السياسة .. ان روى أثرتون لم يكن رجل فكر وإنما كانت مقدرته تكمن فى توخى الحذر فى اسداء المشورة وقد ساهم فى العملية من خلال دأبه على أن يحول أن يشوبها ما يعكر الصفو من توافه الأمور .

إلى جانب الثنائى سيسكو - أثرتون نجمت علاقة محورية أخرى فى تلك الفترة التى نشأت أواصرها بين أثرتون وهارولد - هال - سوندرز الذى مافتىء يرتفع صوته بين حين وحين

فى السنوات الأخيرة مساندا الفلسطينيين فى معاناتهم إلا أنه كان فى تلك الفترة أقرب مايكون إلى أثرتون يلتزم كثيرا البعد عن الضوء ويسهل على كل من يعرفه التعامل معه ، ويقول أحد المصادر . إن السبب الرئيسى فى قلة الاحتكاك وقتها بين البيت الأبيض ووزارة الخارجية فيما يتصل بالشرق الأوسط إنما يرجع الفضل فيه إلى كل من أثرتون فى الخارجية وسوندرز فى مجلس الأمن القومى بالبيت الأبيض : لقد حرصا على تبادل الاطلاع على مجريات الأمور ومن ثم أدى إلى توطيد العلاقة بين فرعى الحكم هنا وهناك ..

★★★

فى ١٩٦٦ وبدعم من وزير الخارجية ويليام روجرز بذل جوزيف سيسكو جهودا جبارة لبدء محادثات سلام بين مصر واسرائيل .. وبينما يعد سيسكو ينظر كيلجور وأمثاله من المستعربين مؤيدا لإسرائيل فحقيقة الأمر أن سيسكو فى معظم سنوات ولايته فى إدارة الشرق الأدنى ظل يضغط لاتباع استراتيجيات للسلم كانت موضع خشية عميقة من جانب الاسرائيليين. يقول سيسكو : مع ذلك فقد أحبنى الاسرائيليون من البداية حتى وأنا احثهم على إعادة الأراضى . أتدرى لماذا ؟ ؟ لأنهم كانوا يعرفون أننى لست من المستعربين بل كنت مثلهم

سواء بسواء بمعنى فرد ينتمى إلى عنصر ماجاء من المنعطف الغلط من الطريق .

أولى محاولات سيسكو سعيا نحو اقرار السلام توجت بمبادرة روجرز★ التى لم تستجب لها مصر والتى رفضتها جولدا مائير شكلا وموضوعا وكان مشروع روجرز يطلب إلى اسرائيل الانسحاب من جميع الأراضى التى كانت قد استولت عليها منذ سنتين مقابل اعتراف غامض بسيادتها من جانب كل من مصر والأردن . على أن العيب القاتل فى ذلك المشروع أن الاسرائيليين نظروا إليه بوصفه أحد مشاريع وزارة الخارجية وأنه لا الرئيس نيكسون ولا مستشاره كيسنجر استثمر فيه ثقله ومكانته وجاء عام ١٩٧٠ ليشهد نقطة تحول فى الشرق الاوسط وليكون عاما وقعت فيه أحداث أشعلت غضب المستعربين تجاه جوزيف سيسكو .

فبرغم فشل مشروع روجرز ، جهد سيسكو فى اصطناع وقف لإطلاق النار بين مصر واسرائيل بعد جولة قتال متقطع بين

★ بعد استعادت مصر لامكانات الدفاع فى العمق - اسبوع تساقط الفانتوم الاسرائيلية - الامريكية فى يوليه ١٩٧٠ ، أعلن الرئيس عبد الناصر قبول مبادرة روجز . «المترجم» .

الطرفين فيما عرف بحرب الاستنزاف التى دامت عامين بعد ١٩٦٧ لكن بعد أن أكدت المخابرات الأمريكية أن مصر خرقت وقف إطلاق النار قرر نيكسون بعد اجتماعه إلى روجرز وكيسنجر وسيسكو فى فاتح سبتمبر ١٩٧٠ أن يبيع اسرائيل ١٨ من نفاثات الفانتوم ف - ٤.

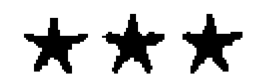
من جهتها كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تخشى من احتمال سلام منفصل بين مصر - عبد الناصر وبين اسرائيل مع استمرار تزويد اسرائيل بالسلاح فقامت الجبهة باختطاف ثلاث طائرات وأمرتها بالتوجه إلى الأردن ، وساعد هذا الاختطاف على إشعال حرب أهلية فى الأردن سعت فيها عناصر المقاومة الفلسطينية بدعم من وحدات مغيرة من الدبابات السورية إلى الاطاحة بالنظام الأردنى الموالى للغرب ، أما نيكسون وكيسنجر فقد أطلا على الأزمة من المنظور الكلاسيكى لعلاقات الشرق والغرب حيث راودهما الشك فى ان الايدى السوفييتية تلعب سواء فى حالات خرق مصر وقف إطلاق النارأو فى تحريك الدبابات السورية إلى الأردن .

وسواء أذنب السوفييت فى هذا أم لا ،فقد كانوا جديرين بأن يكسبوا من جراء الاطاحة بالنظام الاردنى . لكن عندما

طلب الملك حسين العون قال البنتاجون (وزارة الدفاع) فى أمريكا للرئيس نيكسون إن الجيش الأمريكى يفتقر إلى قدرات التدخل السريع على الأرض . هنالك واجه نيكسون وكيسنجر حقيقة بالغة السفور : ان اسرائيل وليس غيرها هى التى بمقدورها التدخل فى الانقاذ وحفظ توازن القوى فى المنطقة هكذا كان التهديد بالتدخل العسكرى الاسرائيلى هو السبب فى تراجع السوريين وفى اتاحة الفرصة لسحق المقاتلين الفلسطينيين فيما اصبح يعرف باسم معركة أيلول الأسود ..

★★★

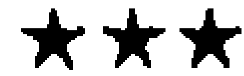
وسط رماد هذا التمرد الفاشل للفدائيين ولدت العلاقة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة وإسرائيل ، وفى السنوات الثلاث التى أفضت إلى أزمة الأردن عام ١٩٧٠ كان متوسط المعونات العسكرية الأمريكية إلى اسرائيل يقل عن ٤٧ مليون دولار سنويا لكن فى السنوات الثلاث التى أعقبت تلك الأزمة ارتفع هذا المتوسط ليزيد على ٣٨٤ مليون دولار . وفى هذا الإطار زادت قوة «الإيباك» - لجان العلاقات العامة بين أمريكا واسرائيل - وهى الذراع الطولى التى يملكها اللوبى الاسرائيلى فى أمريكا - فيما زاد اشتعال غضب المستعربين الذين وجدوا فى شخص جوزيف سيسكو كبش الفداء .



ومع انحسار أزمة الأردن توفى جمال عبد الناصر وخلفه أنور السادات الذى كان يبدو شخصا لايكاد يعتد به أيام كان نائبا للرئيس .. واذ شعر نيكسون وكيسنجر بالثقة بدأ نجاحهما فى كبت العناصر الموالية للسوفييت فى الأردن وكان افتراضهما أنه قد أصبح من المأمول تجاهل الشرق الأوسط والتماس أمجاد جديدة فى مجال السياسة الخارجية فى الصين ، بيد أن سيسكو الذى لم يهمد له نشاط ما لبث أن بذل بدعم من روجرز محاولة جديدة تجاه عملية السلام فى الشرق الأوسط . هذه المحاولة الثانية التى قد لايعرف عنها الكثيرون كانت نتائجها أكثر إثارة وتعمقت جذورها فى صميم التجربة الشخصية لمستعرب بعينه هو «مايكل ستيرنر» .

«مايك ستيرنر» كان من الدبلوماسيين المخضرمين بالخارجية الأمريكية واختتم حياته الدبلوماسية سفيرا فى دولة الإمارات العربية المتحدة ، ولد فى نيويورك عام ١٩٢٨ وتخرج فى مدرسة سان جورج الداخلية فى رود أيلاند ثم فى هارفارد - دفعة ١٩٥١ - درس الفرنسية والعربية وتأثر كثيرا بكتاب لورانس «أعمدة الحكم السبعة» ويقول : قرأت كذلك كثيرا عن كتابات المستعمرين الانجليز دوتى وجيرتورد بل وفيلى ثايجر . كان

البريطانيون مؤلفين مقتدرين .. وأنا أتذكر - يقظة العرب - لأنطونيوس ذلك السفر السياسى القيم الذى يجرى من الإنسان مجرى الدم ، ثم حدث أن استطاع صديق للعائلة تدبير وظيفة لـ «مايك ستيرتر» فى شركة أرامكو بالسعودية حيث استطاع ان يسافر منها إلى مصر وسوريا والعراق ولبنان ، وفى السعودية عقد صداقات مع كثير من الفلسطينيين وهو يعترف قائلا : إنه تولد بين جوانحه «قدر من التعاطف إزاء القضية الفلسطينية ونجم عن تجربتى فى السعودية أثر عاطفى هائل فيما يتعلق بالجوانب التى أتحيز لها . لم يكن هناك لا اسرائيليون ولايهود من حولى بل كان يرافقنى دوما عمال فلسطينيون وكنت أسمع عن الكيفية التى طردوا بها من هذه القرية أو تلك حيث كانوا قد نشأوا وترعرعوا».



بعد ذلك التحق ستيرنر بالسلك الدبلوماسى وعينوه فى اليمن بعد سنة أمضاها فى اتقان العربية فى بيروت . وبين عامى ١٩٦٠ ، ١٩٦٥ خدم فى مصر حيث انصب عمله فى السفارة الأمريكية بالقاهرة على كتابة التقارير عن السياسة الداخلية لمصر وبهذه الصفة أمضى ستيرنر وقتا طويلا يرصد أحوال

مجلس الأمة المصرى حيث كان رئيسه أنور السادات يدير الأمور بصورة هزلية على طريقة كبير العيلة مما جعل الأمر كله ملهاة ساخرة وإن كان مفيدا فى ممارسة اللغة العربية فضلا عن كونه فرصة لمعرفة السادات . وهنا يواصل ستيرنر الحديث : «لك أن تفهم إننى كنت الأمريكى الوحيد الذى يحضر جلسات مجلس الأمة ومن ثم كان السادات يحرص على دعوتى لتناول الشاى وتجاذب أطراف الحديث فى بيته بالجيزة وسط ديكور أقرب إلى طراز لويس الخامس عشر له أبعاد متسعة لكن بغير ذوق رفيع».

فى فبراير ١٩٦٦ ، وبعد عودته إلى واشنطن عمل ستيرنر ومعه لوشيوس باتل سفير أمريكا فى مصر وقتئذ على الترتيب لزيارة «نائب الرئيس» أنور السادات إلى الولايات المتحدة ★ ولأن جمال عبد الناصر لم يكن محبوبا بصورة خاصة فى أمريكا لاهو ولاسياساته الموالية للسوفييت فقد كان على السفير باتل ان يحرك جميع الخيوط كى يرتب لزيارة السادات : أكثر من يقول نعم لعبد الناصر على طول الخط فى مصر. ويتذكر باتل هذه الواقعة قائلا : حصلنا لأنور السادات على بدل سفر بمبلغ ١٢ دولارا فى اليوم وتذكرة سفر بالدرجة السياحية على طيران تى

★ السادات وقتها كان رئيسا لمجلس الأمة ، ولم يكن قد عين نائبا للرئيس «المترجم».

دبليو إيه - ومن ثم حملنا الشركة على ترفيعها إلى الدرجة الأولى أما السادات فكان أشبه برجل يتلمس الظلام بيديه سائلا : ترى هل ستعاملونني حسب الأصول ؟

وبعد وصول السادات إلى أمريكا رافقه ستيرنر إلى كل مكان وكانت تلك أول زيارة للسادات لأمريكا رغم أنه تردد كثيرا على موسكو في مهام كلفه بها عبد الناصر وأردنا ان نبهره ومن ثم فقد أرسلناه جوا إلى كاليفورنيا .

وفى «سكرامنتو» أمضى السادات طيلة اليوم في صحبة حاكمها «إدموندبات براون» . ذهبا أولا إلى جلسة لمجلس الولاية حيث كان النواب يسلقون حاكمها بألسنة النقد حول شتى القضايا ، وبعدها إلى اجتماع رتّبه الحاكم براون مع تلاميذ مدرسة ثانوية حيث تعين عليه ثانية الرد على أسئلة قاسية. ويضيف السفير ستيرنر : كادت عيون السادات تطل من محجرها وهو يشهد تجربة التواصل بين الحاكم براون وبين عامة المواطنين خاصة أن طلبة الثانوية كانوا قد شددوا النكير بيد ان براون تحمل سخونة الجلسة بروح من المرح . أما السادات فقد ملكت عليه التجربة جماع جوارحه وتعمق لديه الإعجاب بما راه من تميز الحياة الأمريكية بالحيوية والانفتاح وعليك ان تتذكر أن السادات كان قد عرف موسكو في أيام ستالين

المظلمة★ .. واعتقد أن تلك كانت لحظة حاسمة لحظة أن «باعوا» صورة أمريكا لأول مرة لأنور السادات .

وفى نيويورك رتبوا غداء للسادات قبيل عودته إلى مصر فى «نادى ٢١» كان مقررا أن يحضره العمدة جون لندساى ، ويواصل «مايك ستيرنر» ذكرياته قائلا : وبسبب الضغوط التى مارستها الجماعات اليهودية ألغى لندساى حضوره قبيل ساعات ثلاث فقط من موعد الغداء ، وشعر السادات لحظتها بالإهانة لكنه مالبث أن تجاوز الأمر وساعتها سألته :" ان كان ثمة مايريد أن يفعله لكى يقتل الوقت فما كان منه إلا أن قال إنه يريد شراء مجموعة كاملة من روايات «زان جراى» عن رعاة البقر فى الغرب الأمريكى فعندما كان سجينا لدى البريطانيين مع سائر العناصر الوطنية المصرية ابان الحرب العالمية الثانية لم يكن لديهم مايقرأونه فى مكتبة السجن سوى روايات «زان جراى» . ثم إنه وخاصة بعد زياراته لكاليفورنيا أصبح مدمنا على هذه الصورة التى انطبعت فى ذهنه لأمريكا ، صورة رعاة البقر ولأننى نيويوركى أصيل كنت أعرف إلى أين أقتاده - إلى مكتبة فى شرق الشارع الرابع ولك أن تتصور الفرحة التى غمرت أنور السادات عندما وجد الكتب التى طلبها . وهكذا أصبح

★لعله يقصد أيام ما بعد ستالين الذى توفى عام ١٩٥٣ . «المترجم» .

العمدة جون لندساى فى طى النسيان . لقد كان السادات ينطوى على هذه القسمة الرومانسية من قسمات شخصيته . كان بوضوح رجل الحركات المسرحية ومازلت أتذكره مرتديا معطفه الادواردى فى الصباح وكأنه أحد الشخصيات فى أفلام ديفيد نيفن.

★★★

فى عام ١٩٧٠ واذ تولى السادات بعد جمال عبد الناصر أصبح مايكل ستيرنر مديرا للشئون المصرية فى وزارة الخارجية. «وكنت أعرف أننا بإزاء لعبة كرة جديدة ونصحت زملائى ورؤسائى ألا يهملوا شأن الرجل الجديد فى مصر بوصفه نسخة بالفاكسميلى عن أصل اسمه عبد الناصر ذلك لأن السادات سوف يأخذ مصر إلى اتجاه جديد».

قليلون يومها أخذوا آراء ستيرنر على محمل الجد وعلى رأسهم طبعا لجنة العلاقات اليهودية - الأمريكية وجولدا مائير . ألم يكن ستيرنر قبل كل شىء مجرد واحد من المستعربين الرومانسيين وقد اجتذبته تلك النسخة الجديدة التافهة من عبدالناصر ؟ لكن الذى حدث مع بدايات الربيع من عام ١٩٧١ أن بادر أنور السادات ليصعق «دونالد برجس» أقدم دبلوماسى أمريكى فى القاهرة عندما قدم له مشروعا للتسوية بين مصر واسرائيل.

كانت مصر قد قطعت العلاقات رسميا مع أمريكا فى عام ١٩٦٧ ولم يكن برجس يتمتع برتبة سفير .. بعدها طار ستيرنر إلى القاهرة من واشنطن وفى ٢٣ أبريل ١٩٧١ كان هو ومعه برجس يجتمعان مع أنور السادات .

يتذكر ستيرنر قائلا : «التقينا شمال القاهرة فى إحدى استراحات الملك فاروق حيث جلسنا إلى كراسى البامبو نحتسى القهوة والمشروبات الباردة وصفر السادات يطلب الخرائط.. وجاءت خريطة لسيناء من وضع هيئة المساحة الأمريكية وقال : اذا كان الاسرائيليون على استعداد للانسحاب إلى الموقع كذا فأنا سأكون على استعداد لفتح قناة السويس .. بعدها استرسل فى الحديث . كان قد عانى كثيرا فى فترة عبد الناصر .. وأدركنا فجأة أن هذا الشخص يريد التفاوض على السلام وأنه كان يعنى ما يقول .. وكان الأمر على هذا النحو مهما لكن ماذا عسانا نفعل لو أنه أطيح به ؟ .

على أن السادات مالبث أن هدأ بعضنا من تلك الوساوس بعد أيام قليلة عندما أخرج من الجراب أولى مفاجآته العديدة . لقد اعتقل على صبرى رأس الحزب السياسى فى مصر ، القوى الموالى للسوفييت ومع حلول الصيف سيقوم السادات بطرد

الخبراء العسكريين السوفييت من مصر . مع ذلك فقد بدأ موقف السادات الداخلى وكأنه لايزال هشا وبرغم أن كلا من وزير الدفاع موشى ديان ووزير الخارجية أبا إيبان - فى اسرائيل أبديا اهتماما بمبادرة السادات فإن رئيسة الوزراء مائير كانت يراودها مزيد من الشكوك .

بيد أن السفير «ستيرنر» لايلبث أن يعبر عن أسفه البالغ حين يقول : إنه عندما جاء كل من وزير الخارجية روجرز ومساعده سيسكو إلى الشرق الأوسط لدفع كلا الطرفين إلى التقارب مع بعضهما البعض وبرغم ماكان السادات يقدمه من تنازلات جديدة إلا أن الأمر كله مالبث أن تبدد بين حبات الرمال .

بدا الأمر وكأن كل أجزاء المعضلة موجودة ومتاحة ، لكن المعضلة نفسها كانت تستعصى على الحلول . إن «أثرتون» الذى كان مشاركا بعمق فى مبادرة سيسكو يعترف من جانبه قائلا : «حتى أنا كنت متشككا في إخلاص أنور السادات ولم نأخذ رئاسته فى مصر علي محمل الجد كمؤسسة إلا عندما جاءت حرب ١٩٧٣ . هذا النصر أسهم مع غيره من العناصر فى فشل المحاول الثانية فى التقدم نحو السلام ، ويعترف «أثرتون» أيضا بأن الاسرائيليين كانوا على حق فقد كان ثمة تركيز بالغ

على الحدود دون أن تشهد هذه المحادثات التركيز الكافى على جوهر السلام ذاته . وحتى بدون هذه السلبيات فقد كانت تلك المبادرة ينظر إليها على أنها مشروع من مشاريع الخارجية معرض لاحتمال ان ينسحب منه الأطراف على استحياء فى اللحظة الأخيرة دون ان تثير غضب الرئيس نيكسون .

والذى حدث أن فشل مبادرة ١٩٧١ أدى إلى المزيد من تدمير مكانة روجرز فى وزارة الخارجية مما أتاح المجال أمام نيكسون وكيسنجر لتسلم زمام السيطرة على سياسة الشرق الأوسط ، لم يكن لا المصريون ولا الاسرائيليون سعداء عند هذا المنعطف لا إزاء روجرز ولا تجاه سيسكو بل كانت إدارة الشرق الأدنى بالخارجية تدخل معركة مع لجنة العلاقات اليهودية - الأمريكية المؤيدة لاسرائيل حول كل شحنة سلاح تسلم لاسرائيل ، هذا بينما كان السادات يشعر كما يقول كوانت بأن ادارة الشرق الأدنى تعاملت معه كرجل أحمق مأفون .

فى عام ١٩٧٢ عين السادات حافظ إسماعيل مستشارا للأمن القومى وكان ذلك كما يشرح أثرتون منصباً جديدا تم انشاؤه غرض وحيد هو تزويد السادات بقناة اتصال خلفية مع كيسنجر لذى كان يشغل الموقع بنفس الاسم فى صفوف الحكومة لأمريكية .

ويقول ستيرنر : إن خبراء المنطقة بالخارجية كانوا متبرمين لأن كيسنجر أبدى بوضوح عدم اهتمامه باقرار تسوية سلمية فى فترة ١٩٧١ - ١٩٧٢ . وكيسنجر تنقصه الشجاعة الأدبية للاعتراف بأخطائه . كما يضيف ستيرنر الذى يقول إنه لا الاسرائيليون ولا إدارة نيكسون كانوا يثقون فى مبادرات التقرب من جانب السادات قبل نشوب حرب الغفران (أكتوبر) ١٩٧٣

إن ستيرنر يعرض على زائره - مؤلف الكتاب - قصاصة من أحد أعداد جريدة هآرتس الاسرائيلية ومعناها الأرض ، صادر فى عام ١٩٧١ ، يحمل صورا لكل من ستيرنر شخصيا وكذلك روى أثرتون وبعض المستعربين الآخرين بالإدارة الأمريكية وهم يرتدون ملابس لورانس العرب البريطانى الشهير ، ويضحك ستيرنر قائلا : هكذا كانوا يسخرون منا . ولو كانوا قد صدقونا بشأن السادات لما قتل من أبنائهم عدد كبير فى عام ١٩٧٣ . على أن ستيرنر يعترف بأن ضروب الفشل التى منيت بها عملية السلام وقتها فضلا عن مبيعات الأسلحة إلى اسرائيل قد زرعت فى صفوف ادارة الشرق الأدنى مايشبه عقلية الخنادق المتحفزة والمتربصة. «مع أواخر عقد السبعينات ساد شعور بأننا

الوحيدون فى عموم واشنطن الذين نشكل قطب التوازن إزاء المناخ العام من الشراكة المؤيدة لاسرائيل» . تلك هى اللحظة التى بدأ فيها المستعربون يرون أنفسهم بجدية فى صورة أقرانهم من المختصين بشئون الصين الذين تعرضوا للاضطهاد خلال الارهاب الفكرى المكارثى الذى شهده عقد الخمسينات .

وما كان لهؤلاء المخضرمين من أهل الاستعراب أن ينعموا بفرصة لالتقاط الأنفاس . لقد جاء استيلاء كيسنجر على مقاليد شئون الشرق الأدنى حتى قبيل تعيينه وزيرا للخارجية فى سبتمبر ١٩٧٣ . وتم هذا الاستيلاء قبل التعيين بأربعة أشهر .. ففى مايو ١٩٧٣ ، وتحت غطاء محادثات باريس للسلام فى فيتنام ، عقد كيستجر اجتماعا سريا مع نظيره المصرى حافظ اسماعيل بعد أن أطلعه كل من سيسكو وأثرتون على تطورات الأمور. يومها ظل ويليام روجرز وكان لايزال اسميا وزيرا للخارجية بعيدا عن الصورة تماما ، وجاء مايو ١٩٧٣ ليشهد فى باريس أول تعامل بين كيسنجر وروى أثرتون الذى يتذكر هذا بقوله : أعجبنى فيه سرعة تعلمه فلم يكن بحاجة إلى كثير من الاطلاع على المعلومات .

ثم اكتمل التحول الذى طرأ على إدارة الشرق الأدنى بعد مجىء كيسنجر إلى وزارة الخارجية فقد جاء بمفهومه عن

السياسات المبنية على الواقع ليقلب رأسا على عقب مفهوم الدبلوماسية التى كان كيسنجر يتشكك كثيرا فى مقدراتها، يقول فى كتابه «سنوات الأزمة» : لقد تطور السلك الخارج فى السنوات الأولى من تاريخنا حين لم يكن يلوح تهديد فعلى ومباشر لأمن أمريكا وبدا ان تعاطى أمريكا مع الخارج وكأنه لا يصدر عن مفهوم المصلحة القومية مما كان يعد أمرا قصير النظر من الناحية المعنوية بقدر ما كان ينطلق من الأفكار المستنيرة عن حرية التجارة ووضع المبادىء الأخلاقية أو على الأقل القانونية موضع التنفيذ .. ان الخدمة الخارحية - الدبلوماسية - تنادى بالتفاوضية أو فى معنى آخر بالوعى بما سوف يقبله الجانب الآخر ..

فى كلمة واحدة يرى كيسنجر السلك الدبلوماسى الأمريكى بمثابة حفنة من المبشرين انطلقوا إلى الخارج يقصدون إلى الخير فكان أن التقوا بالأشرار فى منتصف الطريق وعلى حساب المصلحة القومية .

وقد تحولت مقدرة كيسنجر على استغلال العناصر البيروقراطية فى قراره بالابقاء على «سيسكو مساعدا للوزير لشئون الشرق الأدنى فى حين كانوا ينظرون إلى سيسكو على

أنه رجل روجرز، وكانت معروفة تلك الكراهية التى يضمرها كيسنجر تجاه روجرز ، بل كان لكيسنجر آراؤه السوداوية إزاء محاولات سيسكو المتواصلة لصنع السلام التى وصفها كيسنجر بأنها نشاط من أجل النشاط ليس إلا . لكن من الواضح ان كيسنجر تنبأ - عن حق - بأن سيسكو عندما يصبح رجل كيسنجر سوف يشكل أداة مغرية وفعالة . وبرغم أن جوزيف سيسكو شأنه شأن هيرمان إيلتس لم يتردد فى أن يراجع كيسنجر فى أمور شتى بل أن يصرخ فى وجهه أحيانا إلا أن كسينجر كان يتقاضى عن تمرد الأفراد الذين يكن لهم الاحترام .

«مايك ستيرنر» واحد من المخضرمين الذين لهم أفكار تأملية بشأن التغيير الذى أحدثه كيسنجر وسيسكو فى الخارجية ولاسيما فى إدارة الشرق الأدنى : جاء كيسنجر بتصويب صحى لمسار السياسة الخارحية رأى كيف تعانى عملية أخذ القرار من جراء الشد والجذب بين الأطراف بغير ضابط أو رابط فمن المؤكد أن ثمة تحيزا مؤسسيا ومتأصلا لصالح العلاقات الثنائية فى وزارة الخارجية أى العلاقات بين أمريكا بين هذا البلد العربى أو ذاك .. لهذا جاء كيسنجر بهيكل معمارى جديد يكفل عمليات مراجعة وكشف منظمة لوضع الأمور فى نصابها

ذلك لأن من الدول ومن المبادىء مايفوق فى الأهمية دولا أو مبادىء أخرى .

وجاءت حرب الغفران (أكتوبر) ١٩٧٣ - التى كانت نتيجة جزئية لما عمد إليه نيكسون وكيسنجر من إهمال الشرق الأوسط بعد المكاسب التى تحققت لهما من أزمة «أيلول الأسود» فى الأردن عام ١٩٧٠ لكن الحرب أتاحت أمام كيسنجر فرصة العمر التى كان يرتقبها كى يبدد الأفكار والتصورات التقليدية التى درج عليها المستعربون - خاصة كما أكد عليها سلفه القديم - لوى هندرسون - بأن على الولايات المتحدة أن تختار بين صداقة إحدى وعشرين دولة عربية أو صداقة واحدة فقط هى اسرائيل . ذلك أن كيسنجر كان جديرا بإثبات أن بالإمكان كسب صداقة الطرفين على السواء .

وكان الأمر مهيأ تماما فبرغم ان اسرائيل كانت تخوض الحرب على جبهتين فى أكتوبر ١٩٧٣ إلا فإنها تكبدت جراحا مميتة بفعل الهجوم المباغت للسادات عبر قناة السويس وهجوم الزعيم السورى حافظ الأسد عبر مرتفعات الجولان ، هكذا تناقصت بصورة جذرية ميزة اسرائيل الاستراتيجية والسيكولوجية التى كانت تتمتع بها على جيرانها العرب، وهذه

النكسة أتاحت لكيسنجر الضغط على اسرائيل من أحل تقديم تنازلات . ثم ان الدول العربية باتت تدرك أن الولايات المتحدة وليس غيرها هي القادرة على أن تعيد اليهم أرضهم الضائعة بحكم علاقتها الوثيقة مع اسرائيل ، ومن ثم فبرغم استمرار العلاقة الحميمة بين أمريكا واسرائيل قامت كل من سوريا ومصر بتجديد صلاتهما الرسمية مع واشنطن .

كان كيسنجر وسيسكو وأثرتون هم نواة الفريق المسافر للخارجية الأمريكية لإجراء المفاوضات التاريخية التي أعقبت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وهي المفاوضات التي شملت إعادة فتح قناة السويس وانسحاب القوات الاسرائيلية من الجزء الغربي من سيناء وخلق منطقة منزوعة السلاح في مرتفعات الجولان . وكان هيرمان ايلتس هو الرجل الذي اختاروه لإعادة فتح سفارة أمريكا في القاهرة وكان ريتشارد ميرفي هو الذي اختاروه لإعادة فتح سفارة أمريكا في دمشق .

أثرتون كان هو الذي وضع عينه على ريتشارد ميرفي بوصفه يمثل فصيلا جديدا من المستعربين - فصيلا غير تقليدي وغير مستغرق في الاستعراب . بيد أن الخاصية التي ميزت ميرفي عن المخضرمين من أمثال سيل أو باركر أو ستولفوز أو كيلجور أو ستيرنر أو غيرهم كانت أعمق وأبعد مدى . فبدلا من

أن يكون فصيلا جديدا . كان يمثل بالأحرى طبعه مخففة من هؤلاء الرجال رغم أن ميرفى ، وكذلك يفعل بعض بعض أولئك السادة المخضرمين ، لا يقرون كيلجور مثلا على نوعية تصريحاته المتعلقة باسرائيل أو الصهيونية .

ميرفى مثل أثرتون تخرج فى كلية أكستر حيث صادف لأول مرة كتاب دوتى الأشهر بعنوان «رحلات فى صحارى بلاد العرب» وبعد دراسة فى هارفارد أعقبتها فترة موجزة فى الجيش التحق ميرفى بالسلك الدبلوماسى عام ١٩٥٤ ثم درس العربية فى الجبال المحيطة ببيروت فيما قرأ القرآن الكريم على يد شيخ علم فى أحد الجوامع المحلية ، وزار ميرفى اسرائيل لأول مرة عام ١٩٥٤ وهناك اكتشف ان التحيز هنا أو هناك لجانب ما هو من الحماقة بمكان ، خاصة فيما يمس المستقبل الوظيفى للمرء . فى فبراير ١٩٦٢ كان عاكفا على تسلم صور لرائد الفضاء الأمريكى جون جلن بالقنصلية الأمريكية فى حلب فى محاولة لتعزيز صورة أمريكا فى صفوف الأهالى العرب وفى اليوم التالى اتهمته وسائل الاعلام السورية بأنه إنما كان يسلم صورا لجمال عبد الناصر★ كانت تلك فترة قطيعة (الانفصال) بين مصر وسوريا،

★وكانت تلك جريمة فى نظر نظام الانفصال السورى .. فتأمل !
«المترجم».

واشتكى ميرفى إلى المسئولين السوريين وتلقى الاعتذار لكنه قرر فى صحف اليوم التالى أنه هو الذى قدم الاعتذار وفى هذا يقول ميرفى : الخطأ الذى ارتكبته هو إننى تعاملت معهم بالمنطق . ذلك هو النوع من التجارب الذى يتكرر مرارا وتكرارا حتى ليحصنك من أن تنحاز عاطفيا إلى العرب .

وبعد أن أصبح أثرتون نائبا لمساعد الوزير حصل لميرفى على منصب سفير لدى موريتانيا إذ كان أثرتون يدرك من واقع تجربته الخاصة أن أفضل شىء لمهمة المستعرب أن يتباعد المرء عن المسار الرئيسى فى العالم العربى . وموريتانيا إلى جانب كونها عند أطراف المحيط العربى إلا أنها أتاحت لميرفى فرصة الانضمام إلى صف السفراء فى سن صغيرة نسبيا بما يؤهله لمنصبه فى سوريج عندما يعيد كيسنجر إقامة العلاقات. وقد تعمدوا اختيار ميرفى متخطين بذلك كلا من ستولفوز وكيلجور ومن سواهم ممن يفوقونه فى الأقدمية وفى التمرس فى الشئون العربية ، وفى عام ١٩٧٨ عاود أثرتون مساعدة ميرفى فى تولى منصب السفير فى الفلبين بعد مهمته فى سوريا . وما أن جاء مطلع الثمانينات حتى أصبح ريتشارد ميرفى مؤهلاً بتاريخ خدمة حافلة لكى يصبح مساعدا للوزير لشئون الشرق الأدنى فى عهد

الرئيس ريجان . هكذا لم يقدر بعد ذلك قط أن يتولى مستعرب متأصل رئاسة إدارة الشرق الأدنى - منصب مساعد وزير الخارجية - فقد حل أثرتون محل سيسكو عام ١٩٧٤ عندما قام كيسنجر بترقية سيسكو إلى منصب وكيل الخارجية ، وبعد أثرتون جاء هارولد سوندورز معاون كيسنجر السابق فى مجلس الأمن القومى - بالبيت الأبيض - وهو واحد من رواد عملية السلام وبين سوندورز وميرفى تولى المنصب نك فليوتس .

★★★

ينحدر نك فليوتس من أصل يونانى فى كاليفورنيا وقد التحق بمدارس الحكومة وحصل على درجاته الجامعية من جامعة كاليفورنيا فى بيركلى ، وكان أول مناصبه الدبلوماسية فى نابولى ورما بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٦٠ وهو يعلق على تلك الفترة بصوت رتيب تفوح منه خبرة الحياة اليومية قائلا : خمس سنوات ممتعات فى إيطاليا قبل أن يلحقها التلف نتيجة عوامل مختلفة أمضينا فيها أجمل سنوات عمرنا أنا وزوجتى ومنذ ذلك الحين مابرحت فى تدهور .

سنوات فليوتس التالية أمضاها فى مواقع فى فيتنام والهند ولاوس .

وفى عـام ١٩٧٣ وقـد بلغ من العمـر ٤٥ عـامـا خـيروه بين منصب السـفـيـر في بنجـلاديش ونائب السـفـيـر فى اسـرائيل والمعروف ان الدبلوماسى المحتـرف سـواء اعترف بذلك او أنكره ينشـد، رجـلا كان أو أمـرأة إن يصبح سفيـرا قبل التـقـاعـد فإذا ماعرض منصب السفير عليه ولما يزل فى الأربعينات من العمر مهما كان البلد صغيرا فمن شأن هذا أن يضع الدبلوماسى فى فئة النخبة التى يمكن أن تفتح أمامـها أبوابا أوسع دون سـابق إنذار.

★★★

لكن فليوتس المقامر بطبعه يقول لم أكن أريد العودة إلى آسيا لقـد أصـبت بكل مـرض يخطر على البـال هناك ولم يكن من قصدى أن أختـرع أمراضـا جديدة ثم كنت أخشـى الملل الفكرى هناك .. وكان عندى ابناء ، واسرائيل موقع أفضل بالنسبة لعائلة.

ومـا لبـث اسـرائيل ان برهنت على كل مـا كـان يتطلع إليـه بالضبط فعشية حرب ١٩٧٣ واجه فليوتس بدلا من الملل الفكرى أعـبـاء هائلة من العـمل سـبـعـة أيام فى الأسـبـوع . ووجـد أن الاسرائيليين يتصـفون بنوع من الغطرسة لايخلو من جاذبية : تل أبيب تحمل طابع وسط مـانهاتن - قلب نيويورك - من حيث الجو

المحموم والمكهرب ولأن السفارة الأمريكية تقع فى قلب الحى المشحون بالضوء الأحمر كان المنصب ممتازا .

فى عام ١٩٧٥ عاد فليوت إلى واشنطن ليعمل ضمن هيئة رسم السياسات مع كيسنجر ، وفى عام ١٩٧٧ رشحه أثرتون نائبا لمساعد الوزير للشرق الأدنى فى عام ١٩٧٨ أصبح سفيرا لدى الأردن ، هكذا ربح فى المقامرة برفض منصب السفارة لدى بنجلاديش ثم «كان هناك من المستعربين من حاولوا النيل منى للحيلولة دون حصولى على المنصب فى الأردن على أساس الفترة التى أمضيتها فى اسرائيل والذى لم يدركوه أن الأردنيين هم الذين أرادوا مجيئى وبالذات لأن لى رؤية متعمقة بشأن اسرائيل».

المعروف ان فليوتس اختتم حياته الوظيفية سفيرا لدى مصر بعد أن عمل مساعدا للوزير لشئون الشرق الأدنى فى الفترة ١٩٨١ - ١٩٨٣ .

على أن الأمور لم تمض بغير عوائق اذ لم يكن سهلا باستمرار على المستعربين المخضرمين ان يفسحوا مواقعهم كى يأتى إليها أمثال ميرفى أو فليوتس .. ففى أواخر عام ١٩٧٥ قام كيسنجر بطرد «جيمس إلمر أكنز» وكان سفيرا بالعربية السعودية

بتهمة العصيان الوظيفى لأنه على ماقيل كان متحيزا أكثر من اللازم لصف العرب ، وقد تعين على «إكنز» أن يقرأ خبر طرده فى سطور عمود كتبه الصحفى جوزيف كرافت كان هذا هو هنرى كيسنجر فى أحقر تصرفاته البيروقراطية . فما الذى دفعه إلى هذا التمادى فى السلوك ؟ ان الخلافات فى السياسة لم تكن كما قد يتوقع المرء سوى الأسباب الظاهرة – لهذه التصرفات .

★★★

لم يكن «جيم أكنز» من ذلك الطراز الذى نعهده فى مستعربى المدرسة القديمة لم يكن لا جم التهذيب ولا رقيق الحاشية على نحو ماكان اندى كيلجور وتالكوت سيل أو تيل ستولفوز ولا حتى من طراز اختصاصى الصين مثل جورج بوش . كان «أكنز» خشنا بحق متوقد الذكاء .

ولد فى اكرون ، أوهايو عام ١٩٢٦ من عائلة مبشرين فقيرة من طائفة الكويكرز ، وبدلا من برنستون أو أمهرست أو هارفارد تعلم فى جامعة اكرون وبدلا من أن يحصل على درجة فى الأدب أو العلوم السياسية نال درجته فى الفيزياء وفى هذا يكمن أحد مفاتيح شخصيته إذ هو عالم طبيعيات من النوع الثقيل وكل شىء حول شخصيته وأساليب تفكيره ينطلق من خبرة تحليلية قاسية

غير متهافتة – نكرر غير متهافتة بحال من الأحوال . إنه بهذا نقيض طراز المستعرب الرقيق من أهل العلوم الاجتماعية الذى يجب ان يكرهه بالذات غير المحافظين .

هذه الشخصية العلمية الحادة الاستقامة التى جبل عليها «أكنز» واقتربت بنشأته التبشيرية المتقشفة بين ظهرانى الكويكرر جعلت منه شخصية ديدنها الأخلاق . بل وإنسانا كما يقول البعض يتحلى بضمير يقظ يحاسب على كل شىء . مع بدايات الخمسينات خدم «أكنز» مع نخبة الأصدقاء الأمريكيين فى بولندا والمانيا وتشيكوسلوفاكيا إلى أن قام الشيوعيون بطرد جماعة مبشرى كويكرر. كانت تلك سيرة هندرسون الذى شب بدوره فى بيئة فقيرة فى قلب أمريكا وخدم أيضا مع الصليب الأحمر بعد الحرب العالمية الأولى . على أن «أكنز» آنس فى نفسه فى تلك الفترة قدرة على تعلم اللغات . كانت الفيزياء قد أوصلته إلى الألمانية واستطاع بسهولة أن يتقن الفرنسية ثم أصبح أيضا من عشاق الثقافة واللغة اليونانية ، وفى عام ١٩٥١ كان قد أكمل جولة فى أنحاء اليونان وآسيا الصغرى حيث زار أقصى الأديرة فى جبل أثوسى وكان ذلك عقب الحرب الأهلية اليونانية إذ كان الريف فى معظمة ممزق الأوصال ، وفى تركيا تقصى «أكنز» مسار الاسكندر الأكبر مشيا على الأقدام وهو مايلاحظ أنه أمر

لم يحتفل به ولا انجزه كتاب الرحلات البريطانيين من أمثال فرياستارك ويقول : «ان شغفي بأحوال شرقي المتوسط تناهي إلى نفسي عن طريق اليونان .

ومالبث «أكنز» الشاب أن وجد لنفسه مستقرا في بيروت عام ١٩٥٢ حيث كان يتكسب من تدريس الفيزياء والكيمياء «كنت قد نشأت فقيرا للغاية ولم أكن أعرف ماهو السلك الخارجي إلا بعد أن أقمت في بيروت وتصورت أنه مقصور على أبناء الأثرياء ، وكنت أعرف أنني أفوقهم ذكاء وألمعية . هكذا انتظرت إلى ان دخلت امتحان السلك الدبلوماسي في سفارة أمريكا وما داخلني الشك لحظة في انني سأجتاز الامتحان . لكن الذي حدث أن أوراق الامتحان لم تصل قط بل جاءت السنة التالية عام ١٩٥٣ فأجريت استقطاعات بالميزانية ومورست الضغوط من جانب السناتور مكارثي وقد كان يصطاد في مياه عكرة يراها حمراء فحالت دون تعيينات جديدة » ، وبعد فترة تسكع في لبنان وسوريا كان الفرد أثرتون الدبلوماسي في سوريا في ذلك الوقت هو أول من التقاه اكنز من أفراد السلك الخارجي على الإطلاق وقد عاد أكنز إلى وا شنطن عام ١٩٥٤ ومالبث أن التحق بالسلك الدبلوماسي .

وفي عـام ١٩٥٦ عـين «أكنز» فـى سـوريا حـيث أبدى من اللمعان وأيضا الاعتداد بالنفس مـايجبر المرء على احترامه وهو يبدأ فى تفسير ذلك فيقول «كان ذلك فى الفترة التى سبقت ايام دفع علاوات أسرية مقابل تعليم أولاد الدبلوماسيين أو الإجازات التى يمضونها فى الوطن، بمعنى آخر كان السلك الدبلوماسى لايزال بعد مؤسسة الأغنياء : مرتبات ضعيفة أساساً وعليك أن تدفع من جيبك الكثير وكان من السهل ان تكون أمينا فى البرقيات الدبلوماسية ، فأنت عائد فى حال ان يغضبوا عليك إلى حيث دخلك الخاص الوفير . أما أنا فلم أكن لأملك هذا الترف هنالك قررت ومهما كانت عواقب التصرف كما يفعل ابناء الأغنياء أن أكتب تقاريرى لأودعها بالضبط ماكنت أفكر فيه». وعليه جلس اكنز ليكتب تقريرا بخط يعدد فيه ١٦ علامة تنبىء بوحدة سياسية وشيكة الحدوث بين مصر وسوريا وأرسله خلال قناة معارضة ولكن عمد نائب السفير إلى تدمير تحليلى ثم ثبت أننى كنت مصيبا وكان هو المخطىء اذ قامت بالفعل الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ثم تعرضت للانفصال عام ١٩٦١» .

بعد ذلك خدم «أكنز» في مأمورية محدودية في قنصلية مدارس بالهند قبل ان يتوجه إلى بيروت لدراسة العربية. و«ما أسهل أن لحقت بالذين كانوا متفرغين يدرسون العربية ردحا طويلا من الزمن» . وهو يحرص على تذكير محدثه بذلك معربا عن الأسف لأن المعهد تعرض للإغلاق فترة من الزمن عندما قام أيزنهاور بغزو لبنان ، وفى عام ١٩٥٩ ذهب «أكنز» إلى الكويت ليحل محل «سيل » نائبا للقنصل وكان سيل قد حل بدوره محل «ستولفوز» وبعدها بدأ أكنز فى عام ١٩٦١ مهمة استغرقت أربع سنوات في بغداد مستشارا سياسيا بالسفارة وهو يلاحظ بسعادة أنه بفضل الانقلاب البعثى . عام ١٩٦٢ فقد نعمنا بعلاقات أفضل مع العراق ومن تصاريف القدر أيضا أن سبق «أكنز» فى منصب المستشار السياسى بالسفارة في بغداد زميله «بيل ليكلاند» الذى يراه أكنز « أفضل موظف فى السلك الخارجى الأمريكى التقيته على الإطلاق» وهو نفس بيل ليكلاند الذى وصفه أثرتون بأنه من غلاة مؤيدى القومية العربية وجمال عبدالناصر وحكم الأغلبية من أهل السنة .

وفى عام ١٩٦٧ حصل جيمس أكنز على وظيفة مدير مكتب المحروقات والطاقة بوزارة الخارجية بفضل معرفته عن العالم

العربى الغنى بالنفط من جهة وبفضل خبرته العملية من وجهة أخرى ويومها أثبت اكنز انه كاسندر★ فى عام ١٩٧٠ . وعندما كان سعر البنزين ١٧ سنتا للجالون اقترح اكنز رسميا فرض ضريبة على البنزين بهدف الحد من الاستهلاك واعداد أمريكا لأزمة قادمة فى البترول تنبأ بوقوعها فى ربيع ١٩٧٣ أى قبيل أشهر قليلة من حرب الغفران - اكتوبر - وماتبعها من فرض حظر عربى على البترول .

وفى اجتماع ضمه مع جون ارلخمان مستشار السياسة الداخلية للرئيس نيكسون دافع أكنز عن خطة ترمي إلى حفظ النفط بمعنى الاقتصاد فى استخدامه خشية النضوب . إلا أن ارلخمان أجاب بقوله ان الحفظ ليس مما يتبناه الحزب الجمهورى ويعلق على ذلك اكنز بقوله وهذا غلط فإن أول دعاة الحفظ الكبار هو الرئيس الأسبق تيدى روزفلت وكان جمهوريا ثم يسترسل أكثر ضاحكا طبعا لم أجسر على أن أقول ذلك إلا بعد ان غادرت مبنى البيت الأبيض .

★ عرافة ضروارة أو زرقاء اليمامة عند العرب «المترجم» .

بدأ تعيين «جيمس أكنز» سفيرا لدى العربية السعودية، فى نفس لحظة اندلاع حرب «يوم كيبور - الغفران - اكتوبر» بمثابة اختيار مثالى.. فأى اختيار أفضل من مستعرب وكذلك خبير فى الطاقة سفيرا لدى المملكة العربية التى كانت تتصدر منتجى النفط فى العالم؟ لكن «اكنز» ما لبث أن تسبب فى مشاكل على الفور.. ففى ٢٥ اكتوبر ١٩٧٣. وبعد أسابيع قلائل من اضطلاعه بواجباته فى المنصب.. أبلغ اكنز مديرى «أرامكو» بأن يستخدموا اتصالاتهم لكى يؤكدوا بيقين فى أمريكا أن رفع القيود عن النفط لن يتم إلا إذا جرت تسوية النزاع السياسى بطريقة ترضى العرب.

وقد جاء ذلك فى وثيقة من أرامكو مطبوعة فى لجنة مجلس الشيوخ الأمريكى الفرعية بجلسات الاستماع للشركات المتعددة - أو المتعدية الجنسيات★ .. بعد ذلك وتحت عنوان «آل سعود الأمريكيون: عصابة البترو دولار السرية» كتب الصحفى المحقق «ستيفن أمرسون أن» تصرفات اكنز كانت من الغرابة بمكان فها نحن بإزاء سفير أمريكى يحاول أن يعزز من ابتزاز العرب للولايات المتحدة» .

★ الشركات المتعدية الجنسيات والسياسة الخارجية للولايات المتحدة الجزء ٧ ، ٢٠ و ٢١ فبراير ٢٧ و ٢٨ مارس ١٩٧٤ ، ص ٥١٧ .

كيسنجر وسيسكو كانا فى أهون الأحوال غير راضين عما حدث.. ومن ناحيته فإن «السفير اكنز لا يخفى كراهيته لكل منهما وتفضيله لوزير الخارجية الأسبق ويليام روجرز.. بيد أن أكنز ما برح ينكر أن هذا الأمر له علاقة بتحيز «من جانبه» للقضية العربية.. بل يقول إنه خاض معارك من أجل كيسنجر ومن أجل اسرائيل أيضا.. ويقول أيضا إن الملك فيصل لم يكن مستعدا لرؤية كيسنجر.. فقد كان فى رأيه يهوديا وصهونيا.. فما كان من أكنز إلا أن أكد على ضرورة استقباله وإلا فإنه سوف يستقيل إذ لن يكون له مصداقيته كسفير إذا ما فشل فى أن يرتب لقاء على مستوى القمة لوزير خارجيته، وبين رئيس الدولة المعتمد لديها.. ويضيف أكنز قائلا: «كان لزاما على أن أمضى الساعات الطوال لإقناع السعوديين بأن كيسنجر لم يكن له يد فى اغتيال فيصل الذى اغتاله أمير سعودى مختل فى مارس ١٩٧٥، ويشير أكنز إلى أن جورج حبش - الزعيم الراديكالى الفلسطينى وصفه بأنه أخطر الأمريكيين فى الشرق الأوسط بعد ما تردد من أن لى نفوذا سلبيا على فيصل.. وفى واقع الأمر فقد حولت موقف فيصل إزاء اسرائيل من عدم القبول نفسيا بدولة يهودية أيما كانت الى القبول عقليا

باسرائيل في حدودها فيما قبل ١٩٦٧.. « لايزال أكنز بقامته
الطويلة وشخصيته الشديدة التأثير على نحو يشوبه قدر من
الخشونة التي يكاد يختفي وراءها جوهر روحي أرهف
احساسا - لايزال لديه ما يقوله: «لم أكن أريد لأسعار البترول
أن ترتفع.. وطالما جادلت في ذلك مع أكبر المسؤولين بدعوى
أنهم إنما يلحقون الأذى بالاقتصاد الغربي وإن ارتفاع
الأسعار لن يصب إلا في مصلحة الشيوعيين وكانوا قوما
مبغضين اليهم.. وكان الجواب الذي تلقيته «إذا أقنعتم إيران.
وافقنا من جانبنا على تجميد الأسعار» لكن سيسكو وكيسنجر
تضايقا من اقتراح بممارسة الضغط على الشاه كي يكبح
جماح الأسعار ★.. أرادا أن يجني الشاه طائل الأموال كي
يشتري بها أسلحتنا «الأمريكية» بيد أنني واصلت الضغط.
وعدت هنا إلى عقدة سليل الأغنياء التي اصطنعتها وتصورت
أن إلمامي بهذه المسألة بما يفوق معارف كل من كيسنجر

★ «السفير» كيلفور يشير في مقابلة التاريخ الشفوي التي أدلى بها أن
ذلك كان جزءا من مؤامرة سيسكو وكيسنجر في ايقاع العرب بين قطبي
قوتين عسكريتين غير عربيتين في المنطقة هما اسرائيل وايران (الشاه).

وسيسكو، وكذلك بفضل صلتى الوثيقة بالملك فيصل.. فإن ذلك كفيل بحمايتى من العزل من منصبى».

من ناحية أخرى فإن «السفير» هيوم هوران وكان نائبا للسفير «أكنز» يؤيد جانبا من روايته حين يقول: حارب جيم (السفير) بالقطع فى سبيل مصالح الولايات المتحدة.. وكان حازما إلى مايقرب من المواجهة.. يوصل الأمور إلى قرب الحافة ثم لا يلبث يتراجع ساحبا قواته (الفكرية) ومعيدا تنظيمها ومعاودا الكر مع المسئولين من جديد.. كان أداؤه فى قوام الصخر صلابة وفى براعتة النغم عذوبة واتقانا».

هيرمان إيلتس الذى كان قد وصل لتوه إلى مصر سفيرا لأمريكا وكان مطلعا على كواليس هذه المحادثات يقول إن إدعاء «أكنز» حول عزوف كيسنجر عن الضغط على الشاه ما هو إلا «تذييل ملحق بالقصة الأساسية» وفحواها أن «أكنز» كان يرفض أحيانا تنفيذ تعليمات كيسنجر ومن ثم كان يعطى الانطباع بأنه يرفض الضغط علي الرياض من أجل رفع حظر البترول.. ويضيف إيلتس فى أسى: كان أكنز شخصية لامعة لكنه كان خائبا فى التفاعل البيروقراطى مقصورا على الدخول فى مواجهات وإن كان الحق فكريا معه فى غالب الأحيان.. ثم

كان لديه ولاءات محلية (عربية) لايرى إلا ذاته.. كان أكنز يرى نفسه في نقاء أفضل ماركات الصابون.

(السفير) هيوم هوران يقول: لاشك أن «چيم» كان رجلا عنيدا صلب المراس.. هذا هو الرجل الذى خاطب يوما رؤساء أكبر ٥٠٠ شركة فى أمريكا (يسمونهم فورتش - ٥٠٠ نسبة إلى المجلة الاقتصادية الشهيرة) طالبا منهم إطفاء سجائرهم لأنه من عتاة - غير المدخنين».

باختصار لم يكن هناك حيز خال ولا حتى فى مقعد السائق لكى يسع الرجلين معا، جيم اكنز وهنرى كيسنجر.. وقد يكون الرجلان على درجة من تقارب الشخصية على نحو لم يعترفا به أصلا.. وكان من مشاكل المرحلة ما زاد حدة الصدام بين هذين الرجلين بكل ما اتسما به من توتر وذكاء واعتداد يبلغ حد الغرور.. كان واضحا مدى الضغط الذى يرزح تحته (السفير) اكنز إذ يعالج مع الملك فيصل (وقتئذ) مسألة البترول وأيا كان ما حققه لم يكن كافيا قط ولا تحقق بالسرعة المطلوبة.. وعليه مضى كل جانب يزعم أن الجانب الآخر هو الأسوأ والأضل سبيلا.. وإذا كان الشخصان اللذان احتملهما كيسنجر وهما يراجعانه فى أمور الشرق الأوسط - سيسكو وإيلتس - ممن

لديهم نفس الإطلالة على المشكلة العربية - الإسرائيلية، إلا أن (السفير) اكنز «لم يكن يحترم كثيرا طريقة كيسنجر فى التعامل العربى.. تلك القائمة على الضرب على وترى القوة والضغط.. وهو يفسر ذلك بقوله: «أذكر عندما ظهر فى الإعلام الأمريكى تقارير عن قيام الولايات المتحدة باحتلال آبار النفط بالجزيرة العربية، أن أدليت بحديث تليفزيونى قلت فيه: كل من يتصور أن هذا أمر واجب الحدوث هو شخص مجنون أو مجرم أو عميل للاتحاد السوفييتى» حسنا ثم ينجلى الأمر عن أن كيسنجر «شخصيا» كان هو المصدر وراء نشر تلك الأنباء (كانت تلك هى طريقة كيسنجر فى إثارة أعصاب العرب) ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت وعرفت الحقيقة لما كنت قد اخترت ما تفوهت به من عبارات.. فلقد أكون صفيقا.. لكن لست ممن يقدمون على الانتحار».

فى الوقت نفسه يشتكى جوزيف سيسكو قائلا: إن أكنز يكرهنى حتى يومنا هذا.. وأنا أعرف ذلك ولكن لا أدرى له سببا.. لقد حاول إنقاذ وظيفته.. إنه ينحدر من عائلة فقيرة.. مفهوم.. وكذلك الحال معى.. وكان ينبغى أن نكون حليفين.

إن ايلتس يشهد بمحاولة سيسكو إنقاذ (وظيفة) اكنز..» قال لى سيسكو: ماذا دها أكنز؟ألا يعرف أنه لو ظل على هذا المنوال

من التـصـرف فلن يجد هنرى (كيسنجر) بدأً من فصله؟ ثم يتذكر إيلتس حادثة محرر الشئون الخارجية فى نيويورك تايمز، س. سولز برجر الذى سأل إيلتس يوما إن كان يمكن مساعدته على دخول السعودية.. كان سولز برجر يهوديا وهم لا يسمحون رسميا لليهود بالدخول.. لكننى قلت له: فقط ابعث رسالة إلى سفيرنا چيمس «أكنز» . انت كاتب فى نيويورك تايمز وينبغى أن يسمحوا لك بالدخول.. لكن سولز برجر أبلغنى أنه كان قد اتصل مع «أكنز» الذى رفض مساعدته وعندما أجريت اتصالاتى لتأمين تأشيرة لسولز برجر ، تلقيت رسالة غاضبة من «أكنز» يقول فيها إنه ما كان ينبغى لتلك التأشيرة أن تصدر على الإطلاق.

القشة التى قصمت - كما يقولون - ظهر البعير جاءت عندما عاد ديفيد روكفلر من رحلة من الجزيرة العربية وجمعته مع صديقه القديم كيسنجر محادثة خاصة قال له فيها: عليك أن تتخلص من سفيرك بالسعودية.. أولا هو يشوه عرض سياساتك.. وثانيا: إنه ملكى أكثر من الملكيين.

وتصرف كيسنجر لا يلوى على شىء.. وطار «أكنز».

لكن ثمة حوادث مثل سولز برجر ، فضلا عما أدى إلى تفاقمها من بيانات عديدة أدلى بها (السفير السابق) أكنز بعد

تركه السلك الخارجي في عام ١٩٧٥، أدت إلى هز الانطباع عن ذلك الرجل الرفيع الموهبة.. ليس أدل على ذلك من خطاب أعده لإلقائه في مؤتمر للطاقة عقد في لندن.. في سبتمبر ١٩٨١. واقترح فيه استخدام العرب سلاح البترول ضد أمريكا، إذا لم تكن سياستها مؤيدة بما فيه الكفاية للعرب.. ويومها هاجم أكنز أعداء العرب من أمثال «الكتاب اليهود» جوزيف كرافت ووليام سافير اللذين قرنهما «أكنز» مع النازيين، وكان محور هجومه على كرافت وسافير انهما يسارعان إلى شجب أي مظهر يريان فيه عداء للسامية فيما ينطلقان إلى السخر من العرب بنفس الأسلوب الذي كان يسخر به النازي من اليهود.

بيد أن أهم طروحات «أكنز» كانت صائبة بالطبع حين ذكر أن وسائل الإعلام الأمريكية كانت تصدر عن نفاق أعمى فيما يتعلق بالتعصب العرقي ضد العرب.. لقد تفشت الإهانات الإثنية تعريضا بالعرب في صحف الكاريكاتور الأمريكية لدرجة لم يعد حتى المرء يتوقف عندها.. ولك أن تتصور كيف يكون حال الأمريكي من اصل عربي حين يطالع هذه المادة في الصحيفة بانتظام.. لكن للمرء أن يتساءل أيضا عما إذا كان جديرا (بالسفير) أكنز.. ان يقارن اليهود بالنازي.. بدلا من

استخدام مقارنة أقل التهابا.. إنه يتهم سافير وزمرته بأن لهم مهاما مرسومة ينفذونها.. فماذا عن أكنز نفسه؟ (السفير) أكنز يعرض على زائره صورة تخطيطية (اسكتش) يعتز باقتنائها للملك فيصل في مكتبه ويقول: السعوديون أوشكوا أن يلقوها بعيدا إذ تصوروا أنها تعكس ملامح كئيبة فطلبت منهم الاحتفاظ بها».. وهو دائم التفكير في المملكة إلى جانب ذلك فهو متصلب في منع التدخين ومؤمن بعمق بتحديد النسل.. ويحذر من «مصير بنجلاديش» الذي يخشى أن يئول اليه حال العالم العربي في الجزيرة وغيرها إذا ما استمر السكان في تزايد.. وآلت موارد المياه إلى نضوب حيث لن يكون بالإمكان إعالة السكان في القرن القادم.. وعلى كل حال فقد جاءت تنبؤاته عن البترول منذ الستينات صائبة وثاقبة.. وقد يثبت الزمن من جديد أن الحق كان مع ذلك الرجل بشخصيته المعقدة التي لا ينقصها الجهامة في بعض الأحيان.

عندما تولى جيمي كارتر منصب الرئاسة في البيت الأبيض عام ١٩٧٧، كان أكنز قد ذهب، وتقاعد ستولفوز فيما كان كيلجور في قطر حيث لا يضر أحدا، وكان أثرتون ممسكا بأعنة الأمور مساعدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى.. مع ذلك

فمن الخطأ الافتراض بأن إدارة الشرق الأدنى انصلح حالها تماما بفضل مرحلة نيكسون - فورد - كيسنجر - سيسكو - أثرتون.. لقد كانت دائرة تعيش مرحلة انتقال.. فى ذلك العام نفسه، عين «سيل» سفيرا فى سورية وعين باركر سفيرا فى لبنان.. أما العراق فكان لايزال.. كما سوف تشهد لاحقا، محطا لانظار مخضرمى الاختصاصيين فى الشئون العربية.. ويمكن الحكم على طور الانتقال المذكور من خلال تجارب السفير صاموويل لويس الذى أصبح فى عام ١٩٧٧ سفيرا فى اسرائيل.. إن سفراء أمريكا فى اسرائيل يشكلون فصيلا غريبا.. فلأن العبرية لاتستخدم إلا فى بلد واحد فى العالم كله.. جرت العادة أن ليس من الحكمة أن يصبح هذا الدبلوماسى الأمريكى أو ذاك من «المستعبرين» دارسى العبريات.. لذلك ففى ما يكاد يكون جميع الحالات، كان السفير فى تل أبيب عنصرا من خارج المنطقة ولم يكن يهوديا قط لسبب وجيه مؤداه أن من شأن سفير يهودى فى اسرائيل أن يناله أوتوماتيكيا رذاذ من افتراض كونه منحازاً عاطفيا لاسرائيل.. وربما لأن العلاقات الأمريكية - الاسرائيلية متطورة بعمق، ومن ثم تتسم بقدر من التشابك والتعقيد، فقد جنح السفراء الناجحون إلى أن يحتفظوا

بموقعهم هذا لأجل طويل. مثلا: والورث باربور الذى عينه الرئيس كيندى ظل سفيرا فى تل أبيب أحد عشر عاما من بدايات الستينات إلى أوائل السبعينات صمويل لويس بقى فى منصبه ثمانى سنوات من ١٩٧٧ إلى ١٩٨٥ وعمل تحت ظل رئاستين: كارتر وريجان و٤ مساعدين لوزير الخارجية: أثرتون وهال سوندرز ونك فليوتس وديك ميرفى.

سام لويس ولد عام ١٩٣٠ فى هيوستن تكساس، أقرب فى رطانة نطقه إلى جيمس بيكر.. تعلم فى جامعة «ييل» واتصف ببرود الأعصاب وصواب الرأى فضلا عما اتسم به مثل هيرمان إيلتس من موهبة يحسد عليها يبدو معها وكأنه يقطر حكمة، وتعقلا، عرف لويس زميله جيم «أكنز» معظم سنى حياته ومن أصدقائه المقربين فليوتس الذى ورث عنه شقته فى نابولى عندما عاد لويس إلى واشنطن وجاء فليوتس إلى إيطاليا، وعندما تقابل لويس فكأنك تقابل أى عنصر من سلك الدبلوماسية الأمريكية فحقيقة أنه خدم فى اسرائيل بدلا من العمل فى بلد عربى لا تبدو واضحة لغير المطلع على جوهر الأمر.. ورغم أن لويس عمل مساعدا للسفير فى أفغانستان المسلمة وخدم فى مواقع عليا ضمن هيئة أركان كيسنجر بالوفد

الأمـريكى لدى الأمم المتـحـدة.. فـإن تخـصـصـه – إن كـان متخصصا – هو أمريكا اللاتينية مع تركيز على البرازيل.. لكن فى عام ١٩٧٧، عندما قام «اندرو يونج» سـفير كارتر الجديد بالأمم المتحدة بتطهير البعثة الأمريكية من عناصر عهد نيكسون – فورد، عرضـوا على لـويس ثلاث سـفارات كتـعويض: الـهند وجنوب افـريقيا واسـرائيل.. ويهز لـويس كتفيه قائلا:«لم تكن اسـرائيل قـد تبادرت إلى ذهنى لكن الأمـر بدا مثيرا بوضـوح للاهتمام ولذا اخترتها».

نقطة البداية عند لويس بالنسبة لوزن العلاقة بين المستعربين وبين السـفير الأمريكى فى اسرائيل.. كانت حادثة وقعت عام ١٩٦١ بفندق «ليدرا» فى نيقوسـيا، قبرص.. يومها كان لويس مساعدا للسفير «شستر باولز» مبعوث الرئيس كيندى الخاص إلى افـريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينيـة الذى دعا إلى اجتمـاع لرؤساء البعثات فى مؤتمر يعقد بقبرص حيث يتاح اجتماع كل سفراء أمريكا فى الشرق الأوسط مع عناصر البنتاجون وخبراء وكالة المخابرات المركزية.. وكان على كل سفير أن يضع زملاءه فى صـورة الأوضاع فى البلد الذى يعمل فيه.. لكن لويس يذكر ولاينسى أنه «عندما قام «باربور» السفير فى اسرائيل بالحديث

أمام مخضرمى المستعربين عن الأوضاع فى اسرائيل، ساد الجو ازدراء محسوس وتشكك ملموس.. لم يكن «باربور» عضوا بالنادى وكان ذلك واضحا».

لكن عندما رشح لويس سفيرا بعد ذلك بستة عشر عاما لم يكن فى الساحة سوى قلة من المستعربين وسرعان ما أصبحت مفاوضات السلام بين مصر واسرائيل هى محور الأحداث - عام ١٩٧٧ شهد زيارة السادات الى القدس.. وهكذا قدر للويس أن ينعم تجربة أفضل من بابور مع زملائه فى إدارة الشرق الأدنى.. يقول: «فى الإدارة لم يكن ثمة ما يجعلنى أشعر أننى مواطن من الدرجة الثانية - وبخلاف ذلك فقد كانوا «هم» مواطنين من الدرجة الثانية».

«هم» يقصد بهم ريتشارد باركر وتالكوت سيل اللذين حيل بينهما وبين عمليات كامب ديفيد لأن لبنان لم يكن له دور ولأن سورية رفضت المشاركة.. وطبقا لما يفيد به لويس فقد كان باركر وسيل يتقلبان على جمر التهميش فيما كان إيلتس بالقاهرة ولويس نفسه فى تل أبيب يشاركان الأضواء مع أثرتون ووزير الخارجية «سايروس فانس» وبرغم أن الأردن والسعودية لم يكن لهما دور كبير فيما يجرى.. فإن لويس يشير إلى حسن علاقته مع فليوتس، وكان سفيرا فى عمان ومع

جون وست، ثم ريتشارد ميرفي السفيرين في الرياض.. بل دعاني وست لزيارته في السعودية.. ولم يكن ميرفي يمثل مشكلة على الإطلاق في التعامل معه.. وكنت أزور الأردن على فترات قادما من تل أبيب.

لكن عندما طلبت إلى «تالك سيل» أن يرتب لي زيارة الى دمشق قال : إنه لايستطيع حقيقة أن يطلب مثل هذا الإذن من السوريين.. وكان ذلك شيئا مضحكا».

يواصل لويس الحديث : كان لدى مشاكلي مع باركر وسيل وكانت ترتبط بالمسار المتوازن لبرقياتنا.. حيث يطلعان على تقاريرى عن الوجهة الاسرائيلية والاحداث فيما أطلع على ما يبعثان عن لبنان وسوريا.. وكنا ندخل في مناقشات حامية تصل إلى حد الوقاحة أحيانا.. بدأ باركر متعاطفا بعمق مع مأساة لبنان معاديا للتحالف الاسرائيلي - الماروني الذي كان يقاتل هناك، سيل كان يرسل برقيات كنت أراها تزداد التهابا بالحمى حول أن المنطقة موشكة على الانفجار وأن العرب سوف يحرقون سفاراتنا إذا لم نفعل هذا أو ذاك.. لكن (السفير) «سيل» له ذكريات مخالفة عن برقياته تلك التي كان يبعثها: كنت كمن يترافع في قضية ولذلك فقد عرضت الأمور على حقيقتها الواقعة.. ولابد من أن «سيل» كان وقتها رجلا وحيدا في دمشق

فى أعقاب كامب ديفيد.. فلم يكن لويس وحده هو الذى ينتقد برقياته من ميزة وجوده فى تل أبيب.. بل إن «فرانسيس فوكوياما» وهو من التعيينات السياسية للرئيس ريجان فى هيئة تخطيط السياسات فى واشنطن وجد أن كتابات «سيل» كانت مبالغة فى تحيزها لجانب السوريين.. لا عجب إذن أن طفح الكيل بالسفير سيل، فدعا الصحافة فى أغسطس ١٩٨١ إلى انتقاد عملية كامب ديفيد للسلام.. ولم تكن نظرة سيل الى كامب ديفيد يعوزها الحكمة.. لقد شعر ببساطة أن عبارة «كامب ديفيد» كانت تنطوى على أثر سيكلوجى سلبى فى المنطقة، ومن ثم ينبغى الامتناع عن استخدامها بالنسبة لأى جهود للسلام تبذل فى المستقبل.. لقد كان المنظور الذى يطل به من دمشق أو بيروت مخالفا لمنظور تل أبيب أو واشنطن.

هكذا توالت الاحداث مثل رواية محفوفة بالحذر حول الكيفية التى تغير بها التخصص العروبى، وكيف أن الساحة شهدت اندفاع خصائص جديدة إلى مقدمة المسرح.. ومنها مثلا القدرة على التعامل الفعال مع الحقائق الداخلية فى أمريكا نفسها.. كل هذا جعل من مخضرمى حركة الاستعراب، على طريقة الجامعة الامريكية فى بيروت غير ملاءمين للعمل فى هذا المجال فى مستقبل الأيام.

الفصل التاسع

صدمة الحقيقة

تحولت بيروت من عصرها الذهبى فى أول القرن إذ كانت موقعا يجمع بين النبع والخضرة وطابع الريف لكى تصبح مدينة شرقى المتوسط التى تنتفض صخبا وتتلألأ لمعانا وتألقا.. هنالك احتوت بيروت اثنتين من جماعات المستعربين الامريكيين (جماعة الثقافة والبر) التى تدور حول محور الجامعة الامريكية، ثم جماعة السفارة التى تعيش على سياسات الواقع.. ولقد كان «تيرى بروثرو» شاهدا على هذا التحول الكبير. تيرى بروثرو عمل أستاذا لعلم النفس معظم مراحل حياته وتميز بقدرة مدهشة على أن يطل على نفسه وعلى أصدقاء عمره وزملائه القدامى من مسافة مجردة من العواطف وتستند الى الموضوعية، وهو يستخدم أسلوبه المعهود من تواضع أهل الجنوب الأمريكى إذ يحكى آخر ما آلت اليه الجامعة الأمريكية فى بيروت.

«أنا من أبناء (ولاية) لويزيانا التى تعد كما قد تعرف النظير الغربى للدول العربية من حيث مطبخها المتنوع الأصول ومن حيث ما تشهده من أحداث واضطرابات.. بعد الحرب العالمية الثانية قمت بالتدريس فى جامعة ولاية لويزيانا وربما لأننى انحدر من أوساط تنتمى الى حزام البروتستانتية (فى أمريكا) فقد وجدتنى واحدا من خصوم التفرقة العنصرية.. من النوع الليبرالى والمثالى أيضا.. وهذا هو بالضبط الذى دفعنى الى أن أذهب الى لبنان والى الجامعة الامريكية فى بيروت وصلت الى هناك عام ١٩٥١ وبقيت فى هيئة تدريس الجامعة حتى عام ١٩٨٤، وعندما وفدت إليها كان (بايارد دودج) قد غادرها لتوه، وكان ستيف بنروز قد شرع فى الاستقرار رئيسا للجامعة.. ثم يشرح «بروثرو» كيف أن سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية شهدت جالية الجامعة الإمريكية في بيروت وهي تدرك ببطء «أى وحش ضار كان يجر الخطى نحو بيت لحم» وهو لا يقصد بذلك فقط قيام دولة يهودية فوق جزء من فلسطين.. بل يقصد مجمل الظاهرة المؤسية للقومية العربية إذ جاءت لتوحد نفسها مع قضية فلسطين، يقول «بروثرو» : جاء عام ١٩٤٨ ليشهد هيئة التدريس بالجامعة الأمريكية في بيروت.. وقد حفلت بمدرسين

فلسطينيين كانوا قد هربوا من ديارهم عشية إنشاء اسرائيل.. وفى الخمسينات أصبحت الجامعة مكانا يقوم فيه الطلاب العرب بتجريب كل ما يعن لهم من ردود الفعل السياسية إزاء التحدى الذى يمثله اليهود فى فلسطين مع ذلك.. فقد ظل المناخ السياسى ساكنا أو كان علمانيا (دون صراع طائفى) بمعنى من المعانى على أقل تقدير، حيث يذكر «بروثرو» أن رئيس جمعية علم النفس كان فلسطينيا راديكاليا، وكان نائب رئيسها شيعيا فيما كان أمين الصندوق يهوديا.

سادت مثالية اللبرالية جامعة بيروت الأمريكية فى عقد الخمسينات.. شهدت فى هذا المشرق السنى من العالم العربى هيئة تدريسية مخلصة تعكف على تعليم الطلاب الأقل حظا من سواهم فإذا تخرجوا فهم يتولون مواقع القيادة فى دولهم التى جرى انتزاعها انتزاعا من بين براثن نظام استعمارى أوروبى عجوز لم يكن لأساتذتهم يد فى ما ارتكبه من أفاعيل.. وبفضل تعدد الدول العربية الجديدة فإن اجتماع ميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ كان له الفخر فى أن يشمل عدداً من خريجى الجامعة الامريكية فى بيروت بأكثر من أى جامعة أخرى.

وفى مقالة تستعيد تلك الأيام الحافلة.. بقلم: «مالكولم هوبر كير» طالب الدراسات العليا الذى أصبح استاذا، ثم رئيسا للجامعة يذكر كيف كان هو وسواه من الأساتذه يتعاطفون صراحة مع الطموحات السياسية لأصدقائهم العرب ويقول: «كانت العلاقات بين العرب والغرب هى الموضوع الذى ملك علينا حياتنا وفكرنا، ولم يكن ليتألف فقط من علاقاتنا الشخصية بالتحديد.. بقدر ما انطوى على وعينا بفكر وأعمال شخصيات مألوفة ومستقرة فى الأذهان.. أبطال عاشوا منذ مئات السنين أو (أبطال معاصرون) أمثال فيصل الأول فى العراق أو جمال عبدالناصر.. بل كان لنا كذلك من نعتبرهم أشرارا.. وهنا يعدد «كير» بينهم ديفيد بن جوريون مؤسس اسرائيل فضلا عن المستعمرين البريطانيين، ثم يقول: «وكان لنا أيضا نصوص الأسفار التى نضعها موضع الإجلال ومنها مثلا كتاب (يقظة العرب) تأليف: جورج أنطونيوس، ويكتب «كير» أيضا عن مشاكل علاقات العرب مع الغرب، ومن بينها كما يقول «اغتصاب فلسطين على يد الصهاينة».

كتب «كير» مقالته تكريما لذكرى عبدالحميد شرف رئيس وزراء الأردن الراحل ومضى فى سطورها ليدعو الى اللبرالية الغربية والقومية العربية والنزعة العالمية التى توحد بين

المسيحية والإسلام.. وليفند مايقال فى جوهر الفكرة التى تدور حول تفوق الغرب وسيادته المعنوية على العرب.. تخرج «كير» فى جامعة «برنستون» وكان قد ولد داخل حرم الجامعة الأمريكية فى بيروت عام ١٩٣١ وفوق حرمها أيضا لقى مصرعه عام ١٩٨٤، سافر «كير» فى كل أنحاء العالم العربى.. لكنه جريا على التقليد الذى سبق إليه «بايارد دودج» فضل أن لا يزور اسرائيل إلا من حيث كونها منطلقا لزيارة الضفة الغربية.. وقد أسر يوما الى زميل له بأن زياراته الى اسرائيل كفيلة بأن تصمه بسوء فى العالم العربى.

على أن قوام الحياة العلمية للرجل أمضاه فى جامعة كاليفورنيا فى لوس أنجلوس حيث استحدث مشاريع بحوث مشتركة بين العلماء العرب والامريكيين.. وصل الأمر الى أن أطلقت بعض الدوائر المعنية بالشرق الأوسط تسمية بالإنجليزية تصف مركز دراسات الشرق الأدنى فى جامعة كاليفورنيا تحت قيادة كير بأنه «لا فلوب» وترجمتها جبهة لوس انجلوس.. لتحرير فلسطين!

«مالكولم كير» كان ابنا بالروح والجسد للجامعة الأمريكية فى بيروت.. ولقد جاءت الخمسينات على حد ما تقول اليزابيث

وارنوك فارينا وروبرت فارينا فى كتابهما: (العالم العربى.. تجارب شخصية) عقدا شهد جيلا من علماء الاجتماع الأمريكيين تحدوهم اهتمامات شرق أوسطية ويدفعهم شغف ينتفض حماسا نحو مايكاد يكون كل شىء فى لبنان إذ كان يشكل بالنسبة لهم دليلا على إمكانية أن يتعايش الإسلام والمسيحية فى سلم ووئام وفى ظل مجتمع حر يأخذ بالرأسمالية.. ويقوم على التعددية.. هم نفس أساتذة العلوم الاجتماعية الأمريكان الذين سيتميز الكثير منهم شغفا وحماسا.. مثل هذه النوعية ممن أصبحوا مبشرين علمانيين سبق وأن وصفهم بدقة (الرحالة الإنجليزى) ريتشارد بيرتون منذ قرن مضى من الزمن عندما تحدث عن الأوهام التى يمكن أن يعيش فيها حتى الأمناء من الرجال.. وعندما قال إن ما لا يمكن أن تدركه هذه النوعيات من أهل التبشير هو أن «العقيدة تعبير فكرى عن هذا الجنس من البشر أو ذاك ولايمكن أن تتقدم بغير تطوير فكرى بين صفوف معتنقيها».

فإذا عدنا الى «تيرى بروثرو» فسوف نجده يقول: أذكر حوارا دار حول قبول «الجامعة الأمريكية» أموالا من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية «ايد».. وقد أدى هذا الى توتر بين

صفوف هيئة التدريس الأمريكية التى لم تكن تريد للجامعة أن تتساهل فى هذا الخصوص.. كانت هيئة التدريس فى بيروت تريد التعليم والديمقراطية والليبرالية وتريد طرح وجهة النظر الغربية وما الى ذلك.. ولم يكن الأمر فى هذا مريحا فى ظل السياسات.. «ومن ثم الأموال» التابعة للحكومة الأمريكية.

بيد أن الأموال جاءت فى كل حال لا من وكالة "إيد" فقط بل ومن مؤسسة "فورد" أيضا مما أدى الى تعزيز مكانة جامعة بيروت الأمريكية وكأنها "عاهلة الشرق" القادرة على تمويل منح دراسية للطلاب فى كل أنحاء العالم العربى - الإسلامى من المغرب وحتى أفغانستان ، ثم جاءت الستينات لتجد نفسك بفضل هيئة السلام "الأمريكية" بإزاء دفق جديد من المثاليين الليبراليين داخل أروقة الجامعة .. وكان تلك طبقا لتقاليد الجامعة فترة مجيدة .

لكن أيام مجد الجامعة انتهت فى يونيو ١٩٦٧ عندما رد الجنود الاسرائيليون على مناورة عبدالناصر فاستولوا على سيناء ومرتفعات الجولان وما تبقى من فلسطين ما أفضى الى إجلاء جماعى ومؤقت للأمريكيين من بيروت . وكما يحكى "بروثرو" وآخرون فقد جاءت حرب الأيام الستة لتشكل الأولى

بين مراحل ثلاث لصاروخ ثلاثي المراحل أدى الى "ردكلة" هيئة تدريس الجامعة الأمريكية ونجم عنه انشقاقات محددة بين صفوف الجالية الأمريكية فى لبنان . وكانت المرحلة الثانية هى فشل حركة أيلول الأسود التى أحبطها الأردن بمساعدة من إسرائيل ونيكسون وكيسنجر مما أرسل موجات جديدة من الفلسطينيين الى بيروت الغربية حيث تقع الجامعة الأمريكية . أما المرحلة الثالثة التى كانت متوازية بمعنى من المعانى مع المرحلتين السابقتين فقد تجسدت فى ردود فعل الجامعة الأمريكية فى بيروت إزاء حرب فيتنام .

يقول "بروثرو" : إن هذه الأحداث وضعت العملية السياسية بالجامعة الأمريكية فى صدر الاهتمامات . كل شيء أصبح أكثر مبالغا فى حجمه . فى جامعات أمريكا نفسها فى تلك الفترة كانت هيئة التدريس معادية للرئيس نيكسون ومعادية للحرب . وعمدت الى تفسير اجراءات الحكومة الأمريكية بالشرق الأوسط على ضوء أخطائها فى جنوب شرقى آسيا وكانوا ينظرون الى إسرائيل بوصفها ذراع الامبريالية الأمريكية فى المنطقة تماما كالنظرة الى حكومة فيتنام الجنوبية . وكانت هيئة التدريس تلمح الى أن واشنطن لم تعمل بما فيه الكفاية على محاولة فهم العرب

بل أن "بروثرو" يذكر إنشاء جماعة مؤيدة للعرب ومؤيدة للفلسطينيين كان معظم أفرادها من أهل الجامعة الأمريكية فى بيروت وأطلق عليها اسم "الأمريكيون ، من أجل العدالة فى الشرق الأوسط" . ومما عزز من جو الراديكالية أيضا تنظيم الاحتجاجات على زيادة المصروفات الجامعية .

فى أواخر الستينات كان كل ما تسمعه فى حرم الجامعة هو "فتح" : نحن سنحرر أرضنا كما فعل الفيتناميون . هذا ما يقوله مراقب كان.موجودا فى الساحة آنذاك . وهو يتذكر أيضا أنه قال لجماعة من الطلاب الفلسطينيين أنهم سيخدمون قضيتهم أفضل بالدراسة لا بالإضراب . فإذا بطالب فلسطينى يبادر برد كالسهم هاتفا : لا تحتكم الى المنطق معى .. وكان بهذا يرفض فى واقع الأمر قرنا بأكمله من التفكير الغربى حاول المبشرون أن يزرعوه في نفوس أهل المنطقة.

مراقب آخر يقول: هيئة التدريس بمن فيها من أساتذة أمريكيين كانوا مؤيدين للفلسطينيين لأنهم كانوا مؤيدين القومية العربية وكان القوميون العرب قد جعلوا من فلسطين قضيتهم الأولى. على أن «بروثرو» لايلبث أن يقول: لكن إدارة الجامعة الأمريكية فى بيروت كانت فى صف نيكسون وفى صف الحكومة:

ذلك لأن الإدارة على خلاف هيئة التدريس هي الأدرى على التحقيق بمن يدفع كثيرا من الفواتير.

في صف الحكومة الأمريكية أيضا كان المستعربون من جماعة السفارة الأمريكية في بيروت، يقول الدبلوماسي المستعرب «هيوم هوران»: إن الجامعة الأمريكية كانت تجسد رؤية الرئيس ويلسون لأمريكا بكل نقائها ولم يكن بمقدور السفارة أن تستبعد هذا الموقف بحكم واجبها في التعامل مع عالم الواقع .

★★★

لكن لاينبغي المبالغة في عرض هذا الانقسام الثلاثي فيما بين الأساتذة أو الإدارة أو السفارة. إن رؤية هذه الظاهرة من أي منظور عميق باستثناء رؤية جماعة المستعربين المؤيدين للعرب، كفيلة بأن تفيد بأن الأمر إنما كان ينطوي على ثلاثة جوانب لعقلية واحدة في الأساس. إن «السفير» بيل ستولفوز وزوجته جانيت يعمدان في صراحتهما الجليلة إلى توضيح الوضع في تعليقهما بأن الجالية الأمريكية في لبنان كانت بغير استثناء تقريبا معارضة نفسيا «لقيام دولة إسرائيل». لكن القلة القليلة هي التي عبرت هذا الخط إلى حيث معاداة السامية.

إن القائمين على إدارة الجامعة الأمريكية كانوا ممزقين بالذات بفعل سياسات حرب فيتنام وحرب الأيام الستة، وهم الذين جلبوا

ذلك على أنفسهم، عندما شجعوا علانية تيار القومية العربية والتمسوا جموعا من الطلاب لاتأتى من منطقة الشام الكبرى فحسب ولكن من كل أرجاء العالم العربى بما جعل الجامعة، من حيث لايقصدون، ساحة لتفاعل السياسة العربية، ومما تحول الأمر معه إلى مزيد من الإحباط بل ومزيد من سفك الدماء بأكثر من تخيله يوما الآباء المبشرين الذين أنشأوا الجامعة».★

ويعترف مسئول بالخارجية الأمريكية بأن جالية الجامعة الأمريكية فى بيروت كانت على مودة شديدة مع الفلسطينيين لدرجة أنه عند اندلاع الحرب الأهلية كان معظم مصادرنا من الفلسطينيين فقد كان هؤلاء هم الذين كنا نتعامل معهم فى الغالب الأعم.

أما التدهور فى الحياة الجامعية بعد عام ١٩٧٥ فقد جاء بعبارات «بروثرو» جسيما يحطم القلب فما من عناصر راديكالية فى جامعات أمريكا ذاتها صدمتها الحقيقة الواقعة على نحو ماحدث لعناصر الجامعة الأمريكية فى بيروت: الحرب الأهلية

★ بالمقارنة ظلت الجامعة الأمريكية بالقاهرة تقيد عدد الطلاب المقبولين من خارج مصر بما جعل معظم طلابها مصريين وجنبها التعاطى مع السياسة العربية مما حفظ لها المناخ الجامعى المعتاد.

جعلت شكاوى الأساتذة أو تذمرات الطلاب فى السبعينيات تبدو مضحكة وفى نهاية المطاف بدأت الحرب تجرجر أذيالها ويطول أمدها وبدأ أخذ الرهائن من صفوف الغربيين واغتيل «مالكولم» كير شخصيا وبعدها يقول «بروثرو» لم يعد ثمة سياسة بين الأمريكيين فى حرم الجامعة الأمريكية فى بيروت، كان الأمر الأهم هو مجرد البقاء على قيد الحياة.

جرايم بانر مان، دارس سابق وعضو فى هيئة التدريس فى الجامعة الأمريكية فى بيروت، يصف مشكلة الجامعة على النحو التالى: «كان الجو السائد بالجامعة الأمريكية فى بيروت ديناميا وغربيا، كانت المعارك الأيديولوجية تشتعل حول قضايا الاشتراكية والشيوعية والليبرالية وما إليها، كانت تلك الحوارات عميقة ودقيقة. ولم يكن ثمة شىء سطحى حول المناخ الفكرى السائد، لكن المشكلة تمثلت فى أن المناخ «لم يكن لبنانيا» فقد كان ثمة قلة من الموارنة وقليل من الشيعة، على أن الجامعة الأمريكية فى بيروت أصبح يسيطر عليها عناصر ثلاثة: السنة والروم الأرثوذكس والفلسطينيون».

ومن الناحية السياسية أصبحت الجامعة الأمريكية تحت سيطرة تحالف من القوميين العرب لأن الروم الأرثوذكس ـ شأنهم

شأن الجماعات المسيحية الأخرى فى الشرق الأوسط مع استثناء ملحوظ هو الموارنة ـ كانوا منذ الحرب العالمية الثانية من بين أكثر العناصر القومية العربية تشددا، جورج أنطونيوس، مؤلف كتاب «اليقظة العربية» كان مسيحيا عربيا وكذلك كان ميشيل عفلق، أحد مؤسسى البعث السورى، وأيضا الزعيمان الراديكاليان الفلسطينيان جورج حبش ونايف حواتمة، كانت القومية العربية بحكم تركيزها على بناء الأمة العربية «الواحدة» تشكل بديلا علمانيا (لا يميز على أساس الدين أو المذهب) بالمقارنة إلى الأصولية الإسلامية التى تهدد غير المسلمين. وعلى ذلك جنح المسيحيون العرب إلى تأييد حركة القومية العربية بحماس خاص لكى يحموا أنفسهم ضد سياسات الاتجاه الإسلامى ويؤسسوا مراكز ثقة لأنفسهم فى إطار المحيط العربى الأوسع. وكان أنجع السبل بالنسبة للمسيحى لكى يدلل لجيرانه المسلمين على أنه عربى بحق هو اتخاذه موقفا متشددا للغاية إزاء الصهيونية (!) وثمة قوى أخرى كانت تدفع الكنائس المشرقية تجاه معاداة الصهيونية وتمثلت فى العناصر التقليدية المعادية للصهيونية للكهنة من الروم الأرثوذكس ثم المنافسة التجارية التى سادت بين هذه العناصر وبين اليهود فى الشرق الأوسط قبيل اشتعال الحرب

العالمية الثانية، كان عداء المسيحيين العرب تجاه اليهود الإسرائيليين قد أشعل أواره المطران هيلاريون كابوت جى، وهو كاهن بالقدس أودعه الإسرائيليون السجن لأنه استخدم منصبه لتهريب المتفجرات إلى الإرهابيين ★ الفلسطينيين.

وكانت القومية العربية، فى إطار تعريفها كمعادية للصهيونية، قد أصبحت مع مقتبل السبعينات قضية لاتتنكر من قضايا الجامعة الأمريكية فى بيروت، برغم البيانات الرسمية التى كانت تصدر عن إدارة الجامعة ومجلس أمنائها للتبرؤ من هذه الأمور على أساس أنهم لا «يتخذون مواقف سياسية». الحرب الأهلية اللبنانية التى أدت إلى تفجير التوترات بين الموارنة والمسلمين السنة جاءت مثل ديناميت اشتعل فى مخزن غلال جاف، ومن ثم كانت أشبه بطوق نجاة للمواقف السياسية لجالية الجامعة الأمريكية التبشيرية، وخاصة بعد الاجتياح الإسرائيلى فى لبنان فى ٦ يونيه ١٩٨٢ الذى نجم عنه دعم الموارنة.

جاء الاجتياح الإسرائيلى للبنان ١٩٨٢ ليزيد من تفسخ لبنان وتعريض سكانه المسلمين للخطر، ثم نجمت عنه نتائج غير مقصودة، ومن المفارقات التى تصل حد الرمز أيضا، أن أول

★ المقصود بالطبع عناصر المقاومة الفلسطينية «المترجم».

أمريكى أصبح رهينة فى لبنان لم يكن سوى «ديفيد ستيوارت دودج» نجل «بايارد دودج» والحفيد المنتمى إلى الجد الأعلى دانييل بليس (مؤسس الجامعة الأمريكية) والمولود فى بيروت عام ١٩٣٨ حيث تعلم هناك في المدرسة الأمريكية وبعدها فى أكاديمية ديرفيلد وجامعة برنستون بأمريكا، وقد أمضى سبعا وعشرين سنة يعمل في أرامكو وشركة خطوط التابلاين العربية، وكان وقت اختطافه قائما يعمل رئيس الجامعة الأمريكية وهو الذى كان أيضا يعرب عن اعتزازه بأن «الجامعة الأمريكية فى بيروت هى التى هيأت مناخا شهد فى ظله مولد القومية العربية وتطورها».

★★★

إن «دودج» يرسم خطوطا متوازية بين اختطافه وبين اغتيال «مالكولم كير» عام ١٩٨٤، يقول «إن الذين اختطفونى والذين قتلوا كير كانوا إيرانيين ولكن يحملون أسلحة لبنانية، ويقول إن الإيرانيين كانوا فى لبنان لأن الإسرائيليين كانوا أيضا هناك ويضيف قوله: لقد اختطفونى فى يوليو ١٩٨٢ فور أن بسط الإسرائيليون سيطرتهم على بيروت».

«وقد أطلق سراحى بعد عام، فى يوليو ١٩٨٣ حيث تمت مبادلتى برهائن من الشيعة، كان حزب الكتائب المارونى (المؤيد لإسرائيل) يحتجزهم لديه».

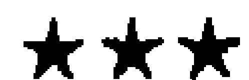
مخطط اختطاف دودج شاركت فيه عناصر سورية وإيرانية، وقد حدث أن تفاوض السفير الأمريكي في سوريا «روبرت باجانيللي» ومعاونوه بمن فيهم «ابريل غلاسبي» (السفيرة فيما بعد في بغداد) و«ويليام روخ» صنيعة «هيرمان إيلتس» من أجل الإفراج عن «دودج» الذي قال إن «ابريل وبوب كانا أول من رأيت بعد أن نلت حريتي».

«روبرت (بوب) باجانيلي» حل محل «تالكوت سيل» سفيرا لدى سوريا بعد أن ترك «سيل» منصبه بسبب عملية كامب ديفيد. وكان السفير الجديد بارزا بين الدبلوماسيين الأمريكيين بوصفه أبعدهم عن الشكليات وعن تقاليد الدبلوماسية أيضا. يقول (السفير) فليوتس ضاحكا: أغضب باجانيللي الجميع فيما عدا أصدقاءه المقربين». ويقول السفير هوران: ولكم أحسست بأنني متهافت بالمقارنة مع بوب». ثم يتذكر: «هوران» كيف أهان باجانيللي (الدكتور) زبجنيو بريجنسكي بسبب تعيين جون وست وقد كان حاكما لولاية ساوث كارولينا سفيرا بالسعودية، حيث كان يرى في وست هذا أشبه بكولونيل بغير ضمير من كنتاكي. «باجانيللي» أهان أيضا (وزير خارجيته) جورج شولتز حول اتفاق ١٩٨٣ بين إسرائيل ولبنان حيث تنبأ بحق أن السوريين سوف يرفضونه،

ويومها قيل بأن باجانيللى صاح حانقا فى شولتز: «أرجو أن تعرف أن الاتفاق سوف ينفجر مرسلا شظاياه فى وجهك». وهنا يقول فليوتس وقد كان مساعدا لوزير الخارجية وقتها: إن شولتز كان على استعداد لفصله من الخدمة.. لكننى أخبرت شولتز أن «ابن الفاعلة هذا هو بالضبط من نريده للتعامل مع البعثيين فى دمشق». وكان فليوتس على حق فقد التزم باجانيللى جانب الخشونة الشديدة مع السوريين، وكان باجانيللى ـ شأن جيمس أكنز ـ من عتاة الرافضين للتدخين ولم يكن ليسمح لأى مسئول سورى بالتدخين فى مكتبه، والمهم أنه تم الإفراج عن «دودج» بعد فترة قصيرة وارتاح شولتز لأنه لم يطرد باجانيللى من الوظيفة.

لم ينل أى من الرهائن الأمريكيين ولا حتى «تيدى اندرسون» ما لقيه «ديفيد دودج» من اهتمام تمازجه المحبة فى إدارة الشرق الأدنى بالخارجية والسبب ببساطة أن «دودج» كان يمثل التجسيد الحى لارستقراطية الاستعراب الأمريكى، أمضى جانبا من اعتقاله كرهينة ثم نشر بين أصدقائه ما يفيد بأنها تجربة يفضل عدم الخوض فيها لا بالسؤال ولا بالجواب، لهذا فبدلا من سؤال «دودج» عن تفاصيل سجنه، سأله زائره عما عساه تعلم سياسيا من واقع التجربة وعما إذا كان قد أثرت على آرائه عن الشرق الأوسط بأى حال من الأحوال.

سرح «دودج» لحظة ثم قال: «لأننى كنت مأخوذا كرهينة فلقد شعرت أنه ينبغى لنا أن نتذرع بمزيد من الإنصاف لقد تغاضينا عن غزو إسرائيل لبنان ويرجع اختطافى فيما يرجع إلى تصرفات إسرائيل ودعم أمريكا لإسرائيل، أجل إننى أشعر أكثر من أى وقت مضى وبمزيد من الإقتناع بأن سياسة أمريكا فى الشرق الأوسط ليست منصفة على النحو الكافى». وما كان «دودج» بطبيعة الحال ينفرد دون سواه من الرهائن بهذه الآراء. والواقع إن تربيته الرفيعة جعلته أكثر توخيا للحذر فى تفكيره بأكثر مما كان عليه المغتربون الأمريكان الآخرون الذين وقعوا فى قبضة الراديكاليين المسلمين.



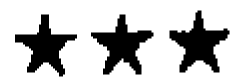
«ديفيد أوين لونج» كان والده واعظا وكان هو مستعربا بالخارجية الأمريكية حيث ولد فى واشنطن بولاية جورجيا فى عام ١٩٣٧ ، وتعلم فى كلية «دافيدسون» فى نورث كاروليتا وهى التى تخرج فيها «دين راسك» وزير الخارجية الأسبق، أصبح «لونج» مفتونا بكل ماهو عربى عندما كان يخدم معاونا لهيرمان إيلتس فى العربية السعودية حيث كان عضوا فى شلة الدبلوماسيين فى جدة فى أواخر الستينات تلك التى كانت تضم «كلوفيريوس»

و«إرنست لاثام» لكن لونج تولد لديه التشكك الصحى إزاء جالية التبشير الأمريكية في لبنان إذ كان يعمل في وحدة تخطيط السياسات ومكافحة الإرهاب في وزارة الخارجية في أوائل الثمانينات، وكان الأمر هنا يتعلق بواحد من الرهائن اسمه «بن وير» المدرس بكلية الشرق الأدنى اللاهوتية فى بيروت وقد اختطف فى ٨ ابريل ١٩٨٤.

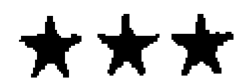
ورغم اختلاف المذهب المشيخى الذى كان يعتنقه «وير» وزوجته «كارول» عن مذهب كلية الشرق الأدنى اللاهوتية التى كانت تعد بمثابة مجمع لطوائف البروتستانت المختلفة، إلا أن الكلية كانت تتولى تدريب رجال ونساء للانخراط فى سلك الخدمة بالطائفية البروتستانتية فى العالم العربى. وكان «وير» وزوجته يمثلان حد التطرف بالنسبة لتطور ذرية المبشرين الأمريكان ومغامرة التبشير فى لبنان، أما جامعة بيروت الأمريكية فكانت شيئا مختلفا عن كليته تلك المتواضعة إذ كانت الجامعة تربطها صلات مع كليات القمة فى أمريكا، فضلا عن علاقاتها السياسية والأموال التى تتلقاها من وكالة المعونة «ايد» ومن مؤسسة فورد مما جعل الجامعة المذكورة واحدة من مؤسسات الساحل الشرقى فى الولايات المتحدة أى قلب الفكر الأمريكى النابض، أما الكلية

الصغيرة فقد كانت تفتقر إلى مكانة الجامعة الأمريكية ومن ثم كانت واقعة تماما تحت رحمة البيئة المحلية ولا كانت تربطها علاقات مع الحكومة الأمريكية أو مع مؤسسات معروفة دوليا مما جعل كلية اللاهوت المذكورة، ومن ثم أساتذتها مثل «آل وير» يعتمدون تماما على إرادة الحكومات العربية التى تأتى إلى السلطة فى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ولك أن تتوقع أن يكون «وير» وزوجته مندمجين فى إطار الثقافة الإسلامية العربية المحلية بأكثر مما كان حتى أهل الجامعة الأمريكية فى بيروت. فى هذا المقام يشكو «ديفيد لونج» قائلا: كان آل وير يعاملوننى ويعاملون وزارة الخارجية وكأننا أعداء رغم أننا كنا بوصفنا حكومتهم نحاول المساعدة على إطلاق سراح «وير»، كانت «كارول وير» وشعب كنيستها قد تولد لديهم شعور «أننا أنبل منكم وأنقى» ـ إزاء حكومة الولايات المتحدة بل لم يرغبوا فى أن تحقق وكالة المخابرات المركزية معه بعد إطلاق سراحه رغم أن مثل هذا الاستطلاع المعلوماتى كان كفيلا بمساعدة رهائن آخرين، بالنسبة لهم لم يكن العدو هو المختطف بل كان العدو هو المخابرات المركزية والإسرائيليين، ويطلق «لونج» على أمثال «وير وزوجته» وصفا يقول إن هذا الطراز «نسيج وحدة من بين المغتربين» طراز

يعرف العالم العربى حق المعرفة لكنه كان يتصف فى الوقت نفسه بقدر لا يصدق من السذاجة السياسية.



وبعد إطلاق سراح «بن» كتب مع «كارول» كتابا نشرته مطبعة صغيرة فى فيلادلفيا بعنوان «الرهينة المقيدة رهينة حرة» وهما يصوران نفسيهما على أنهما زوجان يشعران بالراحة فى العالم العربي أكثر من أمريكا ذاتها من النواحى السياسية والروحية والأخلاقية، بل إن قراءة هذا الكتاب تجعل من الإدعاء بازدواجية الولاء الذى يتهم به مؤيدو إسرائيل من بين يهود أمريكا أمرا هينا لحد السخرية بالمقارنة مع مايقول به المؤيدون العرب فى أمريكا أيضا.



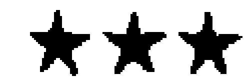
لقد عاش «بن وير» فى لبنان إحدى وثلاثين سنة قبل اقتياده أسيرا وكانت صغرى بناته على وشك أن تقبل وظيفة للتدريس فى مصر فيما كانت كبراهن تعمل بالسعودية بعد أن سبق لها العمل فى بيروت. «كارول وير» من جهتها تعترف بأنه لا يكاد تربطها أى علاقات بالسفارة «الأمريكية» وأنها لم تكن حتى تعرف اسم السفير «كان اسمه ريجنالد بارثولوميوو الذى، لم يكن من

المستعربين». وإذا كانت ضآلة التواصل مع السفارة أمرا شائعا للغاية بين الأمريكيين فى الخارج، إلا أن السفير هو على الأقل أكثر الأسماء شيوعا فى الدوائر الأمريكية المغتربة، وتغيير السفراء عادة ما يصحبه كلام وحديث، مما يدل على سمة غير مألوفة من التباعد عندما يقال إن هناك من لايعرف اسم السفير، وعندما قال أحد مسئولى السفارة إنهم لايستطيعون حتى حماية موظفيها وأن المطلوب من كل أمريكى لايُعد وجوده لازما أن يغادر لبنان، وكان ذلك بعد اختطاف «دودج» ومقتل «كير»، ساعتها ردت السيدة «وير» أن المشكلة ليست فى المختطفين بل إن المشكلة هى فى «سياستنا الخارجية» ولهذا السبب، فإنها لم تشأ ـ كما تعترف، أن تفاتح أحدا فى الأمر فى دائرة مكافحة الإرهاب بالخارجية الأمريكية حيث ذكرت أن كلا من «الزعيم الأمريكى الأسود» جيسى جاكسون والرئيس السورى حافظ الأسد هما اللذان يتحليات بنهج أكثر عقلنة ورشدا فى معالجة أمور الشرق الأوسط بأكثر من الحكومة الأمريكية. ثم وصلت رحلتها العقائدية إلى ذروتها فى مارس ١٩٨٥ خلال لقاء سورياللى مع وزير الخارجية شولتز فى واشنطن عندما وجه شولتز الانتقاد إلى خاطفى زوجها بينما بدت هى ومن معها وكأنهم يدافعون عن

هؤلاء المختطفين على أساس أنهم قوم مخلصون فيما يعتقدون وأن لهم مظالم أسفرت عن مغاضبة مشروعة تجاه الولايات المتحدة، ومن واقع وصف السيدة «وير» لهذا الاجتماع يتضح أن ثمة انفصاما كاملا بين الرؤية التبشيرية التى جاءت بها من بيروت وبين الرؤية الواقعية التى كانت تعتمدها وزارة الخارجية.

★★★

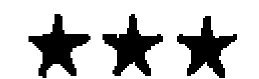
من منظور السيدة «وير» وكذلك (البروفيسور) ديفيد دودج ثم (السفير) «تالكوت سيل» الذى ولد بدوره فى بيروت وعند تقاعده فى عام ١٩٨١ أظهر تبرمه الملحوظ إزاء سياسات بلده باعتبار أن إغضاء أمريكا عن تصرفات إسرائيل يمثل جوهر المأساة الكاملة فى لبنان، كانت المسألة بالنسبة لهم وكأنها مأساة شخصية لا أكثر..وذلك بحكم تكوينهم الشخصى وصداقاتهم التى أنشأوها وتواريخ عائلاتهم فضلا عن السنوات التى عاشوها فى كنف العرب مفعمة بذكريات عن لبنان الوديع المسالم. وفى ظنهم أنهم كانوا دون سواهم الحريصين كل الحرص على المصالح الأمريكية والقيم الأمريكية بينما كان خصومهم اليهود فى أمريكا هم الذين يعانون من شكل معقد من أشكال الوطنية وما كان بوسعهم أن يدركوا حقيقة أن وطنيتهم بدورها كانت معقدة ولو بطريقة أخرى.



ولقد نرى فى الهجوم الذى شنه «السفير سيل» من سفارة أمريكا فى دمشق (ضد كامب ديفيد) أو فى مقابلة السيدة «وير» مع وزير الخارجية «شولتز» واقع الأنفاس الأخيرة التى كان يلفظها الحرس القديم من مخضرمى المستعربين قبل أن يغرقهم الطوفان تحت وطأة المتغيرات اللاهثة الخطى التى كانت تطرأ على أمريكا ثم على وزارة خارجيتها بالذات، إن السياسة الخارجية لا فى أمريكا وحدها، بل فى كل بلد فى العالم تمثل انعكاسا لكيفية إطلالة المجتمع فى الداخل على العالم فى الخارج، وكلما تغير المجتمع، تتغير سياسته الخارجية، إن العلاقة التاريخية التى كانت تربط بين مجموعة من الأمريكيين المتميزين وبين شريحة من مثقفى العرب فى منطقة الشام لم تكن ببساطة مما يدرى عنه. ناهيك أن يتواصل معه، المجتمع الأمريكى المتعدد الأعراق الذى تسوده الطبقة الوسطى فيما يتعلق بإسرائيل، فقد تميز أفراد مثل (البروفيسور) دودج أو (السفير) «سيل» أو السيدة «وير» بأنهم دون غيرهم كانوا شهودا على أسوأ جوانب الشخصية الإسرائيلية، فى المقابل كان بوسع الأمريكيين أن يتفهموا بعمق الجوانب الإيجابية من الحياة الإسرائيلية بأيسر مما يفعلون مع أى من جوانب الحياة العربية، وخاصة فى لبنان الذى أريقت فى مسالكه الدماء، لقد كانت لجان العلاقات الأمريكية ـ اليهودية (اللوبى الإسرائيلى) بكل أخطائها وفجاجة أساليبها أقرب نفسيا

إلى الأوساط الأمريكية العادية بأكثر مما كان الحشد فى الجامعة الأمريكية فى بيروت.

مع ذلك، ظلت الجامعة تواصل تأثيرها، إن لم يكن على المسار العادى فى أمريكا فعلى العاملين فى السلك الخارجى ولذلك كان تغيير المواقف الذى بدأ فى إدارة الشرق الأوسط بالخارجية فى حقبة سيسكو - أثرتون بمثابة تطور تدريجى، بل ظلت الإدارة المذكورة تأوى عناصر من «الحرس القديم» حتى بعد عقدين من ذلك التغيير، ولقد كان حضور الجامعة الأمريكية محسوسا من خلال المعهد الميدانى الذى ظل يعلم العربية لأفراد السلك الدبلوماسى حتى عام ١٩٧٥ عندما نقلوه إلى تونس بسبب اندلاع الحرب الأهلية فى لبنان، وكل المستعربين الذين ورد ذكرهم فى هذا الكتاب تعلموا العربية فى هذه المدرسة الميدانية فى بيروت، ويفسر الأمر أحد المسئولين السابقين بالخارجية قائلا: كان ثمة موقف فكرى عن العالم فى بيروت الغربية المسلمة يتسم بأنه معاد لإسرائيل وقد اتخذته أجيال من المستعربين، وقد زاد من ذلك حقيقة أن المدرسة الميدانية كانت تقع فى العادة على مقربة من مقر منظمة التحرير الفلسطينية والذى حدث أن كلا من المدرسة ومقر المنظمة أيضا انتقلا إلى تونس من بيروت، كانت تلك مصادفة تدعو للسخرية لكنها حدثت».





هوران العرب (★)

ذات مساء، في جامعة إكسفورد التقى الشاعر وأستاذ الكلاسيكيات البريطانى روبرت جريفز لأول مرة مع ت. أ. لورانس (المستعرب الشهير) كان ذلك فى عام ١٩٢٠ وكان لورانس قد فاز بمنحة دراسية من كلية «أول سولز» لإنجاز كتابه «أعمدة الحكم السبعة». وفى مذكراته بعنوان «وداعا لهذا كله» يورد جريفز وصفا حيويا لهذا المشهد.. يقول: فى الحال تعلقت بى عينا لورانس.. ثم شرعتا تومضان وتجولان فى أرجاء المكان كأنما لجرد الملابس وتقاسيم الأجسام.. كان لورانس يتحدث إلى أستاذ عن علم اللاهوت على أثر فلاسفة السوريين الإغريق على المسيحية فى عهدها الأول وبخاصة أهمية جامعة جادارا القريبة من بحيرة

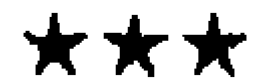
★ على وزن لورانس – العرب . «المترجم»

طبرية وذكر أن القديس جيمس استشهد بواحد من فلاسفة جادارا «أظنه ماناسلكاس» فى رسالته. بعد ذلك انطلق لورانس يحكى عن ملياجر وسائر من أسهموا فى ذخائر الإغريق من السوريين اليونان الذين كان ينوى نشر أشعارهم مترجمة إلى الانجليزية. ساعتها شاركت فى الحديث وذكرت صورة نجم من نجوم الأسحار أوردها «ملياغر» بطريقة رأيتها غير إغريقية. ما كان من لورانس إلا أن توجه نحوى قائلا: «لابد أن تكون جريفز الشاعر. لقد قرأت واحدا من كتبك إذ كنت فى مصر عام ١٩١٧ ورأيته كتابا مفيدا للغاية».

سرعان ما أصبح جريفز ولورانس أصدقاء ولم يبادر جريفز أساسا إلى مفاتحة لورانس فى موضوع بلاد العرب إذ كان لديهما الكثير مما يتجاذبان حوله أطرافا من حديث، فإلى جانب الشعر اليونانى كان لورانس شديد الاهتمام بالشعراء المحدثين من أضراب زيجفريد ساسون وجون ماسفيلد وتوماس هاردى ثم كانت هناك دواوين جريفز التى ساعد لورانس على إعدادها للنشر، وجاء كتاب جريفز عن «لورانس والعرب» أقرب إلى أن يكون سيرة لقديس منه إلى ترجمة لإنسان، لكن كان من الواضح أن جريفز كان لديه ما يقوله بعمق خاص حول لورانس. وكما

تكشف القراءة المتأنية لكتاب «أعمدة الحكمة السبعة» فإن لورانس كان يستخدم الرموز الجبرية اليونانية لوضع استراتيجية لحرب العصابات.. ومن ثم فلم يكن محور الأمر بالنسبة لذلك الرمز الذى صان الامبريالية البريطانية هو مجرد جسارته العسكرية أو قدرته الجسمانية على التحمل أو حياته الجنسية المعقدة ولا اندماجه كواحد بين صفوف العرب ولا إلى أى شىء من هذا القبيل. فكما كان الحال مع «سلفه الرحالة» «ريتشارد بيرتون» فإن التنوع الثقافى عند لورانس هو الذى يجعله نسيجا فريدا بين معاصريه، ولقد كانت معرفة لورانس باللغة العربية وإحاطته بالبيئة العربية مجرد جانب من جوانب تلك العقلية المشبعة بالفضول، ولهذا السبب استطاع جريفز أن يفهم لورانس بأكثر مما فهمه أنداده فى مكتب الشئون العربية البريطانى.. كيف لا.. وجريفز نفسه هو الذى مضى كى يكتب مؤلفاته بعناوينها الشهيرة «أنا كلوديوس» و«المعبودة البيضاء»، ثم أعظم ترجمة على الإطلاق عرضت «الأساطير اليونانية» فضلا عن ثلاثين كتابا عن أوسع فروع المعرفة.، طبعا كان فى لورانس عيوبه مثل سائر معاصريه من المستعربين البريطانيين: كان أقرب إلى الهاوى الطموح منه إلى المحترف المتخصص، ثم أن طابع نظام التعليم الإنجليزى وفى

مدارس البنين الخاصة فى بريطانيا بالذات أفضى إلى جوانب كثيرة من غرابة السلوك منها الإغراق فى الرومانسية والشذوذ ولم يكن لورانس بعيدا عن هذا كله.



لكن ـ إذا استطعت ـ فتصور لورانس طبعة أمريكية ينحدر من طبقة متوسطة.. وينهج أنماط السلوك الطبيعية وينتمى إلى مرحلة الحرب الباردة بدلا من أن ينتمى مثل شبيهه الانجليزى إلى أيام الامبراطورية البريطانية، شخصا جمع بين الذكاء الفكرى والكفاية العملية.. لم يقدر له يوما أن يعانى من أزمات الهوية لا من الناحية القومية ولا من ناحية السلوك الجنسى: شخصا له بيت فى ضاحية وعائلة يأوى إليها، بلغ من اتزان تفكيره ألا يكتفى بالتحيز لجانب على جانب.. بعبارات أخرى نحن بإزاء لورانس جديد، أشد حداثة وينتمى إلى مرحلة ما بعد الصناعة.

لقد ظل «هيوم هوران» وهو من عنيناه بما سبق من سطور محوما حول أطراف موضوع الكتاب كسائر المستعربين من خريجى معهد تعليم اللغة العربية ميدانيا فى بيروت، ولو سألت أيا من كان فى إدارة الشرق الأدنى عن أعظم مستعربيها من ناحية القدرة الفعلية على طلاقة اللسان «العربى» فإن هى إلا لحظة

ويأتيك بعدها الجواب من كلمتين: «هيوم.. هوران». إنه المستعرب الوحيد الذى أكمل مقرر الأشهر الحادية والعشرين فى مدرسة بيروت ولكن فى ١٢ شهرا لا غيره، وتخرج بأكبر معدل أعطاه على الإطلاق خبراء اللغويات فى السلك الدبلوماسى ممن رأوا فيه أكثر من بليغ تضلع فى العربية وكأنها لغته الثانية الأم. وفى بيروت كان «هيوم هوران» يمضى أمسياته يترجم إلى الإنجليزية رواية محببة إلى العرب هى «نداء المجهول» تأليف محمود تيمور. بعد ذلك فى ليبيا كان يعكف على تدقيق منهج دراسى فى قوانين الشريعة فى إحدى الجامعات الإسلامية. وفى واشنطن سيعكف على تدارس عبرية الإنجيل «من أجل أن أقرأ عاموس، رسولى المفضل فى لغته الأصلية ثم لكى أفهم الإسرائيليين كإسرائيليين وأن أعرفهم من خلال اللغة التى يتكلمونها.. وهى لغة تتخطى حواجز كالجنادل فتردد أصداؤها فى الجبال.. يا الله لا عجب إذن إن كانوا على هذا النحو من الخشونة ثم إن العبرية تسير فى خط متواز مع العربية». هكذا يتدفق «هوران» فى الحديث حيث عيناه تسبحان فى بحر من الحمية ورهافة الحس.. ويود لو كان قد وهب حياة جديدة فوق التى عاشها.

مع ذلك فهو ـ هوران ـ ضليع فى الأسبانية والفرنسية والألمانية.. يستطيع ترديد النشيد الوطنى الأرجنتينى وبمقدوره أن

يلقى على مسمعك فصولا كاملة من جوته (بالألمانية) وكذلك من «الروائى الأمريكى» ادجار الآن بو.. ثم ينتقل بك إلى حديث عن روايات غرب إفريقيا وعن كشوفات شعوب المايا فى أمريكا الوسطى ومن ثم عن أدب الأطفال، يتحدث بتفاصيل مدهشة عن مواضيع من قبيل تاريخ هايتى والمستوطنين الأوائل، فى مقاطعة كيبك «الفرنسية فى كندا»، ولأنه مولع للغاية بأحوال أمريكا، فهو يستعرض على مسمعك دفعة بعد أخرى رحلة «وسلى باولز» الى مصب نهر كلورادو فى عام ١٨٨٩ بل يستطيع أن يستظهر أبيات فى حكم المنسية من أنشودة «الراية تتألق بالنجوم».. ذلك أمرؤ باتت شعلة ذكائه من السلالات المنقرضة فى عصر الإعلام الالكترونى حيث ساعات القراءة أقل مما مضى حتى عند ألمع الأفراد ذكاء وتوقدا.

كان «هيوم هوران» فى عمان نائبا لرئيس البعثة خلال أيلول الأسود عام ١٩٧٠ عندما أمسك كل من نيكسون وكيسنجر وسيسكو بخيوط التطورات التى وقعت على مستوى استراتيجى من واشنطن وخلال القتال استطاع هوران أن ينقذ أحد سكرتيرى السفارة كان فى بناية تعرضت للقصف عائدا به إلى حيث المجمع الدبلوماسى ومخترقا أكثر من حاجز تفتيش مأهول بعناصر من

الفدائيين الفلسطينيين حيث كان يقنعهم بالعربية أنه ممثل للصليب الأحمر! كان السفير الجديد «دين براون» قد وصل لتوه وقت بدايات اندلاع الشرر، وكانت الطريقة الوحيدة المتاحة أمام السفير براون لتقديم أوراق اعتماده رسميا هي أن يرسل الملك حسين قافلة مدرعة في السادسة صباحا لإحضار السفير ومعه هوران. وشقت القافلة طريقها مطلقة نيرانها من السفارة إلى القصر.. كان هوران قد بلغ به الجوع لدرجة أبعدته عن القلق فلم يكن يفكر إلا في سؤال وحيد: هل سيقدم لنا الملك إفطاراً «وهذا ما فعله الملك حقا،» لقد أمضى هوران أسبوعين حبيس السفارة التي أثخنها الرصاص يعيش على ربع جالون من مياه الشرب يوميا كان يستقطع منه جانبا لكي يحلق ذقنه ويغسل ياقة وأكمام القميص فما «هوران» إلا المدقق الأريب.

وعندما اندلعت حرب أكتوبر ١٩٧٣ وأطلقت المملكة العربية السعودية سلاح البترول من عقاله كان هوران في جدة نائبا لرئيس البعثة وأدار السفارة بمعرفته انتظارا لمقدم السفير الجديد «جيمس أكنز».

وإذ التزم هوران بحبل الكتمان فقد عايش الدراما السخيفة التي نشبت بين «السفير» أكنز والوزير هنري كيسنجر إذ كانت

فصولها تتبدى أمام عينيه، وكلما كان كيسنجر يزور المملكة كان هوران هو المنسق على الأرض إذ كان يتعامل مع أهل البلاد من موقع أدق التفاصيل. ولقد أمضى هوران فى السعودية خمس سنوات من عقد السبعينيات نائبا لرئيس البعثة وعاكفا على تصريف أمور السفارة لصالح ثلاثة سفراء متعاقبين.. بيد ان هذه الإحاطة الدقيقة بجوانب المسائل العربية ستكون من عوامل أفول نجمه بعد عقد يأتى من السنوات!

«هيوم هوران» مخلوق متوقد الذكاء لدرجة أن حجم رأسه يبدو غير متناسب مع سائر أعضاء جسمه، تماما على نحو ما كان لورانس. ترمش عيناه كأنما تشربان الضوء ثم تركزان على مساحة من الفراغ بما يعكس سلاما مستكنا بين الجوانح على نحو يروق للفيزيائى أن يتمعن فيه، ذلك أن الأمر يبدو وكأن هوران قد انقسم إلى عوامله الأولية.. فلم يعد أن يكون دماغا في وعاء.. لهذا تسمعه يدعوك قائلا: تعال الى بيتنا نتكلم.. بل يقول: تعال عندنا ندرس ونتأمل.

ثم هاهو ذا «هيوم هوران» يتأمل: «اللغة العربية! كلم الله، سبقت رسالات بلغت للناس على نحو أو آخر بالعبرية فى العهد القديم أو اليونانية فى العهد الجديد، لكن القرآن ـ الذى نزل عربيا

ليس تاريخا أو سيرة مثل الإنجيل - بل هو وحى منزل، ولهذا فالعربية أكثر لغات الأرض وشيجة مع السماء.. وهى بهذا تختلف عن الإنجليزية التى تمثل كاتدرائية متشابكة الأركان ترحب بالقاصدين.. نعم الإنجليزية أكثر اللغات كاثوليكية أما العربية فهى نظام محكم الإغلاق تقاوم استعارة الكلمات.. مثل جهاز جليل يروعك منه المنطق ثم تبهرك سلاسته وسهولة أدواته إذ يبدأ فى الحركة وينتقض بالوجيب، وما أن يتوافر لك معرفة اللواحق والسوابق من الكلمات فتودعها ذاكرتك ومعها الأفعال المجردة، الثلاثية السواكن، يصبح بوسعك أن تشكل أى كلمة تخطر على البال.. يبدو الأمر وكأنه التحام نطفة بأخرى فى إطار يستمد أصوله من معين العقيدة حيث المدد عميقا وكثيفا، أين هذا من الإنجليزية حيث لا سبيل إلى أن تعايش المعانى الأصلية للكلمات إلا إذا درست اليونانية أو اللاتينية؟ والمشكلة الأخرى أن العربية من أجمل ماتسمعه الأذن من إيقاع، ومن ثم تجد نفسك ترتبط بأكثر من سبب مع هؤلاء القوم بحكم أسلوب البلور الذى تتشكل به لغتهم فى فضاء الله الواسع. لهذا أعرف كيف قصر المترجمون الإنجليز عن مجاراة (معانى) القرآن.. من آياته ما يمكن اعتباره استكمالا لتشريعات اللاويين.. لكن.. لله در القرآن:

إنه يأخذك عبر سورة البقرة فى تكرار وئيد.. ثم إذا به يروعك بوحى يتفجر بسرعة البرق.. يفاجئك ويزلزل كيانك بمعدل ثلاثة آلاف قدم فى الثانية الواحدة،...».

★★★

مازال هوران يسابق اللحظة وهو يعرض الموضوع، لايكاد يتوقف لالتقاط الأنفاس، يقول: «العربية قد لاتكون أكثر عزلة من الصينية أو من أى لغة أخرى غير أوربية بل إن الصينية تستعصى كما قد نقول، على صيغ الفكر الغربى بأكثر من العربية. إن أزمنة الفعل العربى قد لاتكون محددة بصورة قاطعة بين الماضى والحاضر والمستقبل بيد أن الزمن فى العربية له امتداد خطى والصينية ليست كذلك. على أن العرب هم قوم موحدون من أهل الصحراء لم ينل منهم حلم المن والسلوى بعد الدياسبورا ـ الشتات ـ الذى نزل بأهل الغرب.. ولعلهم بهذا عازفون عن الصور الحسية المزوقة بل هم يطوون الجوانح كما يقول لورانس على أنقى وأصلب عقيدة بحيث تصل فى حدودها إلى مستوى الرياضيات. لهذا فهم ينجذبون نحو المجرد وليس الحسى، ولهذا أيضا لم يكن من إبداعاتهم فنون الرسم والنحت وغيره من فنون التشكيل والتجسيم». ومن هنا يقول أستاذ هوران الراحل «سير هاملتون

جيب» إن الوسيلة التى اختيرت أساسا كى يعبر بها العرب عن حس الجماليات لديهم كانت الكلمة واللغة وتلك أروع الفنون فتنة. وهى بالتأكيد أكثرها تقلبا بل وأشدها خطرا وعند ـ الأستاذ ـ جيب فإن الكلام هو أعظم الفنون. والنن كثيرا ما يخدع. ثم يقفز هوران بضع درجات على بوصلة الحوار كيما يلتقط مقولة تتقاطع مع ما كان يشغله من حديث عن نن الكلام يقول: لقد جاء الإسلام وحيا في القرن السادس وسط عالم من الفوضى السياسية والإنحلال الاجتماعى وأصبح من واجب محمد «عليه الصلاة والسلام» على خلاف عيسى «عليه السلام» أن يحمل على عاتقه مهمة لاتقتصر على الدعوة إلى الدين الجديد فحسب بل إلى إقامة نظام اجتماعى وسياسى أيضا. لهذا أقام محمد «صلى الله عليه وسلم» مجتمعا جديدا لايقوم على أصره الدم بل على وحدة العقيدة. وهذا المسرح الاجتماعى الجديد أثبت أنه قادر على الاستمرار. والذى حدث أن مفكرى الأمة المسلمة، وقد أبعدتهم السياسة فيما انجذبوا لغويا نحو المثالى والمجرد، شرعوا يركزون الاهتمام فحسب على أصول دينهم وعلى حكم الشرع، وذلك مبحث يصفه هوران نفسه بأنه عالم يبغى انقسام الشعرة والطموح إلى الأكمل بغير حدود.. هنالك تجاهلوا أمر السياسة

ولم يعتمدوا سوابق تضفى الشرعية على وقائع الحياة السياسية على النحو الذى تعيشه حاليا الدول القومية المعاصرة.. كل هذا يتم فى إطار عالم يدور حول مبدأ داروين فى البقاء للأصلح وهو مايجعل الشرق الأوسط موقعا هو من الخطورة بمكان.

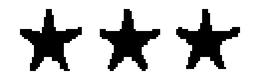
ولد هوران عام ١٩٣٤، ولايزال يتصف بتلك النزعة من الشقاوة والمعابثة والولدنة كأنما ينفس عن طاقة فائقة وحبيسة، أنه يركض ويلعب التنس ولا يمل من ركوب الدراجات وفى أعقاب أحداث أيلول الأسود فى عمان ذهب ضيفا على ولى العهد الأمير الحسن فى إجازة للتزلج على الماء فى خليج العقبة، وإذا أخطأ فى نهاية إحدى القفزات فقد اصطدم بكيس رمال حطم ضلعيه وعدة فقرات وأمضى من ثم شهرا بطوله مستلقيا على ظهره بمستشفى فى عمان.

وها هو هوران الآن وقد عاد إلى الاستلقاء على ظهره من جديد لا بعد حادثة بل حادثتين من حوادث الدراجات ـ لقى لورانس مصرعه وهو يمتطى دراجة بخارية.

طبعا سيشعر هوران بالحرج من هذه المقارنة مع لورانس ولقد سأله يوما أحد مصورى المجلات عن غير معرفة بشخصيته إن كان لديه صورة وهو يرتدى اللباس العربى فما كان منه إلا

أن أجابه لو كان لدى صورة من هذا القبيل لكنت قد أحرقتها ..
ذلك لأنه ليس كبير الثقة فى رجال الثقافة المصطنعة والتجمعات
الدولية الذين يعمدون إلى حشو شخصياتهم بحضارات أو ثقافات
غير مأهولة وكأنهم يتظاهرون بما ليس فيهم . إن هوران لايحب
أن يكون مثل لورانس العرب وإن كان لابد فهو يود لو كان مثل
«لرونو بتلهايم» الذى كان يطل من عدسته المكبرة متفحصا ومدونا
مذكراته عن الأطفال الانطوائيين . ثم يلوح السفير هوران بيمناه
بينما يهز عكازه باليسرى إذ يتهيأ لسرد ملاحظاته عن ليبيا
التى خدم فيها حيث عاش هو وزوجته نانسى عددا من السنين
: نحن هنا بإزاء الصدمة التى انتابت جموع المحرومين حيث
الحياة فارغة وقد كانت تعيشها قبائل سيئة الطالع طردتها
الظروف خارج مصر وتونس ثم استعمرها الطليان . وفى الحرب
العالمية الثانية شهدت تلك الأرض معارك تروح وتجىء إلى أن
اكتمل نهبها كى تصبح من بعد أفقر بلد فى الدنيا حتى ليصبح
أكبر صادراتها هى المعادن الخردة - سكراب من مخلفات الحرب
ثم تنزل صاعقة الثروة بغير تمهيد وبعدها انقلاب سياسى .
هنالك تصاعدت أبخرة الثروة إلى الأدمغة فيكره أصحابها سائر
البشر ، تسود السلبية وتتفشى الشكوك والعناد والمشاكل

النفسية لكن عليك أن تقطع أشواطا طويلة كي تعرف الناس هناك . ان هوران - كما يصفه مسئول سابق بالخارجية الأمريكية أشبه بعلماء التلمود . ويمضى هذا المسئول السابق الذى قلما يمدح أحدا من الدبلوماسيين الأمريكيين ليقول : إن هوران عالم مستعرب كلاسيكى من طراز البروفيسور برنارد لويس - المستشرق البريطانى الأشهر والأستاذ بجامعة برنستون - أما جون كوليه وهو من المعهد الأمريكى للدراسات الدبلوماسية فيقول : «إذا ما أدينا واجبنا على النحو الأكمل فالنتيجة اسمها هيوم هوران».



لو كان هناك امرؤ يحله - السفير - هيوم هوران محل الإجلال والتوقير ويسعى جاهدا إلى أن يحذو حذوه وينسج على منواله لكان هو المستشرق الإنجليزى «هاملتون جيب» .. يقول هوران : طيلة حياتى كنت أشعر بضرورة أن أبذل قصارى جهدى فى عملى لكى لا أخيب ظن - أستاذى - هاملتون جيب لن أنسى الرجل ماحييت .. حقيبته الصغيرة التى ما أن يفتحها تجدها حافلة بالآداب - الأدب الحقيقى فى لغات شتى وما عرفه عن الشرق الأوسط ليس إلا موجة ضمن تيار عريض هو معرفته بثقافة بقية العالم . ان كتابات هاملتون جيب تتردد بين سطورها

انتقاداته الذكية والعميقة للحضارة العربية ومع ذلك فهو مبغض إلى عدد من العلماء الصهاينة واليهود مثل الراحل ايلى قدورى بسبب تفهمه العميق للجانب الإيجابى من القومية العربية . لهذا تجد قدورى يكتب فى عدد يونيه ١٩٩١ من مجلة - كونترى - وكأنما يغمز من قناة هاملتون جيب حين يشير إلى .شركة السير هاملتون جيب وأولاده المؤسسة العتيقة والمنعزلة التى يرى فيها الإرهاص الأساسى المبشر الخواء العقلى ، مع ذلك تجد عند الطرف الأقصى من المعادلة المفكر العربي الفلسطينى إدوارد سعيد يقول فى كتابه «الاستشراق» : ان تحيزات السير جيب الأساسية تظل عقبة كأداء بالنسبة لكل من يبتغى فهم الإسلام الحديث . على أن السفير هوران الذى عرف هاملتون جيب شخصيا يرى نفسه فى المحل الأوسط المتفرد بين الثقافتين الفرعيتين اللتين يصدر عنهما كل من إيلى قدورى وهو المفكر المؤيد للصهيونية وادوارد سعيد المفكر المؤيد للفلسطينيين ، وهذه العزلة يتقاسمها هوران مع سائر - الأمريكان - المستعربين فبرغم طفولة فى وسط متعدد اللغات وبرغم الليسانس والماجستير من هارفارد فضلا عما تعلمه بخاصة على يد السير جيب فمن الخطأ أن نحكم على هوران أنه ببساطة مجرد إنتاج طبيعى

لنشأة حافلة أو لتعليم مرموق . إن إجادته الفرنسية والألمانية أمر من صنع يديه وكسبه العصامى . تراه يحجل حول مكتبته يتناول بعكازه رواية المانية، ثم يقلب الصفحات معتزاً بأن يستعرض علي مسامع زائره حصيلته القديمة من ذخائر المفردات . فى حالة هوران - فإن صفة الاستعراب ماهي إلا جانب من جوانب الاستنارة المشبعة بروح الانسانيات وهومن ثم يشكل رادعا فوريا أمام أى لوبى مؤيد لاسرائيل يفضل الطريق السهل فيشير إلى رجل مثل السفير كيلجور على أنه المثل الحى لحركة الاستعراب فى الخارجية الأمريكية .. فى هذا السياق يصر السفير هوران على أن السفير لايفترض فيه أن يمثل فقط وزارة الخارجية بل هو يمثل كونجرس الولايات المتحدة والبيت الأبيض والعاصمة واشنطن ثم مجمل الفكرة التى تسمى أمريكا.

قد تكون فكرة هوران عن أمريكا أكثر من واقعية تشهد بهذا مقالة كتبها بوحى اللحظة في عدد مارس ١٩٩٢ من جريدة السلك الخارجى يصف فيها الاحتفالات بفوز فريق - ردسكنز - للكرة فى واشنطن وفيها يتجلى هوران لابوصفه مغرورا بمعارفه الدولية بل بوصفه رجلا شعبيا بحق حيث يقول: على مدى ساعة ونصف من يوم ٢٩ يناير لم تكن فترينة العرض

العظمى لأمريكا فى المتاحف بل تجلت أمريكا فى ساحة مول بول حيث تجمع ١٠٠ ألف من مشجعى فريق ردسكنز نصفهم بيض ونصفهم سود يهتفون بحياة الأبطال الذين حصلوا على الكأس رقم ٢٦ .. آه لو رأيت منظر الملابس .. فتاة ترتدي جاكتة ميدان لابد وأن تكون قد سرقتها من ديكتاتور بنما - جنرال نرويجا .. ثم الاساور ذات الشعارات المثيرة .

«كان صباحا لايضم يهودا أو غير يهود بل يضم ألف٠ مشجع يهتفون ويرقصون حيث الأصبع الوحيد الذى يرتفع آنذاك هو السبابة»

★★★

التحق هوران بالسلك الخارجي بعد دراساته العليا فى هارفارد وبعد بيروت خدم فى بغداد من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٣ ومن ١٩٦٤ إلى ١٩٦٦ كان فى «البيضاء» وهى مدينة صغيرة فى شرقى ليبيا ثم عاد إلى واشنطن سنوات قليلة قبل ان يذهب إلى عمان وبعدها إلى جدة نائبا لرئيس البعثة وبفضل أدائه المرموق فى عمان أثناء أحداث أيلول ، وفى جدة أثناء حرب أكتوبر رقى إلى رتبة سفير فى أوائل الأسود الاربعينيات من عمره ، وكان أول مواقع خدمته كسفير فى غينيا الاستوائية والكاميرون وعندما جاء صيف ١٩٨٣ أسند إليه أول منصب سفارة فى العالم العربى وكان فى الخرطوم بالسودان .

الفصـــل الحادى عشر

انديانا جونز★

بسبب عوامل الجغرافيا ، كانت أقطار شمال أفريقيا الناطقة بالعربية (المغرب العربى) تعيش دوما على حواف دراما الاستعراب الأمريكى .

مصر كانت استثناء بطبيعة الحال وكذلك السودان الذى كان بدوره استثناء آخر إذ هو امتداد لمصر إلى الجنوب . بل إن السودان لم يعوزه يوما أن يشهد دراما أبطالها مستعربون وذلك بحكم حجمه الكبير وموقعه المتاخم لكل من مصر وليبيا ثم السعودية عبر البحر الأحمر وهذا ما توضحه القصة التالية :

السفير «باركر هارت» وقد شارف على الثمانين ويتحلى بأرفع اساليب السلوك يضجع فى كرسيه فى صالة نادى «كوزموس» فى واشنطن بجدرانها التى يأتلف على أديمها الأبيض والكريم والذهبى .

★ نسبة إلى مسلسل المغامرات الروائي الشهير «المترجم» .

يتذكر تعيين «هيوم» سفيرا لأمريكا لدى المملكة السعودية فى عام ١٩٨٧ التى كان «هارت» نفسه سفيرا لديها قبل أن يصبح مساعدا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى، العربية السعودية تمثل أكثر من حليف استراتيجى رئيسى وحليف مالى لأمريكا فى العالم العربى، صحراؤها القاسية هى المهاد الذى شهد الاسس التى قامت عليها الثقافة البدوية وديانة الإسلام، وبالنسبة لمستعرب فى وزارة الخارجية فلم يكن ثمة موقع اسمى مكانة من وظيفة السفير لدى الرياض . وبالنسبة للسفير هارت لم يكن ثمة مؤهلات ترشح الفرد لمثل هذا العمل بأكثر من المؤهلات التى حملها هيوم هوران .

«هيوم هوران يتكلم العربية بطلاقة» هكذا يضيف السفير هارت وكأنه براهما من حكماء بوسطن، «بعد أن أقسم اليمين كسفير بدأ يلقى أبيات من الشعر العربى يحفظها عن ظهر قلب لست أعرف ما هى لكن كانت عذبة فى الاسماع » .

فى الواقع كانت الأبيات من قصيدة لمحمود سامى البارودى ، السياسى المصرى الشاعر الذى عاش فى أواخر القرن التاسع عشر ونفاه البريطانيون الى سيشيل لمدة عامين ★. ويقارن هوران

★ الصحيح إلى سيلان (سرى لانكا) والصحيح أيضا ان النفى دام١٦ عاما (يناير ١٨٨٣ – سبمتمبر ١٨٩٩) المترجم .

نفى البارودى بمنفى اسحق شامير الذى كان البريطانيون قد ارسلوه الى اريتريا★ . أما الشعر المترجم الى الانجليزية فيبدأ بهذا البيت :

يارب قد طال بى شوقي الى وطنى

فأحلل وثاقى وألحقنى بأشباهى ...

وينتهى بهذا البيت :

عسى الله يقضى قربة بعد عودة

فيفرح باللقيا أب ووليد

والواقع ايضا أن هوران عمد الى أن يأخذ بيتين منفصلين من شعر البارودى ويخيطهما معا فى نسق واحد آملا ألا يكون هناك من يلحظ لجوءه هذا إلى استخدام رخصة الشعر وما كان له أن يقلق فى هذا الأمر، فلم يكن أى من الذين شهدوا حفل القسم قد سمع لا عن الشعر ولا الشاعر ولا كان معظم الحاضرين بوسعه أن يفهم العربية أصلا. مع ذلك فالاقتباسات التى اختارها كانت موافقة للمقام. إن هوران بمعنى من المعانى كان كمن يعود الى الوطن أو على الأقل الى قطر عربى كان يعرفه حق المعرفة هو العربية السعودية .

★ هكذا .. ! المترجم .

لم يكن فيما يبدو ثمة فرد فى مجمع الخبراء الأمريكيين أفضل مؤهلات في تلك المرحلة ليصبح سفيرا لدى العربية السعودية من هيوم هوران : عربيته لم تكن بليغة فحسب، ولكنه كان قد فرغ لتوه من إنجاز ثالث مهمة له كسفير فى السودان وسط نجاح مشهود. فى الخرطوم كان قد أعطى نموذجا يحتذى بحق عن دور السفير بالضبط. وعندما غادر الخرطوم ، اشار مسئول سودانى الى تواطؤ السفير فى تهريب الفلاشا وقال لهوران «لم تكن محبوبا هنا على وجه الدقة، إلا أن هوران أجاب مبتسما : ليس من وظيفتى أن أكون محبوبا ، إن وظيفتى أن أمثل قيم ومصالح الولايات المتحدة. وكان هوران يقصد الولايات المتحدة «ليس مجرد وزارة الخارجية ولكن كونجرس الولايات المتحدة والبيت الأبيض ايضا». على حد ما قال .

فضلا عن ذلك، كان تعيين هوران لدى الرياض اشارة مقصودة أو غير مقصودة بأن الولايات المتحدة تعلمت درس ايران فى السبعينات عندما سقط الشاه وهو : لا تجعل من علاقة عسكرية واقتصادية مع نظام حكم ما تحول بينك وبين التعرف على المعارضة الداخلية فيه. من هنا فالسنوات الخمس التى أمضاها هوران فى العربية السعودية عندما كان يدير السفارة

عمليا تحت رئاسة ثلاثة سفراء مقرونة بإجادته التامة للغة العربية وشخصيته البارزة ، كل هذا جعله خبيرا بأبعاد المسرح المحلى هنالك . يضحك فليوتس المساعد السابق لوزير الخارجية لشئون الشرق الادنى قائلا : لعلك لا تعرف هيوم هو ذلك النمط من الرجال الذين يتحلون بالمودة الشديدة ويستطيعون إقامة صلات محلية كثيرة. فى خمس سنوات فى مكان مثل السعودية اصبح يكاد يعرف كل فرد دون تدخل من مترجم أو غيره، ويقول هوران نفسه : فى السبعينات كنت آكل الدجاج المجهز فى المطاعم البسيطة مع كثيرين ممن كانوا فى شتى مواقع الحكومة السعودية. بل إن صلات هوران لم تقتصر على الأنماط الحكومية ولكنها تعدت الى علماء الإسلام مما أصاب السعوديين بالتوتر العصبى. كانت واشنطن مرتاحة لفترة ما إزاء تعيين هوران سفيرا لكن الحكام السعوديين لم يكونوا كذلك، بل أن هوران كان اسوأ كابوس لديهم الى حد ما . ربما كانت حكاية هوران مع الفلاشا نوعا من الرذاذ الذى كان لايزال يعلق بالرجل فى عيون السعوديين ، لكن آخر شيء كان يريده الملك فهد وحاشيته هو امريكى ذكى فى الرياض يجيد العربية وله اتصالات فى الشارع السعودى، ومن ثم فهو قادر على أن يدحض الصورة الوردية

الوحيدة الجانب التى يتولى بيعها عن العربية السعودية فى واشنطن سفيرها الواسع النفوذ الأمير بندر بن سلطان. من الواضح ان السعوديين كان لهم تجربتهم مع سفراء امريكيين كانوا يجيدون التحدث بالعربية. كان أول سفير على الإطلاق لدى المملكة هو الكولونيل ويليام ايدى وكان نموذجا يحتذى، كذلك كان هناك بيت هارت وهيرمان ايلتس وجيم اكنز وريتشارد ميرفي. لكن مع امكانية استثناء الكولونيل إيدى فإن عربية هوران كانت افضل بكثير من كل هؤلاء الرجال. وعلى خلاف هوران. كان إيدى ابن مبشر وكان معروفا عنه جيدا عواطفه السياسية المؤيدة للعرب. والأهم من ذلك ان كان لهوران سمعة انه ليس «سفير الليموزين» ذلك النوع الذى تقتصر علاقته وصداقته مع الجاليات الاجنبية فيما تقتصر اتصالاته العربية على المواقع الرسمية وعلي الذين يعيشون فى مركز . خدمته . لقد أحب هو ران أن يخرج إلي الشوارع وأن يتحدث الى الناس ...

وكان هناك ايضا مسألة منبت هوران الايرانى . وهذه المسألة لم يكن هيوم يعلنها ولا يبقيها فى طى الكتمان، وربما لم يكن لدي السعوديين حق او منطق فى هذه المسألة . لقد كانت شأنها شأن كراهية اليهود مسائل تبرز أشد الجوانب سلبية فى الشخصية

الوطنيـة السـعـودية ، ألا وهو نزوعـهـا إلى تصـور اسـوأ أنواع المؤامـرات وأكثـرها بدائيـة وهـى سمـة لا تزال عـالقة حتى بأكثـر السعوديين استنارة . لهذا السبب بالضبط لم تخضع المسألة لأى نقـاش على الاطـلاق اخـتـارت واشنطن الرجل الذى ارادته وكـان لديها الحق فى الا تعتبر ان هذا الموضوع له قيمة وعلى ذلك وافق السعوديون فى صمت ...

لكن هذه العوامل كلها ما كان لها ان تتصاعد لولا تدخل سوء الحظ فى مسـار الأمور. فى اواخر عام ١٩٨٧ كان هوران قد بدأ لتوه الاستقرار فى عمله الجديد عندما تعين عليه هو ومعه موظفو سفـارته، مسـتعـينين في ذلك بصور الاقمـار الاصطناعيـة ومـا خلصت اليه نتـائج الاسـتخبـارات الوطنيـة ان يحل أحدث ألغـاز الرمـال، مـثـلا لماذا كـان الاطعمـة الصينيـة تخـتـفى بهذه السـرعة الفائقة من الاسواق المحلية ؟ وكما عرف موظفو السفارة فيما بعد فـإن السـبب كـان راجـعـا الى أن الفنيين الصـينيين يأكلون هذه الاطعـمـة . فـى الصـحـراء جنوبى الرياض كـان هناك منشـآت لصـواريخ «سـى، إس،إس. التـسـيـارية المتـوسطة المدى - القـادرة بسـهولة على بلوغ اسـرائيل والتـى كـان من شـأنهـا، كـمـا يقـول هوران، ان تضـع السـعوديين فى مـوقـع اسـتراتيجى متـميز وجديد،

كان السعوديون قد قطعوا وعدا سريا لواشنطن بعدم نشر هذه الاسلحة لكنها كانت مسألة حساسه . أما الأمير بندر السفير السعودى فى واشنطن ، فقد ابرم على مايقال الصفقة عن هذه القذائف التسيارية بنفسه اثناء زيارته للصين. بندر كان أكثر من مجرد اوسع السفراء الأجانب نفوذا على نهر البوتوماك فى واشنطن . كان شخصية لا تبارى، يمكن أن تكسب الجميع وهى مفعمة بالدولارات والنفوذ وكان يتمتع بعلاقات ممتازة مع مجلس الأمن القومى ومع الرئيس ريجان وزوجته .

مع ذلك، فقد اوعزت وزارة الخارجية الى السفير هوران فى مارس ١٩٨٨ بأن يوضح للملك فهد مدى حنق الولايات المتحدة بسبب نشر تلك الصواريخ . وعندما تلقى هوران التعليمات بلغ من فهمه العميق للسعوديين الى حد أنه كان يعرف ان «تلك مسألة فى غاية الحساسية» وهى كفيلة بسهولة بأن تفقده موقعه كسفير. وعليه ففى صباح اليوم التالى لتلقيه التعليمات اتصل مع واشنطن طالبا إعادة تأكيد للتعليمات وسائلا ادارة الشرق الادنى : هل انتم متأكدون بأنكم تريدونني توصيل هذه الرسالة ؟ وجاء الرد بالايجاب وكان هوران على بينة انه فى مثل هذا الموقف فإن بلاغته فى الحديث الطليق بالعربية تشكل سلبية واضحة لا لبس

فيها . وكما يفسر الامر صديقه فليوتس : تلك هى اللحظة التى لا تريد فيها أن تكون عارفا بالعربية . اللحظة التى تريد من مترجم ان يتفوه بالعبارات الصعبة نيابة عنك ومن ثم لا ترتبط انت شخصيا فى عقل الملك بما قيل فى تلك المواقف . وعليه فبدلا من أن يطلب مقابلة الملك . كتب هوران الاحتجاج على الورق وقام شخصيا بتسليمه الى القصر .

كان يمكن لمثل هذا التكتيك ان يؤدى مفعوله. صحيح ان الرسالة احنقت الملك فهد الذى لم يكن حتى قبل تسلمها قد استقبل هوران فى لقاء خاص على نحو مافعل مع السفراء الامريكيين سابقا ولاحقا. لكن الذى وضع حقيقة السكين علي عنق هوران كان تصرف البيت الابيض فى عهد ريجان . ففى غضون ساعات من تسليم الرسالة تلق هوران برقية من واشنطن تبلغه ان «يوقف الجهود» المتعلقة بصوارئيخ «سلك وورم »لأن «رسالة مختلفة» ذهبت مباشرة من واشنطن إلى الرياض ، ويقال إن بندر استخدم قناة خلفية عن طريق اتصالاته بالبيت الأبيض لإلغاء الأوامر التى تلقاها هوران بعد تنفيذها . هكذا أمسك الملك فهد برسالتين في يديه : واحدة من واشنطن تقول إن نشر الصواريخ مسألة تحتاج مناقشة وربما لا شئ أكثر من ذلك ، ورسالة أخرى

. من هذا السفير الفضولي المتحدث بالعربية نصف العجمى تقول : إن النشر أمر غير مقبول ، فى حين أن الأمر غير المقبول فى نظر الملك كان هذه النوعية من السفراء . هكذا أوضح الملك أن هوران الذى لم يمض في الرياض سوى بضعة أشهر لا يمكن أن يكون همزة وصل عملية على الإطلاق .

من هنا استدعت واشنطن هوران وسارعت بإرسال والتر كتلر المعروف باهتمامه بالعموميات سفيرا جديدا لها . وبرغم أن كتلر لم يكن يتكلم العربية إلا أنه نعم بفترة خدمة بعيدة عن المشاكل بل كان يتمتع بإمكانية الوصول الميسور إلى الملك فهد .

على أنه ساد شعور فى دوائر السلك الخارجى بأن هوران لم يظلم فحسب من جانب السعوديين وأصدقائهم المتنفذين فى واشنطن ، ولكن أيضا من جانب كبار موظفى وزارة الخارجية البيروقراطيين لمجرد أنه كان قد بلغ شأو الكمال بوصفه خبير منطقة بمعنى أنه كان يفهم السعوديين بأفضل مما أرادوا أن يفهموا به . لكن هوران يستبعد هذه الوساوس قائلا : «نحن السفراء أقرب ما نكون الى ورق الكلينكس ، نحن مجرد أدوات للاستخدام ولسنا صانعى سياسة . إننا موجودون لكى يلقون باللوم على أكتافنا ثم يطوحون بنا هنا وهناك حتى تستمر العجلة فى الدوران» . فإذا ما تطرق إلى سلوك واشنطن فإن هوران

يكتفى بالقول : «بعد أن أذيعت حقائق إنقاذ الفلاشا وطلبت حكومة السودان الجديدة استبعادى ، قام شيت كروكر (مساعد وزير الخارجية لشئون أفريقيا) بإبلاغ الخرطوم دون مواربة أن لو أراد السودان مواصلة التعامل مع واشنطن فينبغى أن يظل هذا التعامل عن طريق هيوم هوران» . ولن أنسى لكروكر هذا الصنيع ما حييت (!) أما عن أسلوب استجابة الوزارة إزاء ممارسة السعوديين ضغطا مماثلا فلنكتف بالقول إن المسألة لم تكن على غرار جزيرة «كوريك دور» (وتلك إشارة إلى المقاومة الباسلة لقوات الولايات المتحدة فوق جزيرة كوريك دور قبيل استسلام الفلبيين أمام اليابانيين فى شهر مايو ١٩٤٢) . بعد استدعائه من العربية السعودية عمل السفير هوران فى عدد من اللجان الرفيعة المستوى وبعدها انتخب من زملائه أعضاء السلك الدبلوماسى رئيسا لرابطة السلك الخارجى الأمريكى ثم عين سفيرا لدى كوت ديفوار (ساحل العاج) وهى أهم بلد ناطق بالفرنسية فى غرب أفريقيا . لكن هذا لم يكن ختاما ناجحا من الناحية الشكلية لحياة دبلوماسية حافلة بالنسبة الى سفير سبق أن عمل فى الرياض وهو أفضل من تكلم العربية فى تاريخ إدارة الشرق الأدنى بوزارة خارجية الولايات المتحدة . بيد أن هوران نفسه لم يكن يوما بالشخصية التقليدية ، ومرة أخرى فثمة مشابهة تقرن بينه وبين

مستعرب بريطانى هو سير «ريتشارد بيرتون» فبرغم أن بيرتون تسلل في أيامه إلى قلب جزيرة العرب ، وبرغم دوره فى اكتشاف منابع النيل التى لا تبعد كثيرا عن جنوب السودان ، فإن الخارجية البريطانية ما لبث أن انتدبته للعمل مبعوثا إلى غرب أفريقيا حيث رشحوه سفيرا فى داهومى المجاورة لساحل العاج ، وكان ذلك فى عام ١٨٦١ .

★★★

هيوم هوران أراد يوما أن يصف طائفة المستعربين الأمريكيين من أنداده فقال بلهجته التلقائية التى تنضح سخرية من الذات : «مثلى كمثل زهور أوركيد منقرضة استولدت بذرتها دولة عظمى هى أمريكا . أنا أتصور أن وجود أمثالنا لا يبرره إلا وجود مثل هذه الدولة المنيعة . «ولقد كان هوران أينع زهور الأوركيد وأكثرها تألقا وكان شأنه فى هذا شأن أضرابه ممن عملوا فى خدمة الامبراطورية البريطانية - لورانس وريتشارد بيرتون . على أن هيوم هوران يمثل أكثر أنواع المستعربين تقدما وذلك قبل أن يبدأ هذا الفصيل فى الاضمحلال ومن ثم الانقراض. وكما كان الحال مع «لورانس» . وكذلك مع «ريتشارد بيرتون» ، فإن بيروقراطية موظفى المكاتب لم تعرف حق المعرفة كيف تتعامل مع هذه النوعية من البشر .

رقم الايداع
١٩٩٦ - ٥٢٣٤
I. S. B. N.
977 - 07 - 0480 - 6

الفهـــرس

الفصل الخامس :

الفصل السادس :

الفصل السابع :

الفصل الثامن :

الفصل التاسع :

الفصل العاشر :

الفصل الحادى عشر :

الهـــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالم العربى
يونيو ١٩٩٦ .. تقرأ فيها :

فـكـر وثقافـة

التصحر في أرض الابداع .... د. مصطفى سويف

الجنة الضائعة والجنة الأرضية .... د. شكرى عياد

الفكر الاقتصادي المصرى في عصر الانفتاح .... د. جلال أمين

إميل حبيبي، مفارقة الأديب السياسي .... ابراهيم فتحى

مصـر والعالم فى القرن ٢١

جزء خاص

مستقبل العالم وصراع الثقافات ...... د. احمد عبدالرحيم مصطفى

قراءة في كف مصر في ثلاثينيات القرن المقبل .... د. رشدى سعيد

التعليم والحرية والتطوير العلمي .... د. محمد عبدالفتاح القصاص

التعليم علي مشارف القرن الحادي والعشرين ....

.... د. سعيد اسماعيل على

التكامل العربي شرط الدخول الي القرن الحادي والعشرين ....

....د . اسماعيل صبرى عبدالله

مستقبل الاسلام السياسى في العالم العربي ....

....هانى عبدالمنعم خلاف

مستقبل اسرائيل، مأساة الوطن المستحيل .... مصطفى الحسيلى

مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين. .... د. صلاح قنصوه

قصة وشعر

التكوين

الأبواب الثابتة

عزيزى القارىء - أقوال معاصرة - من الهلال إلى الهلال - المكتبة - أنت والهلال - الكلمة الأخيرة

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

روايات الهــلال

تقـــدم

لا أحد ينام فى الاسكندرية

بقلم

ابراهيم عبد المجيد

تصدر

١٥ يونيه ١٩٩٦

كتاب الهـــلال

يقدم

كتابة القصة القصيرة

بقلم

هالى بيرنت

ترجمة

أحمد عمر شاهين

يصدر : ٥ يوليه ١٩٩٦

هذا الكتاب

هذا كتاب بالغ الأهمية، نترجمه وننشره رغم خلافنا الجوهرى مع كاتبه، وعملاً بحق القارىء أن يعرف، وخاصة أنه يتضمن قدرا هائلا من المعلومات المهمة.

ولأول مرة يصبح التخصص ـ عند الكاتب ـ مأخذا يجب التخلص منه، فالمستعربون الأمريكيون الذين درسوا اللغة العربية فى معهد شملان في لبنان وفى المعهد الذى أقيم في تونس بعد الحرب الأهلية اللبنانية أو في الجامعة الامريكية فى القاهرة، كل هؤلاء يتحيزون للعرب ومعادون للسامية، ليس للعرب ككل بل للعرب السنة وحدهم، واتسمت أعمالهم بسوء التقدير خلال النصف الاخير من هذا القرن، وهو يعنى بذلك تحذيراتهم المتكررة للادارة الامريكية بعدم التحيز لاسرائيل!

وآخر قائمة التهم أن بعضهم يعمل فى العواصم العربية وعينه على الاشتغال بالاعمال التجارية بين بلدان النفط والولايات المتحدة الامريكية.

ويبشر القارىء بظهور نوع جديد من المستعربين موالين لاسرائيل، ينظرون الى العرب على أنهم فسيفساء من السنة والشيعة والعلويين والدروز والمارون والأرثوذكس والكاثوليك ، والنجاحات التى حققتها السياسة الامريكية نتيجة احلالهم محل الجيل القديم، وهؤلاء يعود لهم الفضل فى مشروع التسوية العربية الاسرائيلية (!).

وعلي العكس تماما ، فالمستعربون الجدد الذين يؤيدون مواقف اسرائيل على طول الخط ، هم العقبة الرئيسية فى تحقيق السلام ، وهم الذين يصادرون على امكانية قيام علاقات متينة بين الولايات المتحدة والدول العربية .

ولا يمكن إلا ويثير هذا الكتاب التقدير بكمية المعلومات التى جمعها المؤلف، والذى قام جزء اساسى فيها على الارشيف الشفاهى للخارجية الامريكية، الذى يسجل كل من عمل فى موقع تجربته وخبرته.

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت   السيد / عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V.N